

ليوبولدو لوجونيس

# حرب الجاوتشوس

ترجمة: عبد السلام باشا

# حرب الجاوتشوس

ليوبولدو لوجونيس

رواية

عبد السلام باشا/ مترجم وصحفي مصري، له العديد من الترجمات عن الإسبانية. أهمها " السيرة الذاتية" و"حكايات" لخورخي لويس بورخيس، ورواية "المهرطق" لميجيل ديليس، ورواية "ليل تشيلي" لروبرتو بولانيو، ورواية "الطريق إلى إيدا" للكاتب الأرجنتيني ريكاردو بيجليا.

حرب الجاوتشوس  
طبعة 2022

التقييم الدولي: 2-07-980-9953-978

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any form or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر  
محمد البعلي

إخراج فني  
علاء التويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار

تم نشر هذا الكتاب بالتعاون مع دار المصور العربي

هذه ترجمة كاملة لكتاب "La guerra gaucha" للكاتب Leopoldo Lugones الذي صدرت طبعته الأولى عام 1905.

Esta es la traducción completa de "La guerra gaucha" de Leopoldo Lugones, publicado en 1905.

  
دار المصور العربي

  
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE  
WWW.SEFSAFA.NET  
sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

ليوبولدو لوجونيس

# حرب الجاوتشوس

رواية

ترجمة

عبدالسلام باشا

Obra editada en el marco del Programa "Sur" de Apoyo a las Traducciones del Ministerio de Relaciones Exteriores y Culto de la República Argentina.

هذا العمل نُشر ضمن برنامج "SUR" لدعم الترجمة الذي تقدمه وزارة الخارجية والشؤون الدينية الأرجنتينية

**سفا**  
SEFSafa PUBLISHING HOUSE  
WWW.SEFSafa.NET



بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،  
إدارة الشؤون الفنية

كراتوخفيل، يرشي

ثعلبة في ثوب امرأة:رواية/ يرشي كراتوخفيل، ترجمة: خالد  
البلتاجي

الجيزة، دار صفافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١

٢٠٨ ص، ٢٠ سم

تدمك ١-٢٣٤-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص التيشيكية

أ- البلتاجي، خالد ( مترجم)

ب- العنوان

٨٩١،٨٦٣

رقم الإيداع: ٢٠٢١/٢٧١٠١



## كلمتان

حرب الجاوتشوس ليست تأريخاً، على الرغم من أن موضوعها وخلفيتها تاريخيان. الوقائع التي يضمها الكتاب تحاول تقديم فكرة، بأكبر قدر ممكن من الوضوح، حول نضال الميليشيات الريفية والثوار الوطنيين ضد الجيوش الإسبانية التي احتلت "بيرو العليا"<sup>(1)</sup> ومحافظة "سالتا" منذ 1814 حتى 1818.

تلك الوقائع التي كانت مؤرخة في خطة العمل، من أجل دقة أكبر في التنفيذ، تعود إلى الحملة التي بدأها "لا سيرنا" في آخر تلك الأعوام، وانتهت في 4 مايو من ذات العام مع إجلاء محافظة "سالتا"، لكن بما أنها جميعاً تقريباً من إبداعي، كان يجب أن أدرج هذا التوضيح.

ولذات السبب، يخلو الكتاب من التواريخ والأسماء والمواضع الجغرافية. فالحرب التي نتناولها هنا مروية بأدق التفاصيل في تاريخنا، ولهذا لم يكن ممكناً زخرفة تلك الوقائع بمثل هذه المحددات دون الاقتصاد في استخدام الخيال.

بالفعل، تبقى اللجوء إلى الرواية، وربما كان هذا هو المشروع الأول؛ لكن كان هذا سيتطلب مجلدات بسبب حجم المادة السردية وعدد الشخوص. وبين كون هذا مواتياً والملاءمة للقراء، الذين يمتلكون الحق في الدقة قبل أي شيء، لم يكن ممكناً أن يتردد المؤلف...

من جانب آخر، فإن حرب الجاوتشوس كانت في الحقيقة مُجهَّلة مثل كل حروب المقاومة الوطنية الكبرى؛ وعدد قادتها الذين وصلنا إلى معرفتهم (يتجاوزون المئة) يكشف عن طبيعتها. هذا السياق كان يفرض الصمت على أسمائهم بشكل مزدوج؛ فمن الغبن ذكر بعضهم ونسيان آخرين، بينما يمتلكون جمعياً ذات الجدارة. من دون شك، أكثر من مئة قائد يفوقون طموح أي أدب سردي، لكيلا نذكر الرتبة المتولدة عن ذكر هوياتهم بالتفصيل.

بالإضافة إلى هذا، هناك رجل حرب الجاوتشوس، ملهمها الرمزي، إن أمكن قول هذا، وهو جويس<sup>(2)</sup>، الذي خصص له الفصل الأخير كتمجيد مختصر. كان بالفعل منقذ الاستقلال في الشمال؛ والابتكار في تكتيكة لا يمكن أن يمنعنا من اعتباره كأحد كبار المحاربين في الوطن. وهكذا يمكن أن يمنح اسمه المجيد دلالة اسمية لكل تلك البطولات المجهولة، التي تفتقد لأسماء محددة.

---

2 - مارتين ميغيل دي جويس (1785-1821)، قائد عسكري وسياسي أرجنتيني، قدم أداءً رائعاً في حرب الاستقلال الأرجنتينية. كان حاكماً لمحافظة سالتا لمدة ست سنوات. وخاض حرب عصابات مستمرة، بموارد محدودة للغاية، وأوقف ست غزوات من الجيش الإسباني، وبالتالي الحفاظ على بقية الأراضي الأرجنتينية الحالية دون التعرض للغزو.

لا يتبقى لي سوى اللجوء لتفهم القارئ لاستخدام بعض أسماء السكان الأصليين، أو بعض الاصطلاحات الجديدة المُخلّسة، أو بعض الأفعال التي قمت بتدشينها بسبب عدم وجود مفردة معبرة: أمور طارئة يستحيل تفاديها بسبب طبيعة هذا الكتاب. وهي قليلة على أي حال؛ لأنني لم أرَ أن موضوعه الوطني سيكون عائقًا لتناوله بالإسبانية، وبأرقى أسلوب ممكن، حيث يجب أن أنسب كل نقيصة في هذا الصدد إلى نقص إمكانياتي، لكن ليس إلى ضعف عزيمتي.

ليوبولدو لوجونيس

## استهلال

مشوا طوال الليل، ليظهروا لدى طلوع النهار فوق أحد التلال التي تهيمن على الممر الضيق حيث حاربوا قبل قليل في العتمة.

كانت رياح الشمال، المرتعشة في الوميض الخافت، تضرب المجموعة التي تماهت مع الجبل، بجوار الصخور، في الأعالي، وتحت الفجر الشاحب.

كانت التلال تحرس المكان. نصب من الأحجار متوج بقمم، دون المزيد من الأرض الخلاء ليملاها؛ والقمم متوجة بسهاد هادئ، وينفض عنه الليل شيئاً فشيئاً. كان حضور الفجر يرفع من وطأة الوحدة. شفافية الجليد كانت تبلور الطبيعة. بعض الحشائش كانت تثقب الرتابة الرمادية ببقع متباعدة. كانت مجموعة الفرسان ترتعش من البرد تحت الملابس المهلهلة، على إحدى القمم المطلة على السهل، أو المشقوقة، أو تفتح تجويفاً في ذات الجبل.

كلهم تقريباً فوق بغال، بعضهم يمتطون جيداً بائسة، السيقان محتمية بواقيات من الجلد كثيف الشعر، والزماء مُرتخٍ؛ كانوا

ينتظرون شيئاً ما دون أن يتبادلوا النظرات أو الكلمات.

كانت الحيوانات على حالة مثيرة للشفقة، منهكة، حوافرها محطمة بفعل الأحجار، ومثخنة بالجراح بعد المعارك في الجبل. كانت أعرافها مشعثة، معلقة فوق أعناقها المرهقة؛ ويتخثر الصداً في عوارض اللجام بفعل اللعاب. كانت عدة الحصان مكونة من واقيات السيقان، وقاعدة السرج، ذات الرؤوس الأربعة التي تضرب سيقان الحيوان الأمامية والخلفية في الوقت نفسه، ومقعد السرج والزمام من الجلد الخام.

كان الرجال يرتدون بنطلونات من الصوف الخشن حتى الركبة، وبونشو من شعر الماعز، وأقمصة ممزقة، وقبعات صوفية، ومهاميز حديدية مثبتة على الكعب العاري.

بعضهم طوال القامة، نحيفون لدرجة الجفاف، شعورهم ولحاهم طويلة لدرجة مخيفة؛ وآخرون قصيرو القامة، تبدو بطونهم كالجرار المنتفخة. وجلودهم جمعياً نحاسية أو داكنة. تبرز تضاريس ناهضة على الصدور وعضلات الذراعين تحت ملابسهم الممزقة. أجساد سمراء، مدبوغة بالمجهود تحت الشمس، وبارزة كأنما تماثيل منحوتة. عيونهم السوداء كالفحم تفضح رغماً عنهم هواجس صامتة. والشعر المجدول الملتف بخشونة غابية فوق ظهورهم، دون ذرة من الوقت يمكن تخصيصها لهذا الشعر.

كانت مطياتهم تطلق أبخرة من دفاء رئاتها في النضوع الجليدي. يبدو مدهشاً أن تتحمل هذه الحيوانات البائسة مثل هذه الأحمال على سيقانها؛ لكنها كانت قادرة على هذا، بل كان بعضها يكاد يسقط من الإعياء لكنها تسيّر. كان الإنسان والحيوان متحدّين وهما على الحال ذاتها، تجمعهما فكرة واحدة. لم يكن الفارس يرغب سوى في شيء واحد: الركض. لم يكن الحصان يعرف سوى شيئاً واحداً: الركض. وهكذا كان الحصان يجسد تفكير فارسه.

كان هؤلاء الرجال حائرين بسبب التناقض بين حالتهم الذليلة والفردانية التي تدفعهم إليها الوحدة، وما تعنيه هذه الوحدة من اضطلاعهم بكل شيء، وانحصار عملهم في المهام الخاصة بالحياد. كان صمت الحقول ينتقل لهم، وهكذا لم تكن حواراتهم تتجاوز الجملتين: سؤال وإجابة. كانت حواراتهم تنحصر في حكايات، يؤيدها السامعون بهزات من رؤوسهم. وفي المواقف الهامة، كانوا يتناقشون بصوت عالٍ. إن كان هناك خلاف في وجهات النظر فيما بينهم، كان صراع الحلف والقسم يسبق صراع المُدى. ولا يضحكون إلا عندما يكونون مسكورين.

كان القائد ينظمهم في فئتين من المحاربين لدى مهاجمة الإسبان. بعضهم يشكلون الفرق التي تهاجم باستمرار: متطوعون، هاربون من العدالة، فارون من الجيوش النظامية. آخرون يحرسون قراهم في مجموعات محلية، ويجتمعون عندما

يتوغل العدو في مناطقهم. حينئذ كانوا يطلقون النداء؛ كانت خيولهم تختبئ في الأحراش؛ ويكمنون فوق قمم الأشجار. كانوا يتجهون إلى النقاط المحددة لهم على متون أسراب من الخيل أو فوق عربات تجرها الجياد، وينخرطون في المعارك. من يمتلكون حصانًا، كانوا يرتحلون على متنه. وأكثرهم فقرًا كانوا ينهبون الفراسخ على أقدامهم. كان كل منهم يعود إلى أرضه بعد الانتهاء من المعركة، يرعون ويزرعون من جديد كفلاحين شرفاء.

وهكذا، كان دخان الأكواخ يتصاعد، والنيران تطرز سلاسل الجبال بخيوط ذهبية في الليل؛ المشاة يمشون أعشاب الكوكا ويقودون الحمير المثقلة بالأحمال، والمزارعون يحرثون الأرض. والإسبان يواجهون عدا كل من السكان والصحراء، وسط الصمت الموحى بكمين وشيك.

كانت الفرق المحاربة تحصل على أجرها من الغنائم، كانوا يعتبرون قطاعان الماشية وأسراب الخيل كجوائز من الوطن وحافز على الحرب. كانوا يأكلون قليلًا، لكنهم كانوا يأكلون طعام الآخرين، وهذا كان يرضيهم. كانوا يجدون الطعام أشهى لحصولهم عليه بطلقات الرصاص وطعنات المُدى. كانوا يكرهون الملك في شخص رؤساء بلدياته، باعتباره سيدًا مغرورًا ومرهقًا بضائبه الباهظة، التي تثقل عليهم أكثر من غريزة الحرية التي صهرها الضنك.

توالي المجاعات، وكره الجلد الأبيض الذي يتسخ بمفرده، وحين السكان الأصليين لأرضهم، وقسوة العري؛ كل هذا كان يثير دمهم. أكلوا لحوم شرسون، يفرتون في وضع الفلفل الحار في طعامهم. وأضاف لهيب التوابل حرارته إلى ذلك الحماس الذي تهطل سيوله في أوردتهم. يترجلون بالبلطة في أيديهم، ويتركون برك عرق على الأرض. يقذفون بأنشوطاتهم فيلقون بمهرة سريعة على الأرض. راسخون مثل جلاميد صخر في انقباض عضلاتهم المتوازن. كان لهوهم هو الإمساك بعراقيب البغال أو الماعز. كانوا يخصون ثيرانهم الوحشية بالإمساك بقرونها وإلقائها على الأرض في منتصف الحقل. كانوا يرهقون المهر الذي يروضونه، وينخزون إبطه بالمهماز في أسوأ لحظة، وإذا شعروا بالتعب يسقطونه بضربة سوط. بعد أن يملوا من التيه في تلك القمم محبة في المشي، كانوا يمارسون الحب بكل جوارحهم. وعندما لا يفعلون هذا، يشربون. لم يكونوا يسعون للتحقق كمثل للإنسان، وإنما كذكور.

كانت تلك المجموعة تمتلك سلاحًا. استبدلوا البنادق القصيرة ذات الكعوب الخشبية، بالبنادق التي قطعوها عن طريق غمرها في الماء بعد تسخينها حتى منتصف الماسورة. وهي مجهزة أيضًا بحراب ذات نصال مطرقة أو ببساطة مقساة في النار. كان بعضهم يحملون أنشوطات الحبال ذات الكريات المعقودة بها لصيد الحيوانات. وكلهم يحملون خناجر كبيرة وأنشوطات.

صناعة بدائية، لكنها فعالة.

ظهر سيف وخوذتان من بين الأسلحة والقبعات. الرجل الذي يشهر السيف كان يرتدي حذاءً طويل الرقبة، وكان هذا أمرًا فريدًا آخر. تبدو عليه هيئة حربية، شيء لا يمكن تحديده، لكنه واضح. التقوس المميز لشاربه، طريقته في إمالة صدره. بالإضافة إلى هذا، هناك شواهد أخرى. في ذراعه اليمنى، لصق ملبسه المهلهلة، كان يحمل حربة قصيرة كالتى يحملها القادة ودرعًا أبيض وأزرق مكتوبًا عليه توبيزا<sup>(3)</sup>. كانت هناك مزق مثبته بستة أزرار تحت الخوذة الأخرى، كانت ما تبقى من سترة جندي مراسلة. تلك المجموعة، أو بالأحرى تلك الشرذمة، كانت تحتمي بالصخرة الناتئة، التي كانت عوامل الطقس تنحتها. كان ضباب الفجر يتفتت في المرتفعات، وتكشف مرقه عن قمم جديدة. وظهر تل مغطى بالجليد في الأفق المفتوح.

- الهواء قارس!

بدا الصوت الذي قال هذا غريبًا وسط ذلك البحر من الصمت. انتقل قرن مزركش بالألوان مملئ بالشراب من يد لأخرى. ظهرت علب التبغ، وبعد دقائق كان الفرسان يدخلون، بإحدى ساقهم منحنية فوق السرج. يبدو أن هذا أبهجهم، حيث خففت العديد من الابتسامات من توتر بعض اللّحي. تحدثوا. حكى الرجل

---

3 - إقليم في بوليفيا الحالية، كان جزءًا من الأرجنتين حتى حرب الاستقلال.

ذو السترة أن الميليشيات الريفية تغلي في أعماق بيرو العليا. على الرغم من هذا، كان كل شيء يسير بشكل سيئ. هزيمة تلو الهزيمة، لكن الإسبان بدؤوا يدركون الواقع، ولهذا بذلوا المزيد من الجهد. هذا حقيقي. منذ عام 14 في مدينة بيثويلا، يجهز الإسبان العنيدون للغزو تلو الغزو، وعلى الرغم من دحرهم دائماً، إلا أنهم لم يتوقفوا مطلقاً. كانت الميليشيات الريفية ترد أيضاً، ويزداد الصراع حدة. تم الإعلان عن هذا الغزو بقوات مختارة، ونائب ملك جديد، وأفضل القادة؛ ولكن، بعد تقسيمهم إلى مفارز، بحثاً عن الإمدادات التي استولت عليها الميليشيات الريفية منذ البداية، لم تعد قادرة على إيقاع الضرر.

ولم تكن هذه الميليشيات بحال أفضل. بل إن فرقة "تنانين الجحيم"<sup>(4)</sup> أصبحت على حال يرثى لها. وصل اثنان من رجالها، هذان اللذان يحملان الخوذة، في اليوم السابق على ظهر حمار معلنين عن الكارثة. لكن الحرب ما زالت مستمرة، وكان الصراع في أوجه، بنخز المهاميز في أرداف الخيل، ورفع القوائم الأمامية في مواجهة العدو. فجأة أصبح هناك نقص في الموارد. البنادق القصيرة تحولت إلى عصي، والحرب إلى حطب.

بعد أن سمع الرقيب كلمة معارضة، استدار في تلك اللحظة. سأل شيئاً ما بلهجة تثير الألم؛ عن المسافة، الوجهة. لم يردوا.

---

4 - فرقة من الجاوتشوس بقيادة جوميس في إقليم سالتا.

عليه، ونظر إلى الرجال لبرهة باستسلام، ولاذ مرة أخرى بصمته.

عبرت أربعة أو ستة أو عشرة نسور أنديزية في صف، بأزيز شبيه باهتزاز باريمباو عملاق، وكادت أن تلمسهم. رسمت النسور دائرة هائلة في تحليقها، وعادت مرة أخرى بعد أن تبادلت المواقع فجأة بشكل متقاطع. كان أحد الجاوتشوس يشعر بحر شديد، وشمر قميصه ليهوي على ضلوعه المتقدمة. شيء ما أثار اهتمامهم في الأفق الذي ما زال ممتلئاً بالغيوم. لا يمكن رؤية أي شيء فيه، ولكن الشمس كانت تبزغ مثل قرص قرمزي وسط ضباب نيلي. كانت التلال الغربية مصبوغة باللونين الذهبي والوردي. كانت رائحة الشفق تطفو في الهواء. كان الضوء ينعكس على ثور فوق القمة العارية للتل المقابل، ويحيل لونه إلى الأزرق وسط ضباب الصباح. بدت الأغصان المغطاة بالصقيع وكأنها تتحول إلى زجاج خلال برهة. كانت سلسلة الجبال متوجة في الخلفية بقمم بيضاوية مثل جلد بقر ملطخ بالثلوج. كانت سلاسل الجبال المجاورة متصلة بعضها ببعض عن طريق التراكمات الصخرية الضخمة التي يغطيها الجليد الهش كحلية. كانت الأرض في الجوار متموجة كثنيات الأورديون، مما يخفف من قوة اللون الأزرق؛ وتحول اللون إلى البنفسجي المتعكر قليلاً بعرق الكزنك. كانت أمواج الصخور متراكمة في كتل ضخمة في أبدية قاحلة. كان طائر يغني بعيداً، في مكان ظليل. قال الرجال إنه يصلي. رسم بعضهم علامة الصليب في صمت.

فجأة، انتصبت آذان الحيوانات. كان أحد الفرسان يتسلق المنحدر الذي صعده الوطنيون في الليل دون ضوء. كانت حوافر مطيته تنغرس في الحصى وتصدر عنها قعقعة. استعد حملة البنادق القصيرة. لكن -في الحال تقريباً- ظهر النصف العلوي لرجل ورأس حصان من الأرض المليئة بالأشواك والتي كانت تسد الطريق، وكان ذلك الشخص يطلق اللعنات:

- أيها الرقيب!

تحدث الجندي بلعثمة، بينما كان يشد من جسده فوق مطيته، ويده بجوار حافة القبعة. أحنى رجاله رؤوسهم بريية، وكانوا يشعرون بالخجل من مرارة الهزيمة.

القائد! كيف سيتحملون التعنيف الذي سيتلقونه منه! كيف سيتقبلون هذا دون الشعور بالخجل.

كان رئيساً وأباً للجاوتشوس الذين كانوا يبجلونه ويحبونه. لم يكن يوجه الأوامر مباشرة مطلقاً؛ بل كانت شخصيته القوية تفرض نفسها:

- إن ذهبنا، سيعتقدون أننا خائفون...

ويقول في اللحظات الهامة:

- حسنًا!... إنكم خائفون الآن.

لكن خوفهم منه أكبر، وترد عليه الفرقة بمعجزة.

كان يقود إطلاق النار من فوق فرسه، الذي عادة ما يكون نبيلًا، ويقوم بالهجوم. وكان يقول قبل التحرك:

-إن لم تحاربوا، سأسرحكم لأنكم فرسان رديئون.

فيتصرفون جميعًا كفرسان حقيقيين.

كانوا يشعرون أنه عراف. كانت خيوله تبوح له بأسرار الحرب. وفيما يتعلق بالشجاعة... فهو أكثرهم شجاعة!

ذات مرة شق الأعداء بطنه وخرجت أحشاؤه. لملمها، وغسلها بالماء الفاتر حتى لا يبرد الشحم. ووضعها داخل بطنه. قامت امرأة عجوز بخياطة الجرح، وفي غضون ذلك، كان يزار بأغنية مثيرة للشفقة.

رجل عائلة، معتدل للغاية في الفكر والفعل، تحول بسهولة إلى حالم بالمستحيل. كان يعشق القتال، لكن -على الرغم من هذا- دون أن يفقد هدوءه. كان يبذر الخطر في أخايد عميقة، لدرجة أن الحربة كانت تتحطم في معركة لهول الضربات التي توجهها. كان تكتيكه هو الهجوم دائمًا في خط مستقيم. كان يشير للعدو بتعبيرات غير محددة: هناك، هذا. كان قادرًا على السهر ثلاث ليال بجوار رجل جريح، ويمدح الحماقات البطولية أمام جنوده. عندما يموت أحدهم أثناء الهجوم، كان يتقد غضبًا، ويلقى باللوم

عليه في كل شيء. فيما بعد، يعوض الأرملة ببعض الماشية، ويتكفل بالأيتام. إذا أثنى شخص ما على عمله، يلقي القبض عليه بتهمة التطفل.

كان كل لصوص الماشية في المنطقة يتبعونه؛ لأنه أنقذ كلاً منهم ذات مرة. قام بتجنيد هذه الشردمة من لصوص الماشية على نفقته الخاصة، دون اهتمام كبير بشرهم. وإن تعهد الشيطان نفسه الطاعة وبذل الجهد، يتم قبوله. وإذا اتضح أنه خارج عن القانون متمرس، فهذا أفضل! إذا ارتكب جريمة قتل في مبارزة شرعية، يحصل على عفو. وعندما يطلب الالتحاق بالجيش، يتم اختباره في شجار، ووفقاً لشجاعة الآخر، يتم قبوله.

وعندما اختفى دبوس فضي من لجام ذات يوم، سار أمام الفرقة خلال وقت طويل دون أن ينبس بكلمة، محاصراً إياها باحتقار مثير للتوتر. وفجأة، ضرب أحدهم على قفاه، ثم أمر بتقييده وجلده، وأطلق عليه حكم الإذانة: "لأنك همجي". بعد إيقاع العقاب، أهدها دبوساً فضياً آخر، واعترف المذنب بجريمته. وبعد ثلاثة أيام فر من الجيش. حينئذ أدان القائد نفسه وقال "لأنك همجي" مرة أخرى.

كانوا يخشون تعنيفه أكثر من خوفهم من طلقة مدفع في بطونهم. مسكين هو الإسباني الذي يتم أسره في يوم رياح شمالية! خمسمئة أو ألف جلدة في البداية لترويضه، وعندما يسكر القائد، يفضل السجين الذبح. في مثل هذه الحالات يتم

حبسه. تهرب زوجته عبر البلاد، وليس لديها وقت سوى للفت نفسها في ملاءة، وتوكل نفسها إلى الحارس. هذا الأخير يطلب الأمان من القائد، ويعرض عليه كل شيء بينما يتوسل ويتضرع؛ وفي اليوم التالي، على الرغم من أنه يواصل العناد في البداية لكيلا يغير رأيه، فقد كان يوافق على كل ما يطلب منه.

على الأخص، كانوا يمدحون شجاعته، وكلما كان المدح أروع فهذا أفضل؛ وكان يكافئهم باحتفالات صاخبة. كانت نقطة ضعفه الوحيدة هي الحب. لكنه لم يكن يترك أبناءه غير الشرعيين لمصيرهم. كان يعطي كلاً منهم قطيعاً من الماشية ومزرعة معتبرة. كان يرعى كل عائلته. وبعد ذلك، ما هو الشيء الذي يمكن أن يستعصي عليه؟ إن كانت أكثر النساء حنكة تفتن به لمجرد مغاللتها، وأكثرهن غطرسة تغرم به مثل الحمامة الصغيرة، عندما يروضها في عز شبابها بجاذبية كلماته الساحرة. لهذا كان يراهن دائماً على "أحبك" أكيدة في لعبة الحب.

هناك على القمة، بعدما ترجل عن حصانه، أحاط بالمجموعة بعينه اللامعتين. من دون شك كان هذا يثير التوتر. لكنه لاحظ غياب رجل، فواجه الرقيب، وارتفع حاجباه على جبهته في تعبير عن التساؤل...

بالكاد تحركت شفتا الرقيب بسبب المعاناة التي تشله. الأفراس المنهكة والقوات النحيقة كانت تكشف عن التناقض. كان النور يعذبه في كشفه عن هذه المهانة.

كان الفراغ يضخم من الغمغمة. رد سهيل على استيقاظ المراعي البعيدة.  
اقترب القائد والرقيب في صمت من الممر الجبلي الضيق حيث كانت  
النسور الإنديزية تحوم في جوفه. بعد مسافة بسيطة، أشار القائد إلى جثة؛  
ثم إلى جزء من رمح مع الراية. كانت الميليشيات تتناقش بعيداً، حيث كان  
أفرادها متذمرين.

المروؤوس، الذي اقترب قليلاً، حكى ما رأوا بصوت خفيض، كأنه يخجل من  
سماع نفسه.

... عتمة... مفاجأة... ليل...

... حاصر الإسبان في مفترق طرق... سبعون تقريباً... لم يهاجمهم لأن  
قواتهم كانت في حماية المشاة... تصرف بشكل خاطئ في الليل. دفقة  
رصاص... وأخرى كرد عليها... وتفرقت كل مجموعة في جهة...

وقام هو بالهجوم بمفرده. وقتل بعضهم بسيفه الكبير... واستمر في الحكى.

... اجتهد كثيراً لكيلا يفر الجنود الإسبان. اجتهد في هذا  
طوال الليل، وانطلق في الحكى، حتى صمت لكيلا يصيب رجاله  
بالاكتئاب. وحده الآخرون ما تبقى. ليكن الرب في عونته...

وأعدموه بالرصاص.

أبدى القائد عدم اكتراثه بطريقة فظة.

عرض جميل أمام الجنود الإسبان. لقد خمن ذلك بالفعل عندما تأخروا في اليوم السابق، ولهذا أخذ في اقتفاء أثرهم منذ الشروق. ولم يكن ليندهش من وقوع هذا من رجاله الجاوتشوس، عديمي الخبرة في نهاية الأمر. لكن من هذا الرقيب المخضرم! اللعنة على الجنود التنانين المشهورين!

وبدوره، مثل شخص يهدم كتلاً في يأس طائش، ألمح للأسماء البطولية: توبيزا، لاس بيدراس، توكومان، سالتا، بوتوسي، فيلكابوجيو، أيوهوما، بينتا إي ميديا، يابي...

اتقدت حدقتا القائد بالشرر. هذه الأسماء هي التي تشكل تاريخه، سنواته الثماني في الحرب. كان كل اسم منها يؤلمه في جزء ما في جسده، فإن لم يكن قد حصل على أوسمة بسبب بعضها، فقد أصيب فيها جميعاً. ولهذا كانت محنة فشل مخزن تلقي بالظلال على مثل هذه العظمة.

لم يكن القائد مكترباً بأي شيء. ولهذا كان القرن المملتئ بالشراب الذي عرضه عليه لدى وصوله يثير ضيقه بشكل مخيف. اغتم وجهه المملتئ بالتجاعيد. كان وجهه غابة من الشعر، وبينها العينان الصفراوان، والأنف المتسع مثل أثر قدم الأسد، واللب الأرجواني للشفتين تحت القبعة والمعطف من

صوف الفيكونة، الذي يغطيه حتى حذائه. كان يعاقب نفسه بضرب حذائه بالسوط. ومع كل خطوة كانت القمة تتقلص بين مهمازيه.

توقف أخيراً، وأصدر أمراً أوقف المهمة بسرعة كضربة السيف. أشار إصبغه إلى الراية في منطقة الانهيار. اقترب أعضاء الفرقة بينما يعلقون:

- إنه جزء من رمح...

- مقطوع بضربة سيف.

اتجهت النظرات إلى سيف الجندي.

- يا له من قطع!

في هذه الأثناء، بدأ الأخير، الممسك بالسلاح، نزوله على المنحدر. خيم وقار مأساوي على الرؤوس. كانوا يتوقعون ما سيحدث. كان القائد يلقي برجله إلى الموت عبر ذلك المنحدر المليء بالأحجار، المصيب بالدوار.

كان المنحدر عمودياً تقريباً. فكر أحدهم بصوت عال أنه قد ينزلق إن لم يخلع حذاءه...

تجنب الرقيب الكلام، ورفع ساقاً. ظهرت قدمه العارية صفراء من دون الحذاء. طلب جندي المراسلة الحذاء منه، وكيف كانت

طريقته في هذا...

لم يفاجأ أحد لأن تلك القدم كانت تحمل الكثير من المعاني في ظل هذه الظروف.

بدأ الرقيب يهبط. كانت كل خطوة تضاعف خطر الموت. كانت صخور كبيرة تنفصل وتتدحرج في ارتدادات هائلة إلى أسفل الوادي. كان التوتر يشحذ أبصارهم، فتلتقط بدقة غير عادية تفاصيل التضاريس تحت قدمي السائر.

أحجار ذات نقاط متعددة الألوان أو مغطاة باللون الرمادي الصديء؛ صخور حادة الحواف، قطع من الكوارتز. كانت هناك أعشاب ياريتا منتفخة في كتل من الطحالب الصفراء، وتجعل الأرض تحت قدميه منزلقة غادرة. كانت نباتات الصبار منتصبة بسموق حربي، وتحيط بالمنحدر كأنه تشكيل هجومي.

كان الراحل قليل الحيلة، يتفادى المخاطر بخودته على رأسه وسيفه في يده. نجا من سقطات مميتة بفضل أعشاب كثيفة أو جذع شجرة. أضحى الهواء فوق قمم الإنديز خطراً، ومسبباً للصداع والدوار والغثيان. كانت التوقعات الكبيرة تثير توتر الرجل العسكري. كان السيف ينثني بعنف من حين لآخر عندما يستند إليه فجأة، فيلمع سطحه كأنما مشتعل. حينئذ كانت اليدان والساقان تنقبض في توتر.

كان غبار الطبقات الهشة المتكلسة ينتثر فوق الصخور الناتئة.

كانت هناك هاويات مختفية تحت قدميه، تحت طبقات عديدة من الصخور الناتئة أو تحت حشائش على أرض مستوية من طبقات أيضًا. كان الرقيب يختفي خلال لحظات تحت شجيرة فلفل بيروفي أو تحت شجيرة سنط مرصعة بنقاط برتقالية.

في الأعلى، كان الجنود متلاصقين على حافة الهاوية، بالكاد يتنفسون، ويهمهمون. ابتلع القائد القطرات الأخيرة في القرن برشفتين.

كم من الوقت سيستمر هذا؟ ربما قرناً وربما دقيقة.

استمر الرقيب في الهبوط.

من حين لآخر كان يتوقف متردداً، ويمسح جبهته بمنديل. كانت أنفاس أعضاء الفرقة محتدمة. زلت قدمه مرة، فاهتزت التلة والقلوب تحت ارتعاش عضلات سيقانهم. استعاد توازنه عندما التوت قدمه.

واصل الهبوط دون توقف. لكنه كان يسير للخلف الآن؛ لأن كاحليه كانا يؤلمانه. يمكن تخيل طقطقات وتشنجات رهيبة في ذلك العمود الفقري. استعاد عافيته بعد لحظة، ولوح بسيفه وواصل الاتجاه إلى قاع الهاوية بخطواته الأخيرة، عندما زلت قدمه. تراجع لبرهة، وفي النهاية تعثر فقفز إلى الهاوية.

ارتطم جسده بالأشجار والصخور، متسببًا في انهيارات هائلة، وتطاوح جسده من جانب لآخر بضربات مروعة. فجأة، تعلق في فرع. تطاوت يده وساقاه مثل حشرة مقلوبة على ظهرها، لكن الأحجار التي تساقطت معه وقعت فوقه، وقضت على محاولة المقاومة...

انتشرت غمغمة خافتة بين المجموعة.

- سكوت!

انحنى الرأس.

استند الرقيب المطحون إلى مرفقيه ليتخلص متألماً من سيل الأحجار الذي كان يعذبه. تمهل لبرهة كأنه يتأكد من حاله. وبعد ذلك قطع المسافة التي تفصله عن الراية. عزيمة هائلة تفوق البشر منحتة القوة لكي يحاول القيام بمثل هذا الجهد. على الرغم من أنهم لم يكونوا يرون بوضوح من الأعلى، كانت عيونهم ثابتة على ساقيه المحطمتين، وجسده المضغوط مثل زق، والتمزقات الرهيبة التي كانت تؤلمه. وكان ضلع مكسور بارز من تحت السترة ظاهراً للعيان. لم يغضبوا أو يشفقوا، كان الموقف يصيبهم بالذهول. وكانت سيطرة القائد المخيف على إراداتهم هائلة.

في النهاية، بعد تحركات غير منتظمة، بينما يجر جر ساقيه،

ومستنداً إلى مرفقيه اللذين كانا دامين حتى العظام من دون شك، لم يعد  
يفصل الرجل عن هدفه سوى خطوة واحدة. عبر صفير الرياح بين المجموعة.  
وصدر صرير شكائم الخيل واضحاً. كانت الراية تخفق في الأسفل، فوق الأرض  
الخضراء، مثل جناح فراشة.

عندما أمسكها الرجل الجريح بيديه، رفع صدره أمام الفرقة التي كانت  
تراقبه. وعلى الرغم من الارتفاع، كانوا يرونه بالغ الشحوب، متغطياً بالمزق.  
لكن بينما كان يهز غنيمته، ارتسم تعبير بالنصر على وجهه. رأوا صرخة  
تصدر من فمه لكنها لم تصل إليهم، شعروا بها في قلوبهم، وردوا عليها  
بصدى باك منغم.

### عاش الوطن!

والقائد، بصدرة مثل موقد كحولي، أصابته عدوى الروح التي اندلعت في  
تلك الصرخة؛ ذات الحماس المهلك، والعدالة الهائلة، التي التهمت قسوته  
في نوبة من الندم والكبرياء، جذب أحد الرجال عشوائياً، وضمه بين ذراعيه.  
وفوق تلك الرؤوس الملحمية، أمام أهل الجبال، تحت الشمس، بكى بسبب  
الشعور بالمجد.

## إنذار

كان هناك تهديد بهطول الأمطار من الشمال. سحابة جعلت السماء تبدو أصغر، وأثناء تبددها محت ملامح المكان والأشجار والقمم. كانت الشمس المغطاة بالفعل تميل ناحية الغرب. كانت رائحة الرطوبة تطفئ الهواء. كانت الروائح النفاذة للحر تفاقم الشعور بالاختناق المصاحب لسقوط الأوراق. وتوجد خيوط العنكبوت الكثيفة فوق الرؤوس مباشرة، وفوقها تنساب السحابة الكبيرة كأنهيار رملي. الجانب الآخر من السماء يغوص في صفاء مائي. من هناك هب نسيم بطيء على فترات بين غمغمات أوراق الشجر. كانت العاصفة تزمجر، وتتردد زمجرتها في صدى وحشي متلاحق. طليعة من السحب المظلمة كانت تحتل المرتفعات بسرعة. كان الجو يزداد عتمة في نعاس دافئ، ملتصقًا بدفء العرق؛ ومن بعيد، في سفح الجبال، كانت السحب الرقيقة تتساقط، كأنها طيور مفزوعة.

كان اللون الرمادي للمساء شاحبًا. هرولت بعض الثيران الحائرة إلى بركة جافة، نبشت التراب، وخارت مستشعرة المطر الغزير.

وكانت طيور الفنزعية تغني على الأشجار كأنها تضحك بمرح.

كانت العاصفة تكبر مكتسبة مهابة كثيفة. لم يعد هناك في الجنوب المغمور في العتمة سوى قطاع من السماء. كانت العاصفة تتقدم كأنما طبقات متراكمة متداخلة، وتندر بهطول البرد؛ كانت السماء تهبط ككتلة واحدة فوق القمم مثل خليج من القطن، وأذابت تلك الأبخرة الأفق في ظلام دامس. وخرجت سحابة بيضاء مماثلة للدخان الناتج من الانفجار من قلب هذه الظلمات المشبعة بلون كصدأ النحاس. الآن لم تكن هناك سماء: فقط كتل بلا هيئة محددة من الضوء المخيف والظلام، تتدرج متعثرة فوق الحقول. مرت لحظة من السكون. بل وصفرت بعض طيور الحجل في الوديان. كانت أسراب من الطيور تحلق على أطراف الريح التي بدأت تبعثر الغيوم.

تغير لون العتمة في الخلفية، ليكتسي بلون بني فاتح؛ وانفتحت على مقربة شديدة، ليطغى شحوب مخضر ويهيمن على الأفق. ارتسم لهب بقوة على السحابة، لينفجر على مسافة بعيدة بعد ذلك بوقت قصير بصوت كالصادر عندما تنقلب عربة ضخمة.

انفجرت قطرات متناثرة على الأرض، في ارتطامات خفيفة مثل العملات المعدنية الصغيرة. أصبح المطر المنهمر يغطي التلال المحيطة. انتشرت غيمة طويلة في السماء. ضربات الإعصار اجتاحت الغابة لتتأرجح الأشجار يمناً ويساراً، والتقت أعلى

فروع الأشجار في تحيات هائلة. وأضاء البرق شعلات جديدة. تسارعت القطرات في هبوطها. ارتفع صوت العاصفة الممطرة حتى أصبح هديرًا، ومن حين لآخر كانت كريات جليد ضخمة تسقط فوق ذلك المرجل الصاحب. كانت الريح تخترق الفروع، وتدور حول نفسها في توسع إعصاري، فتثقب الأشجار بفحيح كنغمات الأرغن. كان بطن العاصفة يتمزق ويذمي. اصطبغت بداية المعركة بمزيج من الليل ومياه فيضانية.

عندما انتهت تلك المقدمات، ظهرت امرأة عجوز ملتفة بوشاح خشن؛ كانت مالكة كوخ صغير مبني في سفح الجبل، كانت تحمل وعاءً من القرع وبه رماد. نثرت الرماد في الفناء بينما ترسم علامة الصليب لصد عاصفة البرد. ثم صرخت بشيء ما، اسم تلاشت نهايته في العاصفة الثلجية، وبعد ذلك بوقت قصير ظهر رأس طفل مصفر بين الشجيرات.

كان يبدو في الخامسة من عمره، وشعره القصير المقصوص على شكل دائري يتمايل على حاجبيه. كانت وجنتاه ممتلئتين وعظام وجنتيه بارزتين إلى حد ما، وكان هذا الملمح يجعله شبيهاً بأرنب بري صغير، وعيناه الصغيرتان سوداوين مثل نبتين. كانت ساقاه مخدوشتين ويداه متشققتين، فعندما نادى عليه جدته كان بجانب الجدول، حيث كان يشكل تلاً صغيراً من الرمال الرطبة فوق قدمه.

كانت الرياح تتسرب من خلال قميصه الذي كان طرفه

السفلي خارج البنطلون المربوط بحبل. دخل الكوخ مع المرأة عندما كانت كريات الجليد تسقط بقوة. كانت الأمطار تتسرب عبر الجدران المصنوعة من الخوص، والتي كانت تهتز بفحيح مخيف تحت هذا القصف القاسي. لحسن الحظ لم تكن العاصفة الممطرة تؤثر كثيراً بنفحاتها الهائلة على الكوخ الصغير.

كانت هناك لفات معلقة من الخيوط الغليظة في الجزء الداخلي الخالي من الأثاث. كان هناك أبيض زرع به نيلة زرقاء في أحد الأركان، وتصدر عنه رائحة مقززة كالبول؛ وكانت هناك حزم من جذور الماتيه معلقة لتجف بجوار ميزان.

كان هناك ستة رجال جالسين على مطباتهم أمام الباب، وكانوا يتحدثون حول هطول الأمطار. كانوا ستة من الإسبان الذين جاؤوا في ذلك اليوم للاستفسار عن المتمردين وأبقارهم من السيدة العجوز، والتي كان زوجها على رأس إحدى الفرق. وبطبيعة الحال، اصطدموا بجدار من الدهشة والحيرة، مع إشارة المرأة إلى الأفق كرد على سؤالهم. كانت تجهل كل شيء. كان أهل تلك المنطقة يطيعون السلطات، ومن وجهة نظر الحكومة كانوا يرضون بالقليل.

كان وجهها خالياً من التعبيرات كأنه قطعة أثاث. كانت تكذب بالتأكيد. لكن مظهرها البائس لم يكن يسمح لهم بضربة سوط واحدة. أطلقت سلسلة من الأكاذيب.

أي متمردين يمكن أن تبلغ عنهم في هذه المنطقة!... إنهم لم يكونوا على اتصال بأي شخص. كلهم أناس مسالمون، منشغلون بأمورهم، يعمل كل منهم كما يجب. هي على سبيل المثال، كانت تنسج البونشو والبطانيات، وكان هذا هو عملها. بل إنها بسطت أمامهم سجادة ثنائية الخيوط لتبرهن على مهارتها.

كانت تعيش مع حفيدها، فقد أصبحت وحيدة بعد ترملها. وليس للتفاخر، لكنهم لا يستطيعون التفوق عليها في النسيج بأنوال بأنواعها. كانت تطيل الحديث، ليس إلا. واتخذت مجلسها، حيث قرفت بجوار النول المنصوب فوق أربعة أوتاد على ارتفاع شبرين من الأرض. للمصادفة كانت تنسج حشية لسرج في ذلك الوقت. دفعت الدواسة، فارتفع صفان من الخيوط وبدأت في العمل على النول. بعد ذلك ضربة من عصا لكبس الخيوط...

حدثها الجنود بحدة، لكنها تهربت من أسئلتهم، ونظرت لهم بطرف عينها بينما كانت تزيح إحدى خصلات شعرها جانبًا.

علام يلومونها هي النساجة الفقيرة! الأبقار؟ أين لهم بها وسط هذه الحرب؟! ألم يكن بؤس ملابسها ووحدتها يقنعانهم؟

وبعدما انخرطت في النحيب فجأة للتعبير عن بؤسها بشكل أفضل، لاذت بالبكاء على كربها.

كانت هذه الحشية التي كلفها بها أحد الجيران ستنقذها في الوقت الراهن. خمسة ريات بعد وقف الحال خلال ثلاثة أشهر.

كانت تنسج بعض الملابس أيضاً على النول. لكن العمل لم يعد مجدياً، خاصة تكاليف استخراج الألوان من جذور النباتات، والتي كانت تأتي بها من قمم الجبال، نباتات للون الأحمر وأخرى للون الأصفر في المرتفعات. تسير على ساقها طوال أيام كاملة بحثاً عن جذور للون القرمزي... لكن لا يوجد مال، ولا حتى القليل منه. كانت تقايض عملها بالذرة. جوالين صغيرين مقابل كل غطاء للفرش. إن سمحوا لها، ستهديهم شيئاً من عمل يديها...

- "عاش الملك!" صرخ أحد الجنود الإسبان هادراً لغضبه من تلك الثروة.

هؤلاء المتمردون! غوغاء! يمنعون عنهم عنزاتهم، متعللين بخرافات غبية. إن باعوا، سيتدهور القطيع... مثلما يحدث عندما لا يتم اتباع جميع القواعد لدى ذبحها؛ لأنهم يجب أن يديروها تجاه الشرق، والتقاط الأنفاس الأخيرة في كيس من نبات الكوكا، وعدم الذبح إلا عند غروب الشمس...

كفى أعداءً. كما أن الغابة المليئة بالميليشيات الريفية، مهددة بالجوع؛ وفوق كل ذلك، تلك النساجة الوقحة تكذب عليهم دون خوف. وسمعوا ثغاء شياه في مكان قريب في بداية العاصفة.

يا لها من كلبة كاذبة! إلى الجحيم كل أنسجتها الحقيرة وألوانها!

ومض سيف على القماش، وأز صعودًا وهبوطًا، وتغطى وجه المرأة العجوز  
بخيوط حمراء مثل دفقات الدم. وفي تلك اللحظة بدأت العاصفة الممطرة.

تحولت كريات الجليد إلى مطر غزير. على الأشجار الحلوة ذات النضارة  
الكهربائية، كانت ضربات الرياح تنثر الأمطار الغزيرة، التي كانت كثيفة  
للحظات، لدرجة أن اليوم المليء بالمياه كان معتمًا للغاية. كانت ستائر من  
المطر تجلد فروع الأشجار، والبرق يومض والرعد متواصل في مونولوج هائل.

السحابة الحجرية، التي كانت تخور، أفسحت الطريق أمام الأمطار، التي  
كانت تتكلم. والأمطار، بأصوات زاعقة، كانت تستوحي قذائف المنجنيق،  
لتطلقها على المداخل البرونزية. كانت ترن ثم تصدر طقطقة كسوط يشق  
الهواء، شخشة تردد السماء صداها كأنها سقف؛ ضربات الفأس لامعة تشق  
أجزاء من الغابة. وفي الأعالي توجد عقد متفرقة عشوائية من الضوضاء  
الهائلة، وشلالات من القعقة.

أدركت المرأة حركة الغيوم الحبلى، وبسببها كانت الأفكار تزن في عقلها،  
مغممة كما الأوراق الجافة في الغابة. قاموا بترجمة غمغات العاصفة إلى  
كلمات قتالية.

يحيا الوطن! قالت تلك الصرخات الهائلة. واندلعت الهتافات

في الوديان المليئة بالمطر وجيوب الإعصار التي كانت تنفجر فوق الأشجار. تسببت الحرب، التي سقطت من المرتفعات، في بعثرة لحية الرب في تيار من الأنهار الفوارة؛ كانت تفرك القعقة المدوية مع دوران المدفعية الضخمة، وتخلط ذكريات الأساطير الإقليمية بحمى العواصف الكاسحة، وتوكل مصير العصابات التي أحاطت سيوفها بالبلاد للآم القديمة للتلال، "باتشا ماما".

ورفعت المرأة تلك التفسيرات إلى درجة اليقين. وفي روحها مرت السنوات واحدة تلو الأخرى مثل الأشجار من منظور عابر -مئة عام... مئتان... ثلاثمئة- لتحيي مرارة الهيمنة، وتحمل العبودية والانتقام الوشيك.

كان الأسلاف ذوو الجلد النحاسي يحتجون في هيئة نسلهم النحيف. لم يكن فهمهم تمامًا ممكنًا لأنهم -بدلاً من الصراخ- كانوا يرددون، لكنهم كانوا يشعرون برغبة وحشية، نعم، صرير الغضب، مهمة الانتقام من جلادي الملك الذين يكسرون الأنوال بأيديهم الغاشمة...

ضمت المرأة العجوز جفونها. التصقت بقايا البكاء بحلقها، وفي تلك اللحظة تذكرت الطفل، فأغرقها حزن غير منطقي في البكاء.

الفتى، الذي كان خائفاً من الرجال، جلس خلف الباب بحنق شديد، على الرغم من أنه كان شديد الإعجاب بالأسلحة. قطب

حاجبيه، وفي تقطيعته كان يقلد تعبيرات أولئك الرجال دون أن ينتبه لهذا. تبدت ضراوته كجرو مبكر النضج أمام الجنود، تصلب عوده في مراعي قمم الإنديز، وأصبح فارسًا بالفعل.

ربط إلى خصره أنشوطات الحبال ذات الكريات المعقودة من حوافر الماعز. ارتجل بندقية من قضيب توجيه النول -عصا مشقوقة في طرفها، حيث تفصل عارضة بين الطرفين، وعند الضغط على العصا تطلق مقذوفًا- ولف نبلته على مؤخرة رقبته، حاكي الركض بينما يقف فوق جمجمة ثور. أطلق الرجال اللعنات وأطاحوا بلعبة الصبي. حينئذ قام الطفل، من أجل العبور بحذر أكبر، بتقليد الطيور عندما تغازل، عندما تبني أعشاشها، عندما تسقط في شراكه، بينما بقية السرب، في صعود مفاجئ، تشق الهواء مثل راية من الريش. كان محطماً كبيراً للأعشاش، ويقلد ملامحها بشكل رائع. شيئاً فشيئاً، أخذ يقلد تعبيراتها بينما يصدر أصواتها: الببغاء بتقليده الدقيق للأصوات، حمامات الورشان بودها الزاخم، غناء اليمام الحزين. تمخطر بخطوات غنجة مثل القنبرة وخطى واسعة مثل الفلامنكو. وسرعان ما عاد لمكانه بعدما مل من التقليد الإيمائي.

توقف المطر. التهم الجدول الأحجار التي تتساقط فوقه بقرقرة صاحبة كأنما هناك انهيار معدني. كانت الرغوة تطفو فوق تيارات الماء القوية التي تلتقي في البركة.

في أثناء ذلك، لاذت العجوز بتأمل حفيدها الصغير بحنان

صامت. كم كان الكرب الذي تشعر به بسببه والآمال التي تضعها عليه! كانت دائماً شديدة العناية به. كلما استطاعت، تعطيه دم نسر الإنديز ليطيل عمره؛ وفي كل ظهيرة، عندما تنادي عليه بكل روحها عبر التلال، لكيلا يتيه أو تطارده الساحرات، كانت مخاوف خفية تنهش روحها. كانا يقطفان معاً زهور الشجيرات الشوكية، من أجل سان ماركوس، راعي موسم وسم الماشية. كانت تلك الزهور الكبيرة، بلونها اللحمي، تبهج القديس. وعندما تنضج الفواكه وتصبح شهية، كانوا يخصصون له عشوراً منها.

تململ الفتى مرة أخرى في سكونه الإجباري. أقدام الرجال، بأحذيتهم الكبيرة، كانت تمنحه تسلية. وضع بندقيته بالقرب منهم وبدأ في التصويب عليهم خلسة. جنود المملكة الإسبانية، في ضيقهم الكبير، أمعنوا الفكر كثيراً في توبيخه؛ لكنه، بدافع من هذا التساهل، كان يزيد من وتيرة ضرباته أكثر فأكثر. كانت العصا تلمس الحذاء تلو الآخر، على إيقاع قافية لعبة أخرى:

يا دجاجة بيضة،

ضعي بيضة،

اثنتين،

ثلاثاً، أربعاً

خمساً...

اتجهت السحب نحو الشمال الغربي فجأة. ارتسم قطاع من الشمس فوق المنحدر المغطى بالبرد الأبيض. كانت القطرات الأخيرة في العاصفة الممطرة مثل غبار مائي يرش زغباً ذهبياً. كانت السحب المتراكمة تنفطر في ماء كحبات الأزر في أجزاء السماء الصافية. كانت الأرض المزدهرة تطلق روائح طيبة. ومن عش نمل ينطلق الماء المتبخر بكثافة من الكومة التي تعلوه والتي تشبه ثدياً مترهلاً، بزغ جزء من قوس قزح بألق برتقالي.

كانت خيول الفرقة تحت شجرة الخروب القديمة، وتجاهلت الأمطار، وبدا أنها تحرك شفاهها أثناء نعاس خفيف. كان أصحابها داخل الكوخ، ويناقشون المسيرة التالية، بينما يعبرون عن سخطهم على تلك العاصفة التي كانت بقاياها مرتسمة من بعيد.

كان الطفل يصوب بندقيته المصنوعة من البوص على الأحذية مرة أخرى:

ضعي ستاً،

سبعاً، ثماني،

غطّي منق...

وفي انتفاضة مفاجئة، دفع أحد الجنود الطفل بيده، ليقع بين ركبتيه. كان يحمل السوط في يده ويغرقه بالسباب واللعنات. بدأ الوجه الطفولي في البكاء...

وجه ذلك الطفل -ابن أحد رجال الميليشيات الريفية- اختفى بالكامل تقريباً في معطف الرجل الذي كان يضربه، كأنه ينتقم في شخصه من المحن الدموية التي مروا بها في الغابة. لعبتك مثيرة للضيقة. أيها الوغد! ألم يكن ذلك الصغير الحقيير يلهو بضرب أقدامكم بلعبته؟ يا نسل الهنود، سترى الآن! جلده خمس جلدات مما ترك قدميه بلون بنفسجي، بينما تركلان الهواء يأساً. وفي الأسفل، بصوت خفيض، غير مفهوم بسبب الطفولة وخشونة اللغة، كان يصيح مثل شاه مذبوحه:

لا، يا سيدي... لا... سأصبح طفلاً جيداً!

قضى الرعب التالي على أي محاولة للمقاومة. كان الطفل يبكي في الخارج متكوراً لصق الحائط. قرفصت العجوز بجواره، ووضعت ذقنه على ركبتيها وأحاطته بذراعيها. كانت وجنتاه ساقطتين إلى أسفل مثل كتلة من النحاس الذي تحيط بخصلات شعره الغزير. وبين النحيب، المختلط بتضرع، أمكن سماع الكلمات التالية فيه: "أيها الإله الأب، أيها الإله الابن":

أيتها الإلهة الجدة، أيتها الإلهة الحفيدة...

هكذا كانت تتشيع بالسم من الخارج، لكن في الداخل كان أكثر. عصفت موجات الكراهية بقلبها. كانت شيخوختها البائسة تنبض بهذه الفكرة: إبلاغ الرجال المتجمعين في الحانة القريبة، الهمس في أسماعهم بما أتت به العاصفة الشديدة.

كانت الخيول نائمة هناك... صدر صوت ارتطام بالماء... انطلاقة... ضربة سوط.

وانطلق الفتى بسرعة شديدة بحصان تحت الأشجار.

فوجئ الجنود الإسبان، وأمسكوا ببنادقهم، وأطلقوا النار عشوائياً على الظل الهارب. لكن هطل المطر مرة أخرى في تلك اللحظة.

جاءت بعض السحب المتأخرة لتعكر الظهيرة، ورعدت في قمم الجبال، لتطلق دفقات من الماء، وتسحب خيوط المطر الفضفاضة عبر الأدغال، لتحملها بعيداً. وعندما مرت، كانت الغابة تفصل الجنود عن الهارب.

وفي الحانة، كان رجال الميليشيا الريفية المحلية يشربون

جراراً من العرقي منذ الفجر. أطلق صاحب الحانة بوق المرح في ذلك اليوم منتهزاً الهدوء. استجاب المتمردون للدعوة التي وجهها ذلك الصوت الصادر عن البوق المقوس. كان المحل -الذي دمرته الحرب- يعمل بهذه الطريقة على تصفية القروض غير المسددة.

هكذا انغمس الشاربون في إفراطهم بنهم وحشي، وأهدوا للأمة القديمة للتلال، باتشا ماما، نصيبها من الشراب والكوكا. وفي منتصف النهار أخذ المرح منحى عنيفاً.

إن كنتم تضيفون النبيذ إلى اللحم المطبوخ مع البطاطس،

فماذا عن لحم الخنزير المقدد...؟

وكانوا يغنون هذه الكلمات، وبها يصفون شعورهم بالجوع أثناء سكرهم. كانت عيونهم دامية. كان النوم يطبق على أجفانهم مثل أكياس الرمل، لكن لم يستسلم أي منهم؛ كان هذا سيوصمه بالعار. كانوا يخملون بأطراد مع استمرارهم في الشراب، ويفقدون قدرتهم على التمييز. كانت آباطهم عارقة. وفي رؤوسهم تطفو أفكار كأنها كتل دم متخثرة. كانوا أكثر وحشية مع الكحول والقتال. شيء ما يجعلهم أكثر شراسة؛ لكن نفوسهم كانت بالغة البساطة مثل الثيران، وفي تلك الساعة من المرح كانوا يهرقون

ابتسامات طيبة القلب.

من حين لآخر يوجه أحدهم الدعوة:

- أدعوك على هذا المشروب!

- سأدفع أنا! - هكذا يرد الآخر، ويشرب كل منهما زَقًا.

هكذا كانوا يمضون اليوم بأكمله بين دعوات وتبادل أنخاب. كان الصمت يستولي عليهم حثيثاً تحت القبعات. الأغاني العاطفية الحزينة غير المترابطة التي غنوها في الساعات الأولى، والمنابذات الصاخبة التي سرعان ما تهمد تذرّعاً بالأسرة والصدّاقة، انتهت جمعياً إلى حزن صامت عميق. لم يكن لصخب العاصفة تأثير عليهم.

كانت هناك لحظة رعب في ذلك الصمت المخمور. انخرط صاحب الحانة في نحيب لاعناً حظه، فقد كانت ذكريات زوجته التي ماتت قبل فترة وجيزة تطارده. كانت الحيوانات مذعورة. وعندما أطلق الإسبان النار على الصبي في تلك اللحظة، لم ينتبه أي منهم.

بعد لحظة، هز ركض الحصان هذا الخمول المهيمن عليهم. توقف الركض قريباً منهم، حيث أخذ الحصان في إثارة الوحل. أطل رجال الميليشيات الريفية من الباب. كانت معدات ركوب الحصان إنذاراً في حد ذاتها. لكن دون تقييم تهور الفعل بسبب

حالة السكر، خرج اثنان لتقفي أثره، وعادا بعد قليل بحمولة ملفوفة. كانا مفزوعين ومسرعين؛ وضعا حملهما على الأرض.

كان الطفل ممدداً فوق معطف، حيث كان يحتضر؛ لأن رصاصة أصابته أثناء فراره، واخترقت أحشاءه. عثروا عليه بالقرب من الدكان الذي كان الماء يتساقط من سقفه، مختلطاً بصدى تأوهات، وهو ما أنبأهم بوجود خطر قريب. ومن دون المخاطرة أكثر من هذا، خوفاً من مفاجأة محتملة، أحضروا معهم الراعي الصغير، الذي كانت العجوز توكلهم به لإيقاع انتقام لا ينسى.

سيطر صمت مليء بالبكاء على حناجرهم المعقودة. ركعوا حول المبعوث الصغير، كانوا ما زالوا مخمورين تحت تأثير الكحول والمفاجأة.

كان ذلك الطفل بعينه المغلقتين، الذي يروي الأرض بدمه الفائر، يبشرهم عبر موته بانتصارات مستقبلية. كان الاحتضار يطفئ وجهه حيث رسمت الدموع التي اقتلعها السوط الإسباني خطين طويلين، وبينما كان يتصلب في التشنج الأخير، كانت هشاشته تتزايد -مسكين!- مثل قنديل حزين ينفق ما تبقى من شعلة كقربان سام.

كان الموت البطولي يقده بالبرونز. كان يدخل المجد بقوة براءته المضحى بها، معبباً برائحة الغابة، في الظهيرة التي مسحته بضخامة سماوية. طار شيء غير واقعي، مثل ظل لتنهّد،

من ذلك القميص الصغير البائس. لاحظ الرجال ذلك ومحت موجة من الشجاعة شعور العار من جباههم. اجتاح الغضب قلوبهم. ميتة مثل هذه كانت تعني إعصاراً لا راد له.

امتطى بعضهم الخيول. صلصل مهامزا الجد فوق كعبيه؛ لأنه كان يرتعش كأنه في وجه الريح، وتملك منه غضبه.

هيا، إلى غابة المطاردات القاتلة، حيث كانت الحرب مليئة بالأشواك وفروع الأشجار. ارفعوا الحراب! ارفعوا السيوف!

كانت الخيول ترفع قوائمها الأمامية وتضرب بها الأرض بصوت عال كأنها أجراس من البرونز، وتنتشر الرغوة على الطفل الميت.

هيا، إلى القتال على أنغام العواء، إلى الهجوم على الإسبان الذين قتلوا طفلهم الوطني! ارفعوا السيوف! ارفعوا الحراب! وبدا لهم عندما انطلقوا في الحركة، أنهم ينطحون السماء برؤوسهم.

رفعوا الجثة، كانت خفيفة لدرجة أنها بدت مثل كتكوت؛ وضعوها على سرير تحت الشفق المغطى بغيوم حمراء كثيفة مثل سقف رائع الزينة. قام أحد رجال الميليشيات الريفية بالانحناء احتراماً له، وبلل أصابعه في الجرح المتخثر، وبإيماءة حزينة رسم شعار الوطن.

## مفاجأة

من بين ضباط الميليشيات الريفية كان هناك نقيب، كان محبًا للأدب ويعرف اللاتينية. لم يكن يحمل شعار الشهادة، لكنه كان ينظم الأغاني ويعشق الإمبراطورية الفرنسية. كانت حملات مورات<sup>(5)</sup> تبدو له كالقصائد. سقطت في يده بعض الكتب التي يحضرها المهربون إلى بوينس آيرس في براميل ممتلئة بالنبيد والملح. كانت هناك في العربات التي تسافر لمدة ستة أشهر، في قوارير وأكياس سرية.

هؤلاء الفرسان الفرنسيون كانوا عاصفة في الأرض مثل الغيوم في السماء؛ تلك الصقور، تلك السيوف، كانت تخلب له. لأن النقيب، بصفته شاعرًا جيدًا، كان لديه شيء من البطولة وكان يتفاخر بهذا، ويبرهن عليه بسيفه. بالإضافة إلى هذا كان مؤيدًا كبيرًا للاستقلال، وهكذا كان سبب حب رجال الميليشيات الريفية

---

5 - يواكيم نابليون مورات (-1767 1815)، ولد باسم يواكيم مورات. مارشال فرنسا والأدميرال الأكبر أو أدميرال فرنسا، الأمير مورات الأول، كان الدوق الأكبر لبيرغ بين 1806-1808، وملك نابولي 1808-1815. حصل على بعض ألقابه كونه صهر نابليون بونابرت من خلال زواجه بشقيقة نابليون الصغرى كارولين بونابرت. عرف بكونه أنيقًا وعرف باسم الملك الأنيق.

له مزدوجًا. كما كان يتباهى أيضًا بمفاخر عفا عليها الزمن. كان يرتدي سترة مليئة بالنياشين وعلى رأسه يحمل قبعة قديمة كالتي كان يرتديها كارلوس الرابع، والتي خاطها بالألوان الوطنية.

كان في الخامسة والثلاثين من عمره، لكنه ما زال محتفظًا برشاقته. وكان وجهه يبدو كالمراهق لأنه كان يحلق شاربه. كانت قبضته الأثوية تقريبًا تلوح بأناقة ونبل بحربة يبدو مقبضها الفضي، لصغر حجمه، كطربوش إطفاء الشموع؛ لكن طعناتها توجت صاحبها بشهرة أسطورية.

ذلك الضابط، على الرغم من مواهبه، كان يقوم بمهمة أخرى ثانوية، ألا وهي قطع اتصالات الجيش الملكي، وأسر مبعوثيه، الذين كان يقاتل حراسهم يوميًا.

بعد إعلان الحرب حتى الموت، ابتكر طريقة لإعفاء الأسرى العزل من الموت. كان يقترح على الفارس البائس الأسير مبارزة من جولة واحدة مع أي من المتمردين. إذا قبل، مات بينما يقاتل. وإلا يتم شنقه لأنه جبان. كان النقيب يقول إن الموت يكون بشرف على الأقل، وإن القتال دائمًا على قدم المساواة، وإذا خسرت الميليشيات الريفية قليلًا، فإن شرفها لا يمس بالطبع، بينما من ناحية أخرى تتخلص صفوفها من العناصر السيئة.

في مثل هذه المبارزات تقع حوادث رهيبية. ذات مرة سقط إسباني في الفخ. كان القائد مع ثلاثة رجال فقط، حيث تفرق

الآخرون للاستكشاف. لكنه لم يتردد في ذلك، وقبل الخصم المبارزة التي أخبروه بها. كان فارسًا هائلًا، جبهته مغطاة بالشعر، عيناه شقان رفيعان، وشاربه مقوسًا إلى أعلى كجناحين. حيوان حرب جميل.

وقف بثبات، صلد كالحجر، منتظرًا غريمه. وتم كل شيء في لحظة واحدة. فور البدء، ألقاه صريعًا بضربة من سيفه على فكه... والضربة ذاتها للثاني. وفيما يتعلق بالثالث، فقد شقه كأنما يشق شراعًا.

حدث هذا للمرة الأولى، لكن النقيب لم يندهش. منذ البداية ملأ ذلك الرجل عينيه. لكنه لم يكن سهلًا على الإطلاق، وكان عليه القتال أيضًا، ليوفي بكلمته.

استل النقيب سيفه في لمح البصر، وما إن تلامس السيفان، طار سيفه بضربة رائعة. اتقد صدغه بشعلة أرجوانية، بالرغبة الغريزية لشق الفارس إلى نصفين. لم يطرف جفن الفارس. استمر في وقفته دون تغيير، بكعبيه نصف مدفونين، مستنشقا الهواء بعمق، وجبهته مشقوقة بشريط من العرق.

فقد الضابط سلاحه للمرة الثالثة، لكنه ظل دون أن يصيبه خدش. ربما كان يشعر بالاحترام تجاه رتبة الفارس، أو مودة غير معلنة تشع من سنه الغض. حينئذ أشار له النقيب إلى الطريق بإصبع مرتعشة بسبب غضب الفشل. ماذا يمكن أن نفعل! لقد

ربح حريته وبعد ذلك عفا عن حياته. ليرحل إذن، وينشر خبر انتصاره على حساب الوطن، لكن الرجل بقي معه.

مثل هذه الوقائع جعلت صيته ذائعًا، حيث كانت تنتشر في المعسكرات. كان يستعد لرحلة إلى إسبانيا لحل أمر إرث، لكن وقعت الثورة، وعلى الرغم من أنه من عائلة كبيرة، فقد افتقر بسبب القضية، ولم يتبق له من الإرث سوى الأوراق التي تتحدث عن الإمبراطور.

كانت حشيات السرج، كما تجاويف الأشجار، بمثابة الدوايب بالنسبة له. ولم يرفض مطلقًا استخدام أوراقه لدفع الذخيرة في البنادق. لكنه كان يجد كتبًا من حين لآخر في متاع الإسبان. كانت هذه هي غنائمه، وكان الجاوتشوس يخصصونها له بتقدير واحترام. كان النقيب كاثوليكيًا جيدًا. ذات مرة أتوا له بكتاب واكتشف أنه كتاب صلوات للاستخدام في المعسكرات، لكنه أعاده في حراسة بعض الجنود.

الشيء الوحيد الذي كان يعذبه هو عدم وجود بوق يعلن به عن هجماته. طلبه دون جدوى؛ أطلق منافسة بين رجاله الأكثر مهارة للاستيلاء على بوق بأي شكل من الأشكال، لكن دون جدوى. قام ببطولات قادرة على تخليده، في محاولة انتزاع أحدها من العدو، لكن دون جدوى. لم يكن لديه بوق، وكان يتنهد شاكيًا: "من دون موسيقى لا توجد حرب".

كان يعتني بشعره كثيراً. كان يدفعه فوق أذنيه في خصلتين كستنائيتين. كان وجهه النحيف الطويل يعكس أصله النحيل. طويل القامة، لكنه كان يبدو أطول

بسبب العادة العسكرية بالنظر إلى الأفق. أثناء حواراته، يمشي أمام محاوره، لكن دون أن يعطيه ظهره أبداً، مثل السنوريات، ناظراً إلى اليسار بأناقة. رجال الميليشيات الريفية المتيمون به، كانوا يقبلون على الموت لكي يراهم بينما يموتون.

روحه المتمردة لم تصل مطلقاً للخروج عن النظام، وكان أي هروب من مواجهة الموت يثير ضيقه كخسة. كان يرى الأمر بوضوح: الجبل هو أرض المعركة والسماء هي الراية. رمح، أغنية عاطفية حزينة، حصان، الغابة؛ كانت هذه هي ممتلكاته. ومع ذلك، فإن استقلاله لم يكن يدفعه لأي تصرف غير مسؤول. على العكس، كان يعرف كل القواعد أفضل من أي شخص، وبينما كان استخدام الرمح يتراجع، كانت فرقته من رماة الرمح تدحض هذه الفكرة، لكنه كان ينظم الأمور على هواه، والموت -مثل الكلبة المزمجرة- لم يكن يجرؤ على مواجهة جسارته.

وهكذا نصبه رجاله قائداً، دون ترك مجال له للاعتراض على هذا، على الرغم من أنهم لا يجهلون قدراته.

كان يقول مبتسماً بينما ينظر لرمحه:

- لم ينصبوني قائداً فقط، وإنما زوجوني أيضاً.

كان الرجال يقولون: "ها هي زوجة القائد". في إشارة للحربة، وهي الشيء المؤنث الوحيد الذي يحبه.

كانت نوبات غضبه الشديد تزيده جمالاً بما يشبه النور الداخلي. وأثناء التفكير العميق، تصبح جبهته شبيهة بنصل سيف. كان الغضب يبعثر شعره، كأنه نسيم مكهرب، حيث يبدو الارتعاش في فتحتي أنفه المتسعيتين والبريق في عينيه. عينان مقاتلاتان، توقدان بؤبؤيه الخضراوين بمغناطيسية سهمية. سرعان ما يحل الهدوء، السلام المشبع ببخار من الحزن، ويحمي اندفاعاته كجناح كبير. أغانيه غارقة في الحب. حب مشتل للحيوانات والخيول.

كانت إحدى الفتيات التي كانت إشيبتها تعاني من الحصبة. كانت إحدى نقاط دعم العدو قد نصبت معسكرها بالقرب من الكوخ الذي ترقد فيه الفتاة؛ لكن القائد رأى أن ضجيج القتال سيؤذي المريضة. كان موقعه يضمن له النصر، وعلى الرغم من هذا تركه، حيث أبعده العدو الذي أصابه بالرصاص في ساقه. بالإضافة لهذه الإصابة، كان جسده يحمل تسع ندوب، لكن دون تكريم واحد. كان يكره الإسبان أكثر من الجاوتشوس أنفسهم. يقال إنه عندما كان يهجم على الجيش الإسباني، كان ينام في الليل مع عشيقة عقيد من العدو الملكي.

بينما كان الغزو مستمرًا، منح تلك المجموعة راحة طويلة، لكن فرقه الاستطلاعية لم تأت بأي شيء. النقيب الذي لم يتلق أوامر، كان يقسم وقته بين العناية بحصانه ونظم قصائده العاطفية. عادت الغابة الخضراء إلى سكونها السابق. كانوا يعلقون سروجهم على شجرة غار ميتة. كانت السيوف والحراب معلقة على الفروع، وينمو عليها الصداً بسرعة بسبب الركون للراحة. تحولت الخيول إلى طعام، وتم استخدام جلودها لعمل خيام. وكانت بقيتها ترعى بالقرب من نبع في حراسة رجل واحد، حيث جمعها النقيب بعيداً عن أحواض طعامها عندما كان من الضروري استخدام كل الذرة في إطعام القوات. كان الجنود يلهون كما يشاؤون، وقائدهم كان يتكاسل أيضاً، ربما إهمالاً أو بسبب الثقة وقلة المعارك. كانت كل احتياطاتهم هي الاستمرار في اتباع قاعدة النوم بينما توجد البنادق القصيرة بجوار رؤوسهم.

كانت الأيام تبدو لهم طويلة. كانوا يمضون وقتاً طيباً على الرغم من كونهم جوعى إلى حد ما. وإن لم تكن الأيام الطويلة تثير توترهم، فإنها كانت تصيبهم بالملل.

وفي أثناء ذلك حدثت واقعة مسلية لهم في وحدتهم. بعد أيام كثيرة، عادت فرق الاستطلاع بفريسة. كان رجلاً كفيفاً، متجهًا من مدينة توكومان إلى خوخوي بحثًا عن عائلته. لم يعرف أي شخص كيف سافر عبر الأماكن المقفرة حتى ذلك المكان، دون إصابة أو الحصول على عون. كما قال، كان يأكل الخروب

والنبق. وللشرب، كان يبحث عن بقايا المطر في آثار حوافر الخيول. كان البؤس يبدو واضحاً في ملابسه المهترئة تحت الشمس والمطر. كان يبدو في الستين من عمره. كانت خصلة شعر بيضاء تظهر تحت قبعته. وفي لحيته يتناثر الشعر الأبيض فوق الجلد الشائخ. كان كل المتاع على ظهره خرج به نبق من الغابة وآلة فيولين دون أوتار. عادة ما يكون صامتاً بينما يرتشف الماتيه في الليل، ويدندن بنغمات ناعمة مثيرة للذكريات. وعندما عبث أصابعه النحيفة الطويلة ذات مرة بجيتار المعسكر، وأطلق صوته العذب الحزين، تقريباً مثل النحيب، شعر أكثر الجنود غلظة برعشة في القلب. كان العجوز يغني أغاني ريفية، حكاية أحد رجال العصابات المشهورين، بمقاطع ثمانية متقاطعة مع العزف كالطيور فوق الفروع، ويرتعض ضوء في ماء عينيه. وفي الليل، عندما يحكي الحكايات إكراماً للرفاق -حكاية الطفل الذي خرج ليجوب الأراضي على ظهر مهر ذي سبعة ألوان، أو حكاية السحرة الذين تحولوا إلى نمور- كان كل منهم يرى فيه ملمحاً من أبيه. إذا تئاب، يمتلئ وجهه المقدود بتجاعيد متحدة المركز، مثل فضلات الماعز، وكان هذا التعبير الوحيد على وجهه؛ لأنه لم يضحك قط. ولهذا فقد اشتبهوا في أنه هندي، وربما كانوا على صواب لأنه روى أشياء من زمن توباك أمارو<sup>(6)</sup>. وحكى لهم مسرحية "أولانتاي"، الدراما المكتوبة بلغة كيتشوا عن التمرد،

---

6 - خوسيه جبرائيل توباك أمارو، كان قائداً لإحدى الانتفاضات الشعبية في بيرو ضد الغزو الإسباني.

وكذلك إعدام الثوار.

كانوا قد وضعوا أوتاراً للفلولين، والذي كان قوسه ما زال يعمل، وذات ظهيرة فاجأه النقيب بينما يعزف على الأوتار أغنية جديدة. كانت المسيرة الخاصة بالوطن، التي تعلمها من الفرق الموسيقية العسكرية. لم يعزف كل المقطوعة الموسيقية، وإنما المقطع الأول فقط.

كان النقيب يعرفها أيضاً، لكنه لم يتأثر بها من قبل كما حدث في تلك الظهيرة. كان هناك شيء ديني في هذه الأغنية التي يعزفها رجل عجوز، كأن هناك أملاً علمانياً يبزغ من الأجناس التي توشك على الفناء، وتصدر من فمه كشجرة موسيقية. وكأن أعينهم تضيء من الداخل، رأى الإرادة الصلبة التي توافق بها الأشجار والقمم على إحياءات القصيدة.

ومنذئذ أصبح يوقر الشحاذ، لدرجة أنه شعر بشكوك عميقة في قلبه بينما كان يكتب مقاطع شعرية يغنيها رجاله. لم تكن الأغاني تسمع في ساعة الموت. ولكن إذا كان مثل هذا السلوك يمثل تديساً للمقدسات، فسوف يصلح الأمر؛ وسوف يرتفع صوت الوطن على تلك المرتفعات، حاملاً الأرواح والمشاعر إلى المجد.

في تلك الليلة ذاتها تم تنظيم عرض. كان الرجال هم الحضور، حيث كانوا واقفين أمام النار الموقدة. وعندما ردد العجوز

الكلمات الأولى، رفعوا قبعاتهم بشكل غريزي، كأنهم أمام حضور سام. الشعلة، ذات الشرر المتطاير، كانت تضيء لحاهم. كانت رؤوسهم محنية كأنهم هواء من عالم آخر يلمسهم، كانت أيديهم متعاقدة بينما يسمعون في صمت. ظلت تعبيرات وجههم جامدة، لكن بعد قليل، قال صوت صادر من العتمة:

- يبدو هذا كالصلاة!...

جاء الإلهام للقائد. سيعلمهم المسيرة، سيكون فرقة من المصفرين لتحل محل البوق غير الموجود. ستكون الجملة الأخيرة للكورس هي نشيد النصر وأنشودة الخطر. وهكذا سيكفر عن خطيئته تجاه الوطن المهان، باستبدال الأغاني العاطفية التافهة بالنشيد. والصوت الخشن، ربما يكون خطراً مثل سلاح.

- وأي تعاون من رجاله! المقدمة برفع القوائم الأمامية، تنغيمه بالسيوف، الركض على الأرض بدلاً من الطبول وقوائم الخيول بدلاً من العصي. هجوم بالسلاح وهجوم بالموسيقى، وسط ضجيج السيوف الكبيرة اللامعة مثل خطوط المطر الغزير:

-... نقسم على الموت المجيد!

كانت نقطة التحول هي القسم بموت مجيد. لا شيء أكثر من

هذا في الهجمات على الإيقاع اللاهث لهذا البيت الشعري؛ هذا البيت الشعري الذي يزأرون به، ويهمسون به، ويضحكون به في ألفة الموت. بينما تم تخصيص القصيدة للأحداث الجسيمة.

وقد رأى القائد نفسه بينما يمتطي حصانه أمام رجاله في الصباح البارد، والرماح مرفوعة ومائلة قليلاً نحو السماء، والشمس تلمع على جلود الخيول، وهو في مواجهة العدو، بخبب، بركض، ويقود الهجوم على حملة البنادق ذات السونكي المرفوعة. وفي أثناء ذلك كان النشيد الحربي يحفز القلوب، يهز فرق الأعداء، ويلوح بالموت فوق أعناقهم. وكان الرجال يزأرون بهذه الكلمات ببهجة، بينما يميلون إلى أمام فوق الخيول، ويختفون أثناء الهجوم ثم يعودون للظهور ويصيحون -آه، يا أبناء ال...-، بينما يوجد إسباني معلقاً في كل رمح.

كانت هذه الطريقة حاسمة في تكتيكة الفريد؛ لأنها كانت تؤدي لنهايتين فقط: عندما يكون عدد أفراد الفرقة كبيراً، يكون كافياً للانتصار. وبخلاف هذا، يكون الموت هو مصيرهم.

وهكذا بدأت الدروس. كان العجوز يغني، والقائد يقود، وهكذا وضعه الرجال في مرتبة مقدسة بعدما كانوا مدلهين به. كان "القس" الخاص بهم؛ لأنه كان يعلمهم صلوات الوطن. قام بعضهم بالاعتراف معه.

كانت ساعة الظهيرة تصبح ساخنة مثل قرص أحمر طاف في الجو، والسحب الرقيقة تذوب في السماء مثل حبيبات السكر. كانت ظلال السحب تعبر فوق التلال الممتلئة بالأبقار وتملاً الأفق. كان الأفق يفقد لونه، ليصبح كزجاج شفاف تحت الشمس القاسية. كان الغبار يبدو كحبيبات الرصاص الأبيض.

كانت أشعة ضوء الظهيرة ترتعش ارتعاشات طويلة. كانت سحب دقيقة ترقص في الطرق. كان الصمت ثقیلاً ككتلة صخر. كان الماء يجري صامتاً، كما الوقت، في النبع الذي يشرب منه الرجال والحيوانات.

كانت الأشجار منتصبه حول الأرض الخلاء التي تخيم بها الميليشيا، وكانت الشمس تتغلغل بين أوراق الأشجار لتترك بقعاً على الأرض. كانت الطيور المختبئة بين الأوراق تقرر بالكاد، وتتقاذف في طيران سريع بين الفروع. ويظهر سنجاب مطمئن من حين لآخر، ينظر لكل شيء، فيشعر بالفرح ويختفي في غمضة عين. كانت الدبابير الحمراء تتقد مثل الشرر لدى العبور وسط أشعة الشمس.

وفوق هذا، كان لسقف الغابة هندسته المعمارية الخاصة، حيث تشبك أقواس ودوائر. كان الأزرق نقياً في أشجار جكراندة، وكانت فروع أشجار أخرى بلون أصفر، وأشجار السنط تسقط أوراقاً ذهبية، أما أشجار العليق فكانت مزهرة ربيعية. كانت بعض الأشجار قد اكتست بأوراق الصيف، ومحاطة بخضرة

كثيفة، وأشجار أخرى ترشح الراتنجات. وفي وسط تلك الأشجار، تبرز الجذوع الخالية من اللحاء، التي تغطيها الصمغ المصبوغة باللون الأخضر. كانت أشجار الميموزية نحيفة كالعصي. وأشجار الأرز تمتد عبر الفروع الكثيفة كأذرع سباحين ضخمة. وأشجار الجوز تحمي الغابة بأبوية، وأشجار البخورية تنشر القوة والعمور الفواحة من أعماقها. وهنا وهناك، كانت هناك فروع مائلة من جذوع بيضاوية، وتبدو كأنها مرصعة بالمسامير، وتلمع الشمس على زهورها الكبيرة بلون الكريمة. كانت بعض أشجار الشينوسية البالنسية تعلن عن عمرها الطويل، وقوة أليافها النحيفة كاللحوم الخالية من الشحوم. كانت زهور أشجار الحميرية تبدو ممتلئة لزجة بلون أرجواني قوي. كان جذع شجرة الغار هائلاً في قاعدته، ويختفي تقريباً تحت طبقات متشابكة متشقة للحائه. كان يبدو كشعاب مرجانية مضاءة هنا وهناك ببريق أزرق من زهرة الآلام الشائعة. خفت غمغات أوراق الشجر؛ كانت الأرض تتعرق بالطراوة، حيث كانت الفرقة تنعم بالقبولة بينما كانت الشمس في الخارج تذوب كالجمر.

تحرك شيء ما في صمت بجوار المطيات. نزلت أفعى على الجذع بنعومة سطر شعري، وفي الوقت ذاته كان المتسول يرفع رأسه.

لا شيء!...

ومرت دقيقة حتى خمد كل شيء مرة أخرى. اهتزت الأوراق مرة أخرى. ظهرت ماسورة بندقية بين المطيات، ولم يلحظ أي شخص أن هناك أفرادًا يسرون في الغابة.

استيقظ النائمون على هدير ثلاثين طلقة متقاربة، وسقط منهم ست ضحايا. وبحث معظمهم عن البنادق القصيرة؛ وابتعد الباقون دون سابق إنذار لهذا، بينما يقفزون على أربع.

لكن الغابة امتلأت بصدى انفجارات جديدة ووقعت خسائر جديدة في المجموعة. وقف اثنان وقد أعطى كل منهما ظهره للآخر، وركض الآخرون ليسقطوا في كل الجهات، تصويبة واحدة على كل واحد منهم، والموت يحلق فوق الجميع: هذا يندفع إلى الأغصان كملاذ أخير، ذاك يتقافز حول الجثث دون هدف، كانت أسماهم مسدودة عن صيحات الضابط، محاصرين، تائهين تمامًا، وحينئذ صدرت أغنية وسط ضجيج المذبحة.

كان المتسول يسعى نحو الموت، بينما يبكي من الخوف، ومناشدًا إياهم في اللحظة الحاسمة بصوت الوطن ذاته. انتهز القائد تلك اللحظة. صاح ناهراً بصوت أجش من الألم:

-أنذال!... قذرون!... هكذا تتركونا بمفردنا!...

وقف بجوار العجوز بينما يحمل مسدسه في يده. استدار أحدهم فأسقطه برصاصة. كان اللون النحاسي على الوجوه قد أصبح مائلاً للون البرونزي. كانت

طريقتهم في الشحوب. شخص ما، مختبئ بين الفروع، ألمح بالاستسلام.  
وقف الرجال وظلوا يرتعشون، وتقدم الضابط إلى الأمام ورد:

- عاش الوطن! وبعد لحظة...

- اضرب!

هدرت دفقة أخرى، لكن الميليشيا كانت ترد الآن. امتد تبادل إطلاق النار  
من جانب لآخر، لكن الإسبان اختاروا ضرب النار بكثافة مما عجل بالحصار.  
حينئذ لكز الضابط الأعمى بكوعه. كان العجوز متشبثاً بملابسه ويتأوه،  
وحينئذ انطلق النشيد مرة أخرى مخلوطاً بالبكاء.

لم يكن نشيد المعارك، وإنما النداء الاحتياطي المخصص للأيام العظيمة،  
ذلك الذي لم يتم استخدامه حتى ذلك الحين، والذي اندفع بشكل مثير  
للإعجاب إلى شفتي المتسول:

اسمعوا أيها الفانون!

- استسلموا!

- عاش الوطن!

- اضرب!

تبقى خمسة عشر. صعدت أعمدة دخان بيضاء من بين الشجيرات. وصدر صوت صرير تعمير البنادق.

**حرية! حرية! حرية!**

انفتحت الأفواه بشكل عفوي، وكان الأمر أشبه بتيار موسيقى يذهب الهواء. لم يعد هناك من يفر. كان الغناء يرفع من روحهم المعنوية. كان الدخان يغطيهم، ويطفو النشيد فوقهم كعلم مهيب. كانت الهجمات والنشيد ينطلقان بالتناوب. كانت اللعنات تنتهي إلى مزمور. ويصدر وداع من المزمور. كان الصوت ينخفض باطراد، ويبدو الآن جشاً، في إنشاد بطولي، منطوق ضد الجبال وضد الغابة وضد الموت الذي كان يحصدهم من العتمة. واستند اثنان أو ثلاثة من المحتضرين لينشدوه أيضاً.

وهكذا أعطوا لموتهم مغزى، بعدما بوغتوا وأصبحوا بلا أمل. كان قائدهم يريد هذا، وقبلوا ما يريد، ليتماهوا معه في هذا الشرف في اللحظة الأخيرة. لم يكن العدو يهاجم، كان يطلق النار من بعيد، بعدما أوقفته موجة الشجاعة التي أثارها النشيد، الذي كان يتردد بعظمة فوق تبادل إطلاق النار. كانت روحهم المعنوية ترتفع بسرعة مع ارتعاشات الصوت. كأنها نسور تنطلق محلقة من كلمات النشيد. كانت تلك الأفواه الشجاعة تمضغ الكلمات، وتطلقها على صدور الأعداء المختلفين وراء الأشجار.

من قلب الغابة البكر، كانت صيحة الأمل تقول للبشر كيف تنهض الأمم  
ويكسر هؤلاء المحتضرون قيودهم. متسول وعشرة متمردين عراة، يزحف  
الموت على سيقانهم، نحيفون، مشعرون مثل الحيوانات، يغنون لتضحيتهم،  
يبشرون بفجر لن يروه. كانت الشمس تهبط. انتباتهم رعشة عندما أدركوا أن  
العدو يصب عليهم مرة أخرى:

وعاشق لأشجاره...

-اضرب!

انقطع النشيد كأنه حبل؛ لأن المتسول سقط مرة أخرى. توجهت طلقات  
عديدة إلى رأسه، لتسقطه على وجهه مثل حيوان يقع أثناء قفزه.

كانت تلك الميتة إعلاناً عن الكارثة. غرقوا في هلع غبي، تشابكوا معاً مثل  
عقد في حبل. رغبة غامضة في الانتهاء سريعاً حلت محل الحماس للتضحية،  
وتحولت المعركة إلى إعدام بالرصاص.

ارتخت أفواههم، غطى بعضهم الوجوه. أدرك الضابط أيضاً أن النهاية قد  
حانت. سقط العجوز، البوق الخاص به، وجده أيضاً على نحو ما. ولم يتبق  
معه سوى نصف دسته من الأرواح.

ببصيرة استثنائية، كان عقله يرى تفاهات ورغبات، شعر

برغبات مجنونة في الصراخ، لكنه لم يستطع العثور على شيء ما ليصرخ به.  
النشيد، ذلك الهذيان الذي استمر دقيقة، مر كرشفة نبيد. لم يتبق من  
عظمته أي شيء، حتى الذكرى. أطاحت رصاصة بقبعته، وحينئذ صرخ بكل  
قوته متحدياً الرصاصة الأخيرة:

- يا أبناء العاهرة!... أطلقوا النار!

اضرب! عوت الغابة للمرة الأخيرة، وسقطت بقية الفرقة تحت ستار دخان  
طلقات الرصاص.

كان المساء يذيب روائح الغابة في نداوته. شعاع شمس، كان يروي الأرض  
المشجرة بالنور، وامتد حتى القائد، وأثار جبهته، كأنه يقبله، تحت الأشجار  
المعتمة.

## رقص

إن كنت قد أخبرتني  
بموعد الاستحمام،  
لكنت قد حفرت لك بئراً  
مليئاً بماء الحظ.

آي، آي، آي، آي، آي...  
اتركيني أبكي...  
بالبكاء فقط،  
أدواي آلامي.

كان الشباب يعزفون بحماس رغم مرور سبع ساعات من غناء الفاندانجو، حيث كانوا يستمتعون بالليل دون توقف، على نغمات التشارانجو والجيتار. الآلة الموسيقية المحلية بأوتارها الرفيعة الستة عشر، المثبتة فوق درع حيوان مدرع إنديزي، ويصدر عنها ما يشبه البكاء المنغم، يصور الفراق ويصف الحزن، جنباً

إلى جنب مع جيتار عذب النغمات. كانت أوتار الآلة الأولى كافية لرفع الأقدام أثناء الرقص وأداء حركات لولبية، بل وكانت أوتارها فائضة تحسباً لمهارات عالية.

لم يكن الراقصون ينتهزونها جميعاً حتى إن رقصوا بمهارة شديدة. كانوا شباناً وطنيين، مسافرين في ذلك الطريق -سنة مقابل أربع فتيات- ولهذا كان الشخصان الفائضان يمسان بالآلات الموسيقية.

بين زوبعة من الدورات المنسوجة حتى الإنهاك وأطراف الأحبال التي تربط البنطلونات، وصفت الحركات الجمال الذي كان يصدر لدى دق الكعوب على الأرض. كانت رقصة الكويكا تجرر راقصين في الإيقاع الداوي لجسديهما:

يبحر مشط

في بحر شعرك،

وينام جبي

في أمواجه

روحي حياتي،  
أعطني قبلة،  
رنانة، كما هي العادة  
في بلادي.

وبعد ملاحظة خبيثة ماكرة:

يا سمراء، أنا فقير،  
فقير لكنني سخي.  
مثل عظام الذيل،  
خالية من اللحم لكنها شهية!

كانت الغرفة المعتمدة تسع الراقصين بالكاد بسبب السقف المنخفض.  
كانت القوارير والسراير مكدسة في الممر، ولكن بالقرب على الجدار  
الخلفي كانت هناك مائدة تشغل نصف الغرفة، مغطاة بكومة من الزهور،  
اختلطت فيها أزهار القرنفل الزاعقة بسيقان الكزبرة والترنجان المخزني.  
كانت أغصان لبلاب مشتبكة تحيط بصندوق صغير أخضر فوق المائدة،  
وفي داخل الصندوق، توجد جثة طفل، في وضع أشبه بالجلوس، حيث كان

رأسه يظهر من حافة الصندوق.

كانوا يحفظونه منذ ثلاثة أيام بين أربعة قناديل. وبرقصاتهم كانوا يرافقون ملائكيته التي كانت تتحول إلى روح المكان، بينما كان وجهه الآخذ في التجفف، يرسم تقضيياً عابساً على جبهته، تحت طرف قبعته، كأنه دمية حزينة. كان قد مات مسموماً بحليب أمه، التي أرضعته لخشيتها هجوماً متوقعاً من الإسبان.

كانت جدائل شعر الفتاتين تصل إلى منتصف سيقانهما. كانت حركاتهما بطيئة، وبأعينهما شبه المغمضة، ترفعان جونلاتهما قليلاً أثناء الرقص، كأن أيديهما معلقة من أذرعهما المفتوحة، وتنتحبان:

إن كان قلبك الصغير

من السكر

لكنت قد لعقته

طوال اليوم.

كانت نظرات الفتیان تنساب بمكر وخبث، تحت القبعات التي تخبئها، على وجنات الفتاتين ذات اللون المتأرجح بين الأسمر الذهبي والأحمر الخمري مثل قشر الرمان، وتنزل حتى الصدور

المدورة والكعوب الرقيقة كأنها عمل فني منحوت. كانتا رائعتي الجمال بخصلات الشعر المائلة إلى اليمين، كرمز وطني، وعلى الرغم من أقدامهما العارية، كانت ملابسهما متنافرة الألوان تعتبر فاخرة بالنسبة لقمصان الفتیان القديمة.

كانوا ينتمون للميليشيا التي يقودها أبو الملاك الميت، ووصلوا في المساء السابق. اجتمع القادة المحليون في مقر القيادة العام من أجل حشد في الغابة. كان الرسل قد أبلغوا الأمر بالفعل. لم يرغب ذلك القائد في أن يكون أقل من الآخرين، وتجاوز الحادث الذي سلبه ابنه البكر بعد عام من الزواج، وضرب موعداً في الصباح الباكر.

سيسافرون بسرعة ليصلوا عند الفجر إلى المكان المحدد. ولأن المقبرة بعيدة، كانوا سيدفنون الطفل خلف المنزل قبل مغادرتهم. على ضوء الشموع، بين أوراق الأغصان والزهور، فتحوا أيديهم بحبات الشعير فوق الصدر، وبينها كان الذباب يطير مترافصاً. كان صاحب المنزل يسعل من حين لآخر في الغرفة الداخلية، وخرجت أم المتوفى من هناك لتقدم مشروب الماتيه للضيوف.

كان رأس عازف الجيتار مائلاً على صدره، بالقبعة تغطي عينيه، ويداه فوق الأوتار، بينما رفيقه يدق على صندوق الآلة الموسيقية المحلية. كانت شعلات الشموع تتأرجح مع حركات المناديل في الرقصات، والهواء المعبق بالغبار يترك العيون حمراء، وأزيز الذباب يبدو أعمق حول الميت. تم استبدال الرقص

بالغناء، لكي تقوم إحدى الفتاتين بصب شراب الجنابة.

امتد الفراغ حتى الأفق في الخارج، في الضباب الذي تسخنه الشمس كالفرن. كان هناك سكون مقبض، شيء ينذر بالخطر كاللحظات التي تسبق هجومًا. كان ذلك السكون ينطوي على مخاوف. لم تكن هناك زقزقة واحدة على أغصان أشجار الشينوسية البالنسية الكثيرة، أو ثغاء حيوان واحد في المروج...

كانت الأواني تغلي في مواقدتها الطينية في ظل جذوع ثلاث أشجار، التي كانت قممها تشع الرطوبة مثل مرشات ريّ عريضة. كان المشروب المحلي قد دخل مرحلة النضج، وكانت الفتاة خبيرة في هذا. من تقسيم دقيق الذرة إلى جزأين، والذي يتم وضع رבעه في أقراص خالية من الخميرة، ثم عجنه مع ثلاثة الأرباع الأخرى في قاع إناء وإذابة الكل في الماء الساخن؛ حتى يتم تحويل الرواسب إلى محلول لخلطه لاحقًا مع السائل المصفى وتخمير التركيبة. ويا له من مشروب! قوي مثل النار الحية، كثيف، مليء بفقاعات ذهبية في المذاق المسكر بسبب رواسبه.

كانت الشابة تضم جونلتها بين ساقها، وتوقف الدخان بيدها اليسرى بينما تقلب تلك المشروبات المغلية التي كان طهيها يصدر رائحة الكراميل. قلبت النار، واقتربت من إناء به بقايا فواكه متخمرة، سكبت السائل في المرجل لتضع الطبقة الخضراء المتكونة على سطحه. تفحصت الفتاة إناءً فارغًا، واستخدمته كمرآة، وابتسمت قليلًا عندما رأت وجهها المشوه، لكنها لاحظت

الصمت غير الطبيعي في تلك اللحظة، فنظرت إلى الأفق بقلق، كأنها تتساءل. كانت غيمة مريبة تعكر تلك السكينة. كانت دجاجتان تنقران بقايا المشروب الذي يتم إعداده بتوتر ودون رغبة حقيقية. كان هناك شيء من الحزن مخيمًا في الهواء. من حين لآخر تصل غمغمات الغناء الذي تم استئنافه، مع صدى نغمة مشوشة:

تنقصك سنة

يا بنت بلادي

ونتفاهم عبر هذا

الطريق.

كان كلب يلهث تحت المدخل. كان ذلك الصمت، ذلك السكون مقبضًا، وسط كل هذا الضوء. صدرت أصوات غير مفهومة. وعلى الرغم من نضوع السماء كانت تقتم من حين لآخر، والشمس تسكب فراغًا مهلكًا.

لم تكثرث الفتاة كثيرًا بتلك الأمور الغريبة. عادت للكوخ منجذبة بالصخب الاحتفالي وهاربة من الحر. رقصت البولكا دون توقف وبمهارة. كان العازفان يفرغان كل طاقتهما في الرقص بعدما حل زميلاهما مكانهما. كانت صاحبة البيت تحت السقيفة، حيث تلاحظ بعض الشطائر التي أوشكت على النضوج. بالإضافة لكل

هذا، تفاقم سكون الهواء، مبشراً بقلولة هائلة الهدوء، عندما زقزق طائر فجأة في السهل، بالتزامن مع نباح الكلب.

- هناك ناس!

كانت طريقة النباح تعلن عن الحشود التي يشعر بها الحيوان. ألقى الفتيان بنظرة متفحصة نحو الأماكن المحيطة من مكانهم في الفناء. كان فوج من عدة كتائب يتقدم في سفح التل القريب، وكانت مقدمته قد توغلت في الغابة كان القائد الجاوتشوسي مستنداً إلى إطار الباب، وتشمم رائحة الخطر. قام بحساب احتمالاته، وبإشارة من يده، تسلل رجال الميليشيا الستة بين الأشجار.

دخل بعد أن اطمأن على رجاله. كانت النساء جالسات حول المائدة فزعات، ويرددن اسم يسوع دون توقف، لكن القائد تجاهلهن لأنه كان في عجلة من أمره وأخذ في إعداد نفسه بسرعة. جذب تجهيزات كبح الحصان بحدة، واتجه إلى دولا ب وخلع الستارة التي تغطيه، ثم أخرج بندقية قصيرة عريضة الفوهة، وأخذ في تعميها على الفور. وبعد ذلك، اختفى بين الأشجار الكثيرة بثلاث قفزات.

كان الآخرون ينتظرونه هناك. كانوا سيتلزمون بتلك النقطة لكيلا يتركوا النساء دون حماية. ربما لن يقوم العدو بالهجوم،

ولهذا اختبؤوا تحسبًا.

كانوا يشعرون بجحافلهم ويسمعون أصواتًا صاخبة، وفي الوقت ذاته الذي يلحظون فيه الاختناق المُبهظ في الجو، كان هناك شيء مريب في ذلك السكون. حتى السحالي لم تنتهز هذ الحر. لم تكن هناك غيوم في سلاسل الجبال. كان الهواء يبدو شعلة مرتعشة، وكانت السماء تبدو من الخزف المتقد، والأحجار على الأرض تبدو كالجمر.

في هذه الأثناء، صعد أحد الرجال على شجرة التابوبيا التي كانت تغطيهم، وألقى نظرة خاطفة من برج المراقبة المرتجل. وكان الآخرون يتابعون حركاته من الأسفل. أشارت يده بيأس باتجاه الأكواخ، بينما كانت دفقات من الدخان تبرز من خلف الأشجار. كان البيت يحترق، والحارس ينزل من فرع لآخر، حتى وضع قدميه على الأرض. تكلم بغضب ويأس، ناطقًا بكلمات غير مترابطة بسبب الخطر.

نار... الأندال... النساء...

حينئذ انفجر الغضب في عقولهم. رفعوا رؤوسهم بغیظ شديد، وقفزوا من بين الأشجار. مرت الغابة فوق رؤوسهم كالحلم. ووصلوا في لمح البصر إلى الفناء المليء بالرجال والخيول، والذي كان الدخان يلفه في غشاء داكن.

كان هناك حشد كبير صاخب بجوار المواقد، ولا بد أنه كان

يحيط بالنساء، فقد كانت هناك مزق من القماش ومن الفساتين تحت كومة السيقان. كانوا يفحشون لنيل اللذة من تلك الغنيمة. بينما كان البعض يغتصبون كما يشاؤون، كان آخرون يملؤون الدلاء من البئر القريبة، ويتجرعون الماء بقرقرة وحشية. كانوا قد نهبوا حانة في الصباح، وكانوا سكارى بالنبيذ، كما بالشمس، وينتهزون ذلك اللحم المتمرد بشكل مثير للتعجب.

كانت ضوضاء وقاحتهم البذئية تعلو على طقطقة الحريق. كانوا ينكحون في الشمس، وفوق فراش الزوجية. كانوا متعطشين للنساء، فتركوا مطابيتهم وبنادقهم كيفما اتفق، وكان صخبهم يزيد من وحشية الموقف.

ومع هدير طلقة البندقية التي انفجرت فوقهم، ظهر المتمردون وهم يلوحون بخناجرهم الكبيرة. ونشبت معركة بالأيدي بغضب أعمى، حيث ترمغت الأجساد على الأرض. قام المهاجمون بتفريق المجموعة، وضربوا الطعنات تحت دوامات البونشو، ونفتوا عزم هجومهم في أنفاس متسارعة، بينما يصل الدم حتى أكواعهم. تعملقوا بسبب اليأس، كانوا يطعنون الجنود طعنات عميقة، ويذرون الأرض بخصلات شعر دامية. كانوا متحدين مثل النير، ويسقطون الضحايا في كل جانب.

بينما كان كعب البندقية القصيرة يطحن الجماجم، والخناجر تشق الأجساد، أخذت الفرقة التي يعمل فيها القتل في التراجع بعد حمية الصدمة الأولى.

لكن جاء الهجوم المضاد بمجرد أن عزل المهاجمون أنفسهم في دائرة خناجرهم الكبيرة. هجمت الفرقة الإسبانية عليهم بوابل من الطلقات والطعنات. لمعت البندقية خلال لحظة فوق الرؤوس، كانت ذراع حمراء تمسكها بينما تدق بها...

من بين الصفوف الإسبانية لاح ريش قبعة قائد، وبرزت رقبة الحصان بالكامل، وكان الموجودون في الخلف يصرخون. وفي تلك اللحظة، صدر خوار من الأرض مع هدير إعصار تحت الأرض. انهارت الأرض تحت الأقدام، كأنها درجة سلم مكسورة. انتابت الأمعاء رغبة في القيء، وترهلت السيقان، وامتلأت الرؤوس بأجحار رنانة. الهزة! الهزة! اتحد المتقاتلون في صياحهم؛ ولفهم الظل الأحمر للدخان الذي كان يضيء كآبة جحيمية على المشهد.

وقعت هزة مخيفة بعد الزلزال الأول. كانت الأرض ترتعش مثل عضلات ساق الحصان، واستمرت القعقعة مع التشققات: كان هناك زخم لصدى هائل متردد في كهوف وتجاويف.

فجأة تغير المكان ولم يعد كما كان. اختنق الهواء بسحابة مغبرة. وتفرقت الخيول بفزع كبير. تشقق سور الفناء تشققات عميقة، وانسابت بقايا المشروب بين جثتين.

لم يتبق من البيت سوى حطام فوق رماد ينفث الدخان. كانت مَدْرَاة لا تزال مشتعلة، وتطايرت ألسنة اللهب من لحائها فجأة مثل طيور حمراء. برز التابوت سليماً بين الدخان، وكان مغطى بزهر الترنجان المخزني والقرنفل. كان المقاتلون الذين زعزعهم الزلزال يقيسون قوة بعضهم بعضاً مثل وحوش خائفة، كأنهم يستشعرون عقاباً في تلك الكارثة. ونهضت امرأة على حال بشعة وسطهم. كانت الأم.

كانت ملابسها ممزقة، وصدرها العاري مليئاً بالرضوض بسبب الصراع الوحشي ضد فجر الجنود. كانت عيناها تسبحان في الدم، وينتفض جسدها تحت بكاء صامت لا يمكن ملاحظته إلا في ارتعاش فكها.

تقدمت نحو الحريق ووقفت على الجمر دون أن تشعر به قدماها الحافيتان. وعندما تدخل الجنود تجدد القتال. أصبحت النساء هن من يقاتلن الآن، بأيدي الهاون وأسلحة الشهداء. ارتفعت البندقية وتقيأت شحنتها الرهيبة القاتلة، ومع هزة زلزالٍ ثانٍ، انتشر الموت مرة أخرى تحت الأشجار. كانت أشلاء الأجساد متطاوحة فوق الأرض المرتعشة. ألقى المغمصبات على وجوه الإسبان بالمشروب المتقد وتركن علامات عليهم بالجمر والعض.

كانوا يشربون من ذات الكأس. وحولهم كانت الأشجار تتمايل والقمم تتناطح في الأفق.

كانت المعركة الثانية أقل حدة، على الرغم من أنها أكثر دموية، وانتهت بذلك الزلزال. سقط المتمردون جميعًا. أربع من النساء كن متمدات على الأرض بأجسادهن مشقوفة. كانت أصابعهن متوترة بين خصلات شعر، وأفواههن متقلصة برغبة في العض. المرأة الأخرى، الأم، كانت تبتعد شبه محترقة بينما تحمل الطفل على كتفها. وكان كلبها يتبعها. بينما كان الآخرون يحتضرون، دخلت بين الأنقاض لتحمل الجثة. كان شعرها يتلاشى في لهب ممسك به، كأنه جزء منه. وخرجت من الحريق بملابسها المهلهلة، لتجسد الكارثة.

لم تنتبه إلى أن النار قد تركت رأسها بلا شعر، وكانت تمشي بين أهوال السماء والأرض، حيث كانت هي أيضًا محطمة بالانهيار الداخلي. كانت قدما المتوفى تتمايلان على مؤخرتها؛ كانت القدمان الصغيرتان قد أصبحتا ذابيتين، وكان الكلب يلحقهما من حين لآخر.

كانت تلك الهيئة بين الأشجار والأحجار المكسورة تجمد الرجال في أماكنهم. الحطام والجثث بأحشائها المفتوحة، التي عرضها العدو لإهانة مزدوجة، بأسلحته وفحشه، كل هذا كان يدفعها للثأر.

كانت تفر باتجاه المتمردين في الغابة، بابنها الميت، وعريها المأساوي، بعدما امتلكها رجال أغراب، بين الجبال التي كانت ترتعش بألمها. كانت تحمل الموت معها كشعار، وكانت الكارثة تقبض على قلبها مثل قسم بالكُره. بدت كالراية المتماوجة بملابسها المهلهلة. كانت أحشاؤها المفتوحة تخفي البراكين أيضًا، مثل أحشاء الأرض التي شهدت ميلادها. بعدما اقتلع الموت والجريمة كل أواصرها، كانت المرأة الوحيدة العظيمة التي تجوب الغابة ليلاً بينما تبكي على مصابها، حتى ذابت روحها في البكاء، والآن دون روح تتحول إلى ما يشبه الطائر الأسطوري، لم يتبق لها سوى آهات ألمها في سفر بلا رفيق أو حامٍ. ومع تأوهات ألم حكايتها بجوار النار في المخيمات، تحول بكاء نومها -وبكاء يقظتها أيضاً- إلى بطولة، وأهداف ملهمة للمآثر، حتى فرت منها الحياة عبر دموعها.

كانت تضم قطعة اللحم تلك إلى صدرها، وترفض أن تودعها الأرض، كانت تضمها بيأس حتى تسرب شيء من الموت في عظامها.

كانت الشمس تسوط سلاسل الجبال المغبرة بسبب الزلزال. كانت الكلاب تعوي في الصمت المخيم. كانت السائرة بين الكوارث تتحرك بين أنقاض الزلزال، كانت شبحاً مثقلاً بحمله من الموت، بينما كلارينيت يصدح بعوائه كوحش مفترس فوق الأنقاض.

## القسم

كانت الليلة الحارة وتنضح برطوبة جديدة بعاصفة. لم يكن هناك سوى الظل، ولا يمكن رؤية السماء. يمكن الشعور بوجود الأشجار والجبال في العتمة، وأيضاً مخلوقات أخرى كثيرة مثيرة للخوف. كانت بعض الجبابرة تومض من بعيد. كان الهواء صامتاً، فخرست الأوراق أيضاً.

كان هناك توقع بعاصفة ممطرة، فأمضى الخدم ليلتهم في الحظائر الكبيرة في العزبة. ومن حين لآخر يصدر همس صوتين فقط في الممر؛ لأن المتحاورين، فيما يبدو، كانا يفكران أكثر منهما يتناقشان.

وبجوارهما كان هناك حامل السروج، وفوق الدكة الحجرية توجد مجمرة مطفأة. كان صدرا الشخصين يخفقان بقوة، وكانا رجلاً وامرأة.

- ... للأبد؟ - سأل الرجل.

وبعد برهة طويلة:

- للأبد!... - قالت المرأة بينما تتنهد. واستمر الصمت.

كانت الميليشيا الريفية المحلية قد أسرت 15 جندياً من المتخلفين عن قواتهم في سهل قريب. كانوا يحاولون إشعال نار بائسة بصناديق البنادق وحشيات السروج. لم ينج من الذبح سوى ضابطين؛ لأن رجال الميليشيا أبقوا على حياتهما من أجل استبدالهما برهائن. مات أحدهما في الطريق، أما الآخر فوصل مريضاً للغاية إلى المزرعة التي يعسكر بها هازموه.

كانت هذه المزرعة ملك أرملة شابة، والتي كانت مكانتها ومحبتها تهيمنان على كل المنطقة. كانت أمًّا وسيدة للجميع. وهكذا كان خدمها يطلقون عليها: يا أمي، ويا سيدتي.

كانت تساعد أي شخص في محنة، وتوفق الزيجات، وتساعد الناس على الموت بكرامة، وتتولى تربية اليتامى. كان يبدو أنها تنساب مثل سحابة ولا تمشي على الأرض. كان جمالها متوجًّا بشعر كستنائي ذهبي. كان اسمها أسونثيون. كانت أعوامها التسعة والعشرون مثل باقة زهور. كانت يداها رقيقتين شاحبتين، وتشف راحتا يدها عن الأوردة البنفسجية. كانت جبهتها هادئة مثل الماء، ابتسامتها عذبة غير مكترثة، وعيناها الزرقاوان بنداوة عصر ربيعي.

كانت من أوائل ساندوا ثورة 1810 علناً، وكانت تدعمها ماليًا

منذ ترملها، بل وبالتزام أكبر. الزوج المريض لم يشارك في الحرب، وإنما ساهم بثروته. وبعد موته، قامت بتنفيذ أوامره وجهزت فرقة.

كان زواجها تعسًا، لكنها نفذت الوصية بإخلاص. ذات يوم طلبها رجل للزواج. كانت تعرفه بالكاد وتزوجت بدافع الطاعة. واستمدت من زواجها غير المكتمل شغفًا مخيفًا بالحب الذي كانت آلامه الرائعة تتزايد. على الرغم من هذا، كانت تشارك في النضال بشكل مثير للإعجاب. لم تكن عاطفتها شعلة عمياء أو سيلاً في مجرى مسدود؛ بل كانت زهرة في برعم، في انتظار رياح رقيقة، مثل زهرة الجكرندة التي تظهر في الغصن العاري مع أول تغير في الطقس.

كان طبعها الحامي يتبدى جلياً ويفرض نفسه في الوحشية الزمردية للعينين، في نظرة حارقة إن كانت غاضبة، وفي شفيتين قويتين، عندما تتذكر مآثر أبناء وطنها. تحول حنانها الكامن إلى شفقة على الضابط الإسباني المهزوم. في البداية أفزعها حال الجريح فوق النقالة المصنوعة من جذوع الأشجار، تنفسه الشبيه بالصفير، وجهه العارق بسبب الحمى. بعد ذلك فرضت الشفقة نفسها.

لا بد أن الرجل المسكين قد ترك أطفاله، وربما أبًا معتل الصحة أيضاً، في إسبانيا البعيدة. كانت الحرب قد أنهكته دون القضاء على فحولته التي تتبدى في شعر جسده الغزير. والشمس التي

ضربته في المعسكرات والحروب لم تقضِ تمامًا على شحوبه الدافئ. كان يهذي بمعارك ومطاردات، ولا يتذكر الأب أو الأبناء. بالطبع! رجل عسكري حازم، لا تحتوي روحه الحديدية على ذكريات لهؤلاء الأفراد.

ذات ليلة تحدث أخيرًا عن مدينته، ليما، في حوار غير متسق حيث كان يخلط أسماء كتائب إسبانية وبطولات فروسية. حينئذ لم تغفر له السيدة. فضلًا عن أنه عدو، فقد كان خائنًا. كيف يمكن تصديق هذا. كان خائنًا، عبدًا للإسبان. فما فائدته إذن؟

على الرغم من النفور، كانت تهتم بالرعاية به، بشيء من الرحمة الاحتقارية. كانت تقضي الوقت بجوار فراشه بلامبالاة لا مزيد عليها، ولا تتحرك إلا لتعطيه الأشرطة الموصوفة: قشور لتخفيض درجة الحرارة أو خلطات لمداداة الجروح والتقيحات، والتي كانت المداوية تخلطها سرًا. كانت تبغض تلك المرأة. كان البغض يتضاعف بسبب أنفها الدهني، والهالات المحيطة بحدقتها كأنها صفوف من الفاصوليا المكسورة، وبشرتها المتصلبة بسبب الشبخوخة، وفنون شرها التي كانت تمزجها بشيء من العلم. كان الصوت الذي يصدره صندلها على الأرض يثير الرعدة. وكان الناس يقولون إنها كانت تجلب المطر عن طريق تقييد الضفادع في الشمس، ببطونها إلى أعلى، ثم جلدها بنبات القراص. وكانوا يخشون أيضًا من تعليقاتها ونبوءاتها، فلم يكن هناك من يفوقها في نشر أسرار الجيران. وهكذا استعادت المرأة راحة بالها عندما

تعافى المريض وعادت تلك الساحرة إلى بيتها، بعدما حصلت على أجر كبير، وهو عجل عمره ما بين عامين وثلاثة.

حينئذ، بدأت فترة النقاهة الفعلية، بجوار سرير الضابط، في محادثات ذات عذوبة حزينة تقريباً. كان صامتاً عادة، وقليل الكلام. كانت بعض عبارات الشكر والعرفان هي ما تقيم الحوارات. لكن العيون كانت تتصادق، فتصمت الأفواه. كانت نظرة المتعافي تطلب الشفقة، وتتحول إلى وداعة على الرغم من الوضع الغامض. كانت المرأة ترد بمرواغة وتجاهل، وكان هذا يقربهما أكثر وأكثر. لكنهما كبها المودة؛ لأن الود الوليد بدا لهما خيانة. كان يعلم أنه أسير، وكانت مسؤولة أمام الوطن. وإذا كان يخفي مشاعره تحت ستار الكبرياء، فقد داست هي على قلبها لتشعر بالضيق، ولم تنجح في الاختيار بين واجباتها الوطنية وضعف مشاعرها الذي كان يثقل عليها كمرض.

أحياناً، بتوافق مفاجئ، كانا ينسجان مصيرهما. كان القدر يؤلمهما. كان الحظ السيئ ينبئ بانفصالات، والتضحية المقبولة تقسي من روحيهما.

لكن الحقول الخضراء كانت تنضح بروائح عذبة أكثر من أي وقت مضى. مثل طائر الحسون المغرد بقصائد رقيقة، كان رضوخاً طفولياً يوفق بين قلبيهما. الوطن والملك والحرب تحولوا إلى جوهر ألوهية لطيفة، تغمرهما منذ أبد الأبدين بحنانها الهائل. وذابت روحاهما في ذلك الخير مثل قطرتين من العسل في

مشروب ساخن...

استمرت فترة النقاهاة. جاءت فرصة التنزه في ساعة الغروب، حتى الحظيرة حيث كانت الشياه حديثة الولادة تثغي. كانت قد دعته في المرة الأولى كأنما عفو خاطر، دون اكتراث خفي خلف الكثير من الهواجس. ظهر الضابط في الفناء، كانت لحيته طويلة، وما زال مقيداً. كان العمال ينظرون لهما خلسة بنظرات متوجسة، ويحيون في صمت. كانت الكلاب تزوم كاشفة عن أنيابها، كأنما تشم في ذلك الرجل عدواً.

تحرك الضابط، دون تعبيرات على وجهه، بينما ترتعش شفتاه. سار حتى أصبح بجوار السيدة. وهي بدورها، احتوت الغضب الواضح بنظرة واحدة، لكن النزهة فشلت. عادا أكثر ابتعاداً مما كانا عندما خرجا، وكان هو يبالغ في تهذبه.

كانوا يكرهونه... حسناً! وماذا؟ هذا أمر بسيط!... إن كان قد استعاد عافيته في الوقت المناسب، لكن قد قضى على هذا الغضب بضربات سيفه. لكن إذا كان الحظ قد أتى له بهذه المرارة، فإن الملك يستحق المزيد. في هذه الليلة ذاتها سيحدد مصيره بالتسبب في نهاية للوضع. سيقول "عاش الملك!"، وينتهي كل شيء بالذبح.

لكن، وهي؟ هي؟... ستتخلص من أدويته وأغطية فراشه، وتسلمه ضعيفاً أعزل للعمال والكلاب. أدرك هذا عندما دعته

للتنزه. ضحك مراراً وتكراراً. كان يستمتع بغضبه مسبقاً أمام ضوضاء الخدم...

غمرت دموع الألم عينيه، لم تكن دموع غضب، لكنها ضاعفت من حنقه. لم يعد يلوم نفسه فقط، وإنما كان يحتقر نفسه. نزق! ألن يفاجأ بنفسه متحملاً نفاق المرأة الغادرة بجبن؟ واشتعل سخطه مرة أخرى.

رائع! أحد ضباط الملك وقد أصبح دمية في يد امرأة من الجاوتشوس.

لكن كل شيء سينتهي في تلك الليلة، في تلك الليلة.

اعتذرت السيدة عن تناول العشاء في تلك الليلة.

أثار هذا الأمر العارض غضبه. كانت تخشى لومه، ولهذا كانت تتفاداه. لكن ما هو الغريب في كل هذا؟ كان يرغب كثيراً في رؤيتها، ليس لمجرد رؤيتها، وإنما لكي يسحقها بكبريائه بتقرير مصيره. وكاد أن يبعث لها برسالة على الرغم من وعكتها.

في نهاية الأمر، ستصبح هذه تضحية أخرى من أجل أفكاره وواجهه.

كان الألم ينضح بالسخرية في بعض اللحظات. سجين... سجين على يد امرأة! يا للبؤس! ألا تبدو قصة حب رومانسية في روايات الفرسان؟ الفارس النبيل بين يدي عدوته الساحرة?...

سجين لامرأة. يا للعار!

في الليل، بعدما هدأت انفعالاته، غزاه الحنين إلى الوطن، للجيش المنتصر في توكومان، دون أدنى شك. هل يتذكره رفاقه في فرقة جيرونا وقادته في إمبريال أليخاندرو؟ هم هناك، بين مغامرات واحتفالات، بعيداً عن الزميل جريح الحرب، الذي ينتظر الذبح في النهاية.

وسط هذه التأمّلات، سمع مناشدات حزينة من بعيد، ثم عواء متشنجاً للكلاب، وهياجاً غير طبيعي في الحظائر، لا شيء بعد ذلك...

لكن روحه سحرت بهذا. لم يعد البكاء يخنقه، رغم أن جفنيه كانا متقدين كما في الظهيرة.

مساكين هؤلاء الفتيان في الجيش. كم يحبونه! نداء بوق في تلك اللحظة وعلى تلك الحال! سييكي، إنه يشعر بهذا. وبعد ذلك، يا لعجزه! كم يحتاج لحصان أو لكلب، لأي شيء ليحبه!

كان قلبه يشعره بالضيق، حيث كان يدق في صدره مثل مطرقة برونزية. كان شعوره بالإهانة يخنقه مرة أخرى. باه! أخيراً، سينتهي كل شيء في اليوم التالي. مسألة وقت.

نجح برد الفجر في تهدئته قليلاً. عندما أفاق من نومه، والشمس في كبد السماء، نظر حوله ورأى أن الشابة تتعد عن

رأس فراشه. كانت تحمل الأبريق الذي استهلكه أثناء سهاده، كانت رائعة الجمال بشعرها غير المصفف وروبها الأسود. عبرت الغرفة كأنها تطفو أثناء سيرها، واختفت دون أن تنظر للخلف.

كم مرة، خلال فترة المرض، رأها هكذا، حنوناً لأقصى حد. كم مرة رأى فيها الأخت التي يمكن أن يتوسلها من القدر! مثلها تماماً، دون أي اختلاف: شقراء، نحيفة، حزينة لغرقها في محتنتها؛ تشبهها في كل شيء.

ألم يكن يهينها عندما يشك في أنها منافقة؟ على الرغم من رعايتها له بشكل غير مفهوم، كيف لم يلحظ هذا في اليوم السابق عندما أهان ملاك الرحمة ذاتها واصفاً إياها بالفضة؟

غشيت عيناه برطوبة مريحة مثل قطرات العين؛ وإزاء الموقف الطيب في الصباح، اعتبر أنه بالكاد سيرفع الضرر والإهانة عنها إن جعلها تقتله.

تكررت النزهة في العصر، في غياب واضح للعمال، وهو ما امتن له بكل روحه كهبة ثمينة. تحدثا حول الحرب والبلاد. كان يعرض أفكاره وهي تعترض بمودة، كأنما يتناقشان كصديقين، وفجأة خرج رجل من دغل صغير ممسكاً بلجام حصان.

اعتذر مقدماً الحجاج وشاعراً بحرج شديد. كرر تحية اليوم السابق لأنه كان يرى في الضابط عدواً. تمنى ألا تطرده السيدة! كانت جذوره عميقة في المزرعة؛ لأن هذا سيعني الحكم عليه

باليتم. لقد نشأ هناك، ويريد أن يموت هناك. كانت ترى أن بعض الجلادات تكفي.

أثار هذا قلق الضابط الملكي بشكل غامض. تذكر عويل الليلة الماضية، والعواء، والحركة غير العادية، وسأل عن هذا بينما يرتجف تقريباً. اتقدت عينا السيدة بالغضب. نعم، بأمرها تمت معاينة ذلك الوقح، وشنق الكلبة، وكان هذا هو سبب الضجيج. فيما يتعلق بهذا، ليرحل. هناك الكثير من المزارع والأراضي حيث يمكنه العمل. لا مكان للوقحين في أرضها.

مشى الرجل قليلاً بعد التحية، واستدار فجأة بينما كان الآخر يتحدث:

- حسناً، حينئذ سيصبح مثل الفارين من العدالة. سيأتي في الليل، ليرى بيته فقط، وسيتهج لمجرد ألا تطرده الكلاب. لتباركه صاحبة البيت... وليسع وراء زرقه بمساعدة الرب.

حينئذ تدخل الضابط ووافقت بدورها. شكره الفلاح مغمغماً، وحفظ العملة المعدنية التي كافأه بها الضيف ثم رحل.

فكر الضابط في الوطن طيلة الليلة. ما هو وجه المقارنة بين تلك الملامح وولائه؟ الوطن! ألم يكن هناك في الوطن شيء ما من الشابة؟ وهو، بدوره، ألم يكن ينتمي في نهاية الأمر التراب الأمريكي ذاته؟ لم يكن شرفه سوى خجل. كان الفرار من الخدمة يجعل الجيش الملكي الإسباني أكثر ضعفاً؛ لأن الجنود المخلصين

كانوا يفرون بالعشرات. لِمَ يجب أن يكون هذا احتقاراً؟ هل هناك قيمة أكبر إذن للقتال ضد أرضه؟ في الحقيقة، سواء كان ملكياً أو وطنياً، سيموت في نهاية الأمر.

بعد بضعة أيام، أثناء إحدى تلك النزعات اليومية، لمحت السيدة بمزيد من الوضوح إلى قلة حب الضابط لأهله حسبما ترى. هل كانت الحرب تستغرقه لدرجة التضحية بالأب والأبناء؟ لم تكن تلومه، لكنها كانت تأسف لهذا...

اندهش الرجل العسكري مبتسماً. لوم؟ حتى إن كان مستحقاً، لا يساوي أي شيء مقابل ما يدين لها. لكن افتراضها لم يكن صائباً. لتيتمه، التحق بالجندية منذ كان طفلاً تقريباً، وفيما يتعلق بالزواج.... باستثناء السيف...

كانا يسييران ببطء في طريق ضيق من أشجار الكرم المتشابكة. كان الغروب يعكس أشعة وردية فوق السهل المتوج الشاسع. كان ثغاء بعض الشياه ينطلق في المكان. كان أهل الأكواخ يشعلون النيران.

واصلت الشابة السير ببطء أكثر، وكانت على حالة من الاسترخاء جديرة ببهجتها. كانت الأرض مخملية تحت أقدامهما. كانت روحها تحتمي في أعماقها بشيء من الفزع. كانت تشعر أنها بلا حول ولا قوة وسط نور هائل. ربما سيكون الموت هكذا...

كان الضابط يتأمل أيضاً. في تلك اللحظة سيتم فض التناقض بين ولاءه وحبه. معها، نعم، معها حتى الموت! المجد؟ مسيرته المنتهية كرجل عسكري؟ الوصمة المحتملة بالانشقاق؟... ماذا يهم؟ وحيداً في العالم، دون حنان، ألم يجد فيها عظمة الحب أثناء ساعات كربه؟ كانت عتمة الليل الوليد تزداد. كانت رياح الريف تطوحهما مثل قماش تفتان خفيف. وقف طائر بوتو على ساقيه، طار واطناً خلال لحظة، اختفى بعيداً، ثم عاد للظهور مرة أخرى. تابعاً قفزاته باهتمام ملحوظ، في محاولة منهما لعدم التوقف وتأخير القرار الذي لا مفر منه، وكانا يعتقدان بأنه يوشك على الإصابة بالجنون.

بدأ الرجل يشعر بالضيق شيئاً فشيئاً بسبب شعور هائل بالفراغ. وهي بدورها كانت غارقة في معاناة بسبب شعور رهيب بالعجز. بينما كان الطائر في الهواء، يقوم بحركات متعثرة بالقرب من الأرض بسبب ضعفه البادي، ومثل روح يائسة كان يرفرف بجناحيه الرخوين، وكان يحاول الفرار بحركات عاجزة، في صمت، كأنه تائه في أرض مخملية. تحدث الضابط في النهاية، وفي تلك الليلة، في الممر المظلم، اختاراً نجمة مصيرهما المشترك في سماء الوطن.

-... للأبد! - ردت السيدة.

من أجل التوق الأبدي، الوعد الدائم بالخلود. انفتح الليل فوق رأسيهما مثل زهرة عميقة. كانت نجوم كوكبة الجبار تبرز في السماء بين كل النجوم على هيئة سبع شياها بيضاء صغيرة. كان التأمل يوقف الزمن بالنسبة لهما. كانت الحياة الإعجازية للنجوم توقظ في صدريهما شغفاً غير محدد. كانت بعض العبارات تتناول الماضي، لأن المستقبل لم يكن هاماً في ظل تفاؤلها. تحدثت عن أحلامها. وتحدثت عن شعوره بالعداء وعذاباته يوم اعتقد أنها تسخر منه في ذلك اليوم. وكيف شعر في صدره بحنان شبيه بهديل يمامة غير مرئية.

كانا ينهلان من أفجار الصيف، بحالة تشبه النشوة التي تركت الضابط أكثر امتلاء بشكل واضح. هي، بخنفس مضيء مربوط في منديلها، كانت تشع بضوء الحشرة المنير، الذي كان يلف يديها التأمليتين في غموض رومانسي، ووجهها المقدود من الظلال في العتمة، وعينيها، وشعرها الذي يبدو كزهرة الهواء. وحسب كلمات المحبوب، كانت على حالة من الوجد الروحانية، كأنما سقط شعاع من القمر على قلبها مباشرة.

وعزفت على أوتار الجيتار بعض الألحان القديمة أو الأغاني الرومانسية بناءً على طلبه. آه، هبة السعادة التي تنضح بها

أشعار الفلاحين! آه، يا لسذج الحزاني الذين يبعثون التعاسة؛ لأن الحب  
كالخمر، يحيي الأحزان! آه، يا لأنين القلب الذي لم يستطع التحمل بعد  
الاستمتاع بمباهجه:

أريد أن أحصل

من ذلك التل الأخضر

على أعشاب النسيان

لكي لا أحب...

اصطبغ اليوم بلون رمادي خفيف. من حين لآخر، يفر شيء من النور عبر  
الشقوق التي فتحتها الشمس في الغيوم، ويصبغ الخضرة البعيدة بلون أصفر  
باهت. كانت أفواج الجاوتشوس تتجه إلى المزرعة عبر الطرق والدروب،  
لتبارك للسيدة، وتشارك في الإعداد للاحتفال بزواجها. كانوا يقضون بقية  
اليوم في الرقص وتركيب الزينة. وهكذا، كان حدثاً بلا مثيل.

وبدأت التعليقات:

لهذا، منذ تعافي المريض، كانت السيدة تمشط شعرها فوق جبهتها. علامة  
هلاك!

يا لعين الإسباني! إسباني?... لا، إنه أمريكي، من ليما. وكانت السيدة تتذكر  
المثل الشعبي:

آه يا ليما،

من لا يعرفك، لا يحبك.

يا للسيدة، أي انتصار! قائد، بجلالة قدره، لأبناء الوطن! انظر، والفارس لم يكن يبدو أنه بيروفي! بكلماته المعسولة وحنانه يمكنه أن يوقع أي قلب. هذا على الرغم من أن السيدة لا ترضى بأي شيء.

وأي أبناء كالزهور سينجبان.

إن لم يولدوا كأساقفة أو كولونيلات صغار... وأي رجال سيكونون، هذا أكيد، ففي زمن الحرب يتضاعف عدد الذكور.

وفي البيت، بينما كانوا يطهون شطائر رقيقة، كانت رائحة الكمون تفوح منبئة بالطعم الشهوي. وجاء فرسان آخرون أيضاً. عجوز يمتطي حصاناً ذكراً دائماً، جاء مع أكبر بناته، فتاة نحيفة ينسب لها الناس ابناً للكاهن، وعلى الرغم من معاناتها من حمى الضنك، كان إفطارها شطائر من الفلفل الحار المجفف في الشمس، حيث كانت تتناولها واحدة تلو الأخرى. وشاب قوي بهي الطلعة، كان متطلعاً سابقاً للزواج من الأرملة، وكان يبدو رائعاً بمهمازين قيمتهما خمس وخمسون أوقية. ويحكي الناس أنه جرح ذات مرة عندما كان يستعد للرقص، وأمر الفتاة بالبقاء، ثم أدى الرقصة كاملة بينما يبصق الدم بسبب الطعنة. وكان قد

تزوج بالفعل. لكنه دخل في نزاع مع والد زوجته الذي كان يسرق المزرعة، والذي عاقبه بالربط إلى ثور، ليهينه بذلك.

وعزباء ثرية، كانت تنام على فراش من الخشب الفاخر المنقوش، وكانت تتجشأ مع كل خطوة؛ لأنها كانت مصابة بورم في الرحم، والذي كان يرتفع باستمرار داخل أحشائها. وسيدتان أخريان، كان ثراؤهما الفاحش يتبدى في أطعم أوانٍ خزفية فاخرة، لكنهما كانتا مقترتين لدرجة البؤس، ولهذا كانتا تتناولان مشروب مائيه من القش ويحلبان قطعانها بيديهما.

وفي العاشرة تقريباً، تشكلت الفرقة على هيئة نصف دائرة فوق الأرض الخلاء المجاورة. كانت رايات جديدة معلقة على الحراب. بعض الخيول كانت مزينة بلجامات حمراء، وكانت ذيول بعض الخيول الأخرى مضفرة بأوراق الشجر. ظهر الضابط بملابس مدنية، كان يمتطي حصاناً أبيض الرأس، ثقيل الخطى، ويصهل بغضب شديد. كان السرج مزيناً وسيوره مطعمة بالذهب. كان يحمل شارة في القبعة والسيف متدلّ من خصره كعلامة على مكانته. كان شعر رقبة الحصان مزيناً بشرائط بيضاء وزرقاء.

وبجواره، كانت السيدة فوق حصان أبيض كثيف شعر الرقبة. سرت غمغمة بين الحضور. كان رجال الميليشيات الريفية يحركون مرافقهم أماماً وخلفاً.

كانت ملابسها بلون العلم. الجونلة سماوية والسترة بيضاء.

وكان غطاء رأسها سماوي اللون، وأيضاً الشريط الحريري في اللجام والسوط.

وكان شعر حسانها سماوي اللون أيضاً. كانت كجوهرة رائعة تحت الشمس، تبرق أصابعها المرصعة بالخواتم اللامعة، وقرطها الذي يشع ناراً، والعقد اللؤلؤي الذي كان يغطي فتحة صدرها بلون أبيض، ونطاقها المرصع بالأحجار الكريمة، النسيج الأرجنتيني ذي الخيوط الذهبية في قميصها والترتر الذهبي في جونلتها. وفوق جسدها الذي يشبه شعاع البرق المتموج، كانت تجعيدات شعرها الأشقر تتلألأ في انسيابها من جانبي القبعة، مثل هيكل سفينة إمبراطورية. كانت البهجة مزهرة على وجنتيها. كانت تتمايل أنيقة على ظهر الحيوان، الذي كان في ألقه يرتعش مثل الماء مع التيار.

كانت خيول رجال الميليشيات الريفية ترفع قوائمها الأمامية بهجة. عندما أصبح الرجل والمرأة أمامها، انطلقا في الركض بعد اندفاعة حماسية وجيزة. ذهباً حتى القمة، تركا هناك الحصانين اللذين كانا يرفعان ويخفضان رأسيهما بتكرار. وعندما دارت الفارسة، ارتفعت الجونلة، ليظهر حذاء ذو رقبة زرقاء بين الطيات المطرزة. جولة أخرى، ثم وقف القائد على الركب، وشهر سيفه عالياً، ثم تكلم.

كان الأمر كما لو أن سلاسل الجبال قد طففت فوق بحر من النور.

أيها الجنود: إن وطننا المحبوب يدعونا إلى ميدان الشرف. إنه يدعونا للذهاب هناك، سواء من أجل السلام المرغوب الهادئ، أو من أجل الموت قبل الوقوع تحت نير العبودية البغيض.

كانت هناك سيطرة كاملة لصوت المعارك المتردد بين التلال: صوت القائد الذي يدعو للولاء. كان البريق يلمع على سيفه. كان حصانه يرفع ساقيه الأماميتين مع كل حركة.

أبناء الوطن المحبوبين! إذا كانت حرية وطننا قد احتلت دائماً في قلوبنا المكان المفضل للتضحية، إن كان الاهتمام البالغ بتقدمه قد جعلكم تنسون أنفسكم، ستأتي على أيديكم اللحظات الرائعة لتغيير وجه العالم؛ لأن جهودكم البطولية تستطيع تحقيق الأشواق المقدسة التي تسعون إليها.

كان يدعو للحرية بكلمات متقدمة مثل البارود وكثيرة مثل دقات الطبول. وبعد ذلك استدار إلى السيدة، وأعرب عن إخلاص هؤلاء الرجال الشجعان الذين قاتلوا تحت حمايتها، وتعهد لها بأمجاد، ووعدا بالنصر كمهر. ستكون رمزاً للوطن في المعارك، سيموتون باسمها على شفاههم، ولكي يبرهن لها على هذا بشكل أفضل، سيقسمون لها بدلاً عن القسم للعلم.

ترجلا كما ترجلت الفرقة في الوقت ذاته، ووضع القائد سيفه فوق صدر السيدة.

قام رجال الميليشيا، واحداً تلو الآخر، بتقبيل صفحة السيف بتوقير، كانت قبلة يخلفها بخار خفيف عابر، يتبدد بسرعة. وعبر السيف، شعر العلم الحي في أحشائها بمغناطيسية تلك الأرواح، كأنه حبل. ذات عفة تلك القبل التي كانت تعني تعهداً بالموت، كنت تضيف للاحتفال شيئاً من الرهبة. بعدما جرحها الحب، كانت كل هذه الانفعالات تهزمها. مع كل قبلة، كانت روح قائمة تدخل، كأنها نفحة من إعصار، إلى كينونتها المنهكة. وانساب الدموع من عينيها، من دون ارتعاش، من دون تنهد. ومن حين لآخر تشعر داخلها باندلاع سيل من الكبرياء. كان قربها من محبوبها يمنحها القوة. لكن أرواحاً أخرى جاءت لتترك قسمها فيها، وأخرى وأخرى، وفاض الكائن الضعيف بالدموع مرة أخرى.

الصمت الذي أحدثه الموقف كان مهيباً، وأثار عواطف الضابط. كان جوهر تسامي حياتين يسري من قلب إلى قلب عبر السيف الفولاذي. واستمرت القبلات في التساقط في حضانة المحبوبة كقطرات من عطر مر. حياة تلو الأخرى، كانت كلها تتقدس فيهما. باسم الوطن، الذي كانت تلحظ عظمته، قبلت ذلك القربان من الحيوانات. كانت الشفاه ترتعش من المسحة وكانوا يتنفسون

حماسًا. كانت تصل لمرتبة القداسة بتلك الشجاعة التي يضعها أتباعها على صدرها كقربان. السماء بغيومها، والأرض بجبالها، كانا مذبح انتصارها. إن روح مثل هذه الأرض، ونور مثل هذه السماء، وإنكار الذات لهؤلاء المقاتلين، من شأنه أن يمنح الوجود للكائن المليح الرائع الذي سيولد من تلك العلاقة، والذي سيتجسد فيه المجد كضمان لذرية نبيلة.

كانت الشوارب الخشنة تחדش حرير السترة. كانت القلوب فائرة مثل أكواب ممتلئة في أيادٍ مرتعشة. وهتاف عاش الوطن! الذي انسكبت فيه، ساهم في انفجار الزئير والبكاء عندما قام القائد، بحركة حادة، برفع السيف المبلل بالأنفاس.

## سريناتا

ذهب شاعر الإقليم إلى الحرب مع صديقين.

كان أمامهم طريق طويل ممتلئ بالعقبات عبر الجبال، وبما أن العدو احتل كل الطرق، فقد كانوا يتحركون ليلاً بعيداً عنه، بينما يشحذون حواسهم. اقتربوا من أراضي آخر رب عمل لهم، وكان رجلاً يعمل له ألف حساب في أوقات أخرى، ووطنياً راسخاً، تحمل جبهته بلا معاناة ثمانين عاماً أكثر نضارة من رغبة الشلالات.

إن كانوا يحبونه لاستقامته، فقد كانوا يحترمونه لصدقه. كانت حقوله وثورته مصدر فخر للإقليم. كان الرجل يفتقد للأيدي العاملة الآن، فقد قام بعنق عبيده لكي يلتحقوا بالميليشيات، وكان معروفاً أن هذا العنق كلفه أكثر من أربعة آلاف بيزو.

وهكذا، لم يذهبوا بحثاً عن عمل، ولكن للاستيلاء على الخيول والإمدادات اللازمة للمعارك؛ لأنه وفقاً للخبراء، في زمن الحرب كانت هناك وفرة من الإسبان وأبقار الآخرين لابن البلد.

كان العجوز يقدر المغني كثيراً، وكان معجباً بشيئين على وجه الخصوص: الشعر والشجاعة. كان يهبه بقرة حلوباً عن طيب

خاطر مقابل أغنية، ويخفض مرتبة شخص من رئيس عمال إلى عامل بجوار نير الثيران بسبب خطأ تافه. كان متعصبًا للثورة، ولهذا تخلى عن شعار النبالة في لقب عائلته. وباستضافته للقوات، دمر علاقاته التي كانت مصدر قوته الأساسية.

على الرغم من أنه أصبح نزقًا بعض الشيء بسبب العمر، إلا أن مرحه كان مصاحبًا لقوته. كان يحتفظ بكل أسنانه، ولم يكن يسند وجنته بلسانه أثناء حلقة الذقن. على مدار عشرين ألف ليلة، كان قد قرأ بحماس لا ينضب كتابًا واحدًا: تاريخ شارل الأكبر وآباء فرنسا الاثني عشر.

كان يجلس فوق مقعده المصنوع من جلد البقر، ويغطي ركبتيه بالمعطف، حيث يظهر طرف حدائه ذو الرقبة العالية بينطلونه داخل الحذاء، ويسند رأسه من الخلف لكيلا يرهق عنقه، بالزعوط والمقص في تناول يده. كان يغوص بين الصفحات بأنفه ذي الهيئة النبيلة، والتي كان غياب الشارب يبرزها أكثر. وخلال ساعة تهدر الأبواق. كان أوليفيروس يشق الخوذات والرؤوس حتى الأسنان، وكان فلوريبيس يضمّد جروح جاي دي بوجونيا. ووردلان يكسر أعناق الوثنيين والعملاقة أميوتا تسير متباهية فوق جسر مانتيلي. بعد ذلك، عندما تسببت خيانة جانالون في الإصابة التي تركت رولدان محتضرًا، استدعى دوراندال: "آه يا سيفي العظيم، أفضل سيف تم صنعه!". شعر العجوز بغضب أعمى، ابتلت رموشه الضعيفة، وبحث في الصفحات، بعينين

غارقتين في الدموع، عن أخبار جديدة عن الإمبراطور الغائب.

ذات مرة وصف شخص ما القمص الحريرة التي يقرأها بأنها أحابيل ومضيعة للوقت. كانت إحدى تلك المرات النادرة التي رآه فيها الناس غاضبًا للغاية. اعتدل في جلسته فوق المقعد، كان طرف أنفه الشاحب مرتعشًا، وجفناه يرمشان بقوة.

- هل ما حدث للأدميرال بالام كذب؟ العملاق فارراجوس؟ كذب، أليس كذلك؟ هل تدركون أن أكثر البشر حكمة ومعرفة لا يمكنه أن يملأ كتابًا بهذا الحجم بالأكاذيب؟

كان غاضبًا، ويحطم بأظافره الطبقة الصدفية على علبة التبغ. كان شعر ذقنه الكثيف الأشيب يبدو خشنًا كأوراق الشمام، ونطقت شفتاه بالسباب المفضل:

- اللعنة على تريستان الشاب!

كان من بالمزرعة نيام منذ وقت طويل، لأن الليل كان منتصفًا. كانت الأغنام تتحرك من وقت لآخر في الحظيرة المجاورة، ويصدر عنها ضجيج خفيف على فراش من الفضلات. كان بعضها ساهدًا بسبب الرغبة في المعاشرة، والبعض الآخر نائمًا في هناء تام بينما يجتر العشب. كان القمر يملأ المكان في الليل، والصمت يبدو كبيت كبير حديث الطلاء. كان الناس مستلقين

في الفناء فوق سرائر وسروج. كانت بعض الكلاب تتجول في صمت حول النائمين، يتشمم كل منهم رأس فراش، ثم يستلقي بجواره. كانت الأبواب مفتوحة على مصراعيها، لتخلق تجاويف في العتمة بفراغاتها. تحت السقيفة، وبجوار الفرن، كان إناء الصابون يصدر البخار بين الحطب شبه المحترق حيث كانت الشحوم تتحول إلى صابون برائحة قلووية. كان حيوان ابن عرس ينساب حائماً فوق السقف بنعومة شريط حريري.

في أثناء ذلك، كان جيش من السحب يرتفع في الأفق. تكثفت الرطوبة في نقاط في السماء، حيث بدأ القمر في التحرك بعدما ظل ساكناً حتى ذلك الوقت. في تلك اللحظة وصل السائران إلى سور الفناء.

توقفا بجوار البئر وتناقشا بصوت خفيض. عندما تعرفت عليهما الكلاب، تقافزت حولهما بينما تلهث وتهز أذيالها. كان إيقاظ الناس في تلك الساعة تهوراً، لكن الميليشيات الريفية، التي تم جمعها في عجالة كبيرة، لم يكن باستطاعتها الانتظار.

حينئذ خطرت فكرة للمغني. كان صاحب المزرعة محباً كبيراً للشعر، وكان هو قد أتى معه بجيتاره، وكانت في جعبته بعض القصائد المفضلة لصاحب المزرعة. كانت قصائد وطنية تم نظمها بعد الانتصارات في توكومان وسالتا، للتعبير عما جاء في

رسالة من جوينشي، والتي تم العثور عليها في متاع تريستان، ويتحدث فيها عن إرسال سيف يجب إصلاح غمده. سيوقظان العجوز على نغمات الجيتار وأول سطور القصيدة، التي كانت أغنية وداع.

اتفقا على تنفيذ فكرتهما، وهكذا سيحصلان على خيول وإمدادات للرحلة. وخططا للتنفيذ بين الابتسامات تحت حواف قبعتهما. أخرج الجيتار الذي كان ملفوفاً في بونشو لحمايته من رطوبة الليل، وبحركتين رشيقتين كالنسيم، جلس الفتى القرفصاء وضبط أوتار جيتاره كالشيطان ليغني أغنيته. صدر صرير من المفاتيح، وانسابت غمغمة نغمة كعكبوت صغير على الأوتار، وبعد لحظة وصل المغني إلى الفراش حيث كان سيده ينام بأنفه النبيل متجهاً إلى السماء.

صاح ديك في تلك اللحظة معلناً عن انتصاف الليل، وبشكل غريزي رفع المسافرين عيونهما إلى القمر للتأكد من ذلك. وفي الأعالي نشب صراع صامت بين القمر والسحب. كانت أحجام السحب تتزايد وتتقارب كأنها غابة هائلة، بينما تنساب فوق زجاج زلق. كان القمر يطفو في منطقة خالية، ومقارنة بالبياض الناصع المجاور كان يبدو كأنه بركة سوداء. تشوهت هيئته عندما مر بإحدى تلك القمم الصخرية، ليكشف عن كتل من الفضة. وغاص في الوفرة الضبابية، ليظهر جزئياً وسط أبخرة داكنة، وغرق مرة أخرى، وانساب في النهاية نحو لانهاية

سماوية شائهة، متدحرجًا على حافة سحابة مثل لؤلؤة جليدية على منقار بجعة. كان المنظر يتغير باستمرار. كانت لون السحب يتغير تحت تأثير النور من الرمادي كالحمام إلى اللون الأبيض كالمغنيسيوم. كان الألق يزداد عند بعض الحواف ليصبح درجة من الأزرق الكهربائي، ثم يكتسي برقة مرتعشة من لون الأوبال الأزرق الشفاف. كان القمر يتراجع إلى منطقة هادئة في بعض الأحيان. لكن بعد قليل تهب بقع داكنة من الأفق، وعندما تقترب من القمر، تصبح نحاسية قليلاً؛ وتصل إلى شفافية الشبة، ثم تتحول في النهاية إلى اللون الأخضر حتى تمر أمام الجرم السماوي، ويضيء بعضها بلون فضي كالصقيع، والبعض الآخر يحافظ على عتامته بين مرايا من الزئبق الداكن.

كانت انهيارات جليدية ضخمة تندرج في صمت عبر السهول السماوية. وقمم أشجار بلوط رائعة تتلوى. كانت انبعاثات بيضاء تتجاوز الجبال المعتمة لكنها تتلاشى على الفور تقريباً وسط تمدد البقع الكبيرة التي كانت حركتها تؤدي لظهور تلك الجبال السوداء، ولسقوط تلك الأشجار الرائعة، وحمولات من الجليد التي تتراكم في طريق القمر بسبب انبعاثات في سطح السماء.

بعد ذلك، مال كل هذا الزخم نحو الأفق. غادرت الغيوم مضاءة باكتمال القمر مثل السفن غير المربوطة، ببطء مهيب، أو تغير هيئاتها أثناء تحركها. تجزأت عظمتها الهشة في رقائق متناثرة، وجدف القمر في كتل صوفية، في وحدته الرائعة عبر التقاء بحار

مضيئة، منتصراً كالعنقاء على ذلك التحول في الأشكال الذي كان الأفق يدفنها  
كأنه قبر.

حيى المغني على أربع حتى وصل في النهاية إلى سرير الرجل العجوز؛  
اعتدل ووضع قدمه اليسرى بجوار رأس الفراش، ومع الإيماءة التي وضع بها  
القبعة على مؤخرة رقبته، بدأت الأغنية:

يا ابن عمي، أرسل لك السيف؛

حالته ليست كما أود:

الغمد من توكومان

والنصل من سالتا.

فتح النائم عينيه بعدوبة، وابتسم للأغنية التي ترفرف حول رأسه، وأبقى  
يديه معقودتين، بينما ترتسم ابتسامة على أنفه. كانت ظلال السحب تمر  
على وجهه مثل خيوط العنكبوت. كانت القناديل تومض في الغرف، خلف  
الأبواب المواربة الآن، وصوت احتكاك نسيج التنورات يصدر مختلطاً بضجيج  
الأواني، وتهامس النساء اللاتي كن يرتدين ملابسهن في وقت إعداد مشروب  
الماتيه، كل هذا يحذر بالغ. في أثناء ذلك، واصل المغني:

محاطاً بتعاسات

بمصائب وأخطاء،

لا أرى سوى الموتى،  
ولا أجد سوى المرارة.  
أبناء هذه السهول  
يتمتعون بشجاعة مثيرة للإعجاب:  
أقسم لي بلجرانو، العظيم اللطيف،  
وهكذا يصح الأمر منتهيًا  
يا ابن عمي، أرسل لك السيف.

الآن أصبح وجه المغني مرئيًا بوضوح، حيث كان الطاعون قد ترك آثاره على  
وجنته. كانت عيناه حولوين، وشاربه الخفيف متناثر الشعر كمخلص. وكشف  
كُمًا قميصه المشمران عن ذراعيه المعروقتين؛ والبنطلون القصير للغاية،  
يكشف ساقيه من الركبة المتقشرة إلى القدم. كان ذلك الجسد مليئًا بالندوب.  
آثار منازلات عنيفة، ترك فيها المهزوم سمعته وأحشاءه على الأرض، ندبة بعد  
مغامرات شهيرة لسلب عشيقة من أحد القضاة، أو سلب زانية جميلة من  
الأصدقاء، أو إخراج أحد الوطنيين من الزنانة، حيث كان يتعذب في سجون  
القضاء. كانت ندبة كبيرة واضحة في الأنف تكشف عن أكثر مغامراته جرأة.  
وبما أنه لم يكن هناك باب آخر في غرفة نوم الفتيات سوى الباب المفضي  
إلى غرف الكبار، فقد عبر أحد هذه الأبواب زاحفًا، ليقترّب من عش الفتاة  
المنشودة في الظلام. وكان حريصًا للغاية لكيلا يمسك به أي كلب، حتى

ارتطم بأنفه بإحدى عوارض الطاولة. ونهضت العجوز على ضواء الارتطام.  
لحظات من المعاناة. لكنه استعاد شجاعته ووصل للمخرج بسرعة. ضم  
أصابعه ودق بقوة على عظام جمجمته، وبعد صمت قصير، صاحت العجوز  
المخدوعة: اخرج أيها الكلب! ونامت. وصدح الجيتار بالقصيدة الثانية بحرارة:

كل قائد يجب أن يكون بطلاً، أمام الرب؛

دياث بيليث أكثر بطولة من القنبيطور،

رودريجيث مثل شيطان؛

آراوز ورث الروح الحربية؛

ونجوت من فيجيروا جرياً،

وإلا فإنه كان سيقتلني...

أنا منهار؛ لم يعد كما أتمنى.

يا للكلمات الرائعة التي يقولها اللعين! كان يساعد معلمه القس في القداسات  
باللاتينية، وكان يقرأ له الكتب المطبوعة بحروف صغيرة. ولهذا التصقت به  
مغامرات بيدرو أورديمالاس، الذي كان يقرأ حكاياته باستمرار. كان يعرف الكثير  
من الصلوات عن ظهر قلب، وهكذا استهواه الرقص والغناء بينما كان يمزج حياة

المرح بالصلوات، حتى كسرت قلبه فتاة وكسر الجيتار على رأس ابن العمدة، وترك عمله في الكنيسة ليعيش في بهجة دائمة. عازف ممتاز، كان يعرف النغمات الخمس لضبط الجيتار المحلي. ماهر في الغناء، يتقن العزف، كشيطان في أغاني الجاوتشوس، بل وماهر في النغمات الثلاثية السريعة، وكلها صعبة، خاصة الجمع بينها. كان يحكي حيوات القديسين عندما يتحلقون حول النار، ويقلد طريقة كلام الحاضرين بإتقان تام. لم يكن هناك من يفوقه في المهارة والشجاعة، فقد كان يتقافز بمهارة سواء في الرقص أو للطعن بالمديّة. ويظهر دائماً متنكراً ليفزع الناس في السهر على الميث، أو يضع أوراق السنا في غلايات المشروبات، وخاصة عندما يفرط في الشراب. لكنه كان خدوماً للغاية، حتى وإن كان قد شرب مشروباً قوياً. ما بين القروض والوائم، كان مفلساً تماماً، لكنه كان يمتلئ بميل الفتيات نحوه والمغازلات. لم يكن هناك من يشبهه في التبرير لامرأة غيور أو إقناع فتاة تعرض عنه.

القادة فورست وسوبيري ودوريجو،

ويبيردريل وآلباريث وبيكو وثيلايا،

متوجون بالغار.

ومدينة بالكارثي تنفث النار.

أريالو، يعميه الغضب.

عنيذ في وطنيته.

أعطاني هؤلاء الضباط  
جرميماً لحماية ساقِي  
والآن يقول الملاعين:  
هذا الجرميقي من توكومان.

توقفت مسيرة السحب، لتتلاصق في كتل جليدية بيضاء، ومن خلالها  
كان ضوء القمر الشاحب يلف الطبيعة كأنما برماد خفيف. وتزامن تفاقم  
الصمت مع ذلك الشحوب الرمادي. اكتسى وجه العجوز، الساكن في نشوته،  
بذات شحوب السماء. وفي السكون الممتد لمئة فرسخ حول المكان، كانت  
الأغنية تنتهي بحكي مغامرات، على إيقاع النغمات الخشنة المناسبة من  
ذراع الجيتار كحبيبات ثقيلة داكنة، كأنها ماء يتساقط مغلياً على أرض جافة.

في النهاية، ذلك الفوج  
الذي يطلق عليه رقم واحد  
أعطاني درساً قاسياً. وأسفي كبير.  
لم أعد راغباً في الوجود،  
لأن وصمة العار ستصل حتى لوفائنا.  
الغمد من توكومان  
والنصل من سالتا.

مع الشطر الأخير، أبعده العجوز غطاء الفراش ومد يده للفتى. بحث عن ملابسه: الحذاء والمعطف، وذهب للمقعد.

أمر بعدم النوم في الغرفة. مشروب ماتي وسجائر للضيفين. وخيول ليرحلا في الفجر. خيول تحمل علامته. العلامة بالحديد الساخن، مجرد قضيبين ومطرقة.

كانا مندهشين من كل هذا الكرم، وشكراه عليه جزيلًا. سيحصل كل منهما على اثنين من هذه الخيول. كانا يعرفان العلامة جيدًا؛ شبكة من ستة خطوط، الثلاثة العمودية أكثر طولًا من العرضية. وبمحاذاة الخطوط العرضية خيطان. ثخينان. خط لكل ابن من أبناء السيد، وزوجة ابنه الأرملة، وبما أنه لم يكن هناك مكان للمزيد؛ لأن عددهم كان ثمانية، أضاف هيئة المطرقة. لكن العلامة المشهورة للعجوز، كانت العلامة الأولى. مجرمة بقضيبين حديديين ومطرقة... وضعوا السروج بعينين مغمضتين. لم يشغل السيد باله بكل تلك الأمور! تكفي مساعدته لهما....

- لا، لا. لتدهسه ثلاثة خيول ضعيفة! الوطن يستحق أكثر من هذا بكثير، لكن كل امرئ يقدم ما يستطيع. كان الجيران يصفونه بالبخيل. لكنهم مخطئون. كان أدري بأموره. كان ينفق البيزو بسخاء كنصف بيزو إذا تطلب الأمر، وبخلاف هذا، كان يخدع منفقًا النصف كأنه بيزو كامل!

ما زال كبار السن يتذكرون حفل عرسه. بل إنه جلب الزينة من مدينة بوتوسي. ورقص الناس وأكلوا في ساحة القرية حتى أترعوا طوال أسبوع. وعقد قداسًا مهيبًا للقديس سان إيسيدرو، ومسيرة قام فيها الراقصون بالتنكر على هيئة ثيران وأمتعوا الحضور. وقام ثلاثة من إخوته بترؤس القداس، وألقوا بالكثير من العملات عندما انتهى العرس.

كان العروسان على رأس موكب الزفاف، جالسين على حصان جميل الشعر، وكان لجامه مزينًا بسلسلة من الفضة الخالصة، وانطلق العروسان في الركن بينما كان المرافقون يصيحون بالهتافات ويلوحون بالمناديل والبونشو، وينزعون ريش ديوك حية للتعود من الخيانة...

تلقت العروس عبدة كهدية من أشقاء زوجها، واشترى لها العريس هدية من الأسمر صاحب فرقة الرقص.

الآن -بعدما أصبح عجوزًا- يتذكر بمعثة أمجاد الأيام الخوالي ولا يقتر في مدحها. وهكذا، عندما يدعوه الرب للحساب ويسأله: فلورنثيو، هل كنت سخيفًا؟ يمكنه أن يرد عليه: نعم يا ربي، لقد كنت سخيفًا.

- لكن الناس تثرت كثيرًا! يقولون إن الرجل الميسور فقط يمكنه أن يمتنع عن أي إسراف، ويمكنه أن يمنع الماء عن الفقير لكي يروي عطشه وألا يأكل البيض لكيلا يلقي القشر.

كان المسافران يديان موافقتهما بغمغمة موجزة تحفز تلك الفصاحة الليلية.

- إلى الحرب، أليس كذلك؟ قرار جيد! يجب على الذكر أن يحارب، أن يعتاد على المخاطر. آه، فائض من حمية الشباب، من الفتیان الأمريكان الجيدين الكثر، لإطلاق الحراب بقوة على هذه الجبال. مال... خيول... كل شيء، بل إنه يمكن أن يتبرع بقرط زوجته.

وكان يربت على المقعد، كأن ذكرياته تتملك منه، وانخرط في موضوع الفروسية. ألم يجسروا على قول إن الآباء الاثني عشر والإمبراطور مجرد خيال؟ ألم تكن تلك الأراضي تمور بالحركة حيث كان أوليفيروس ورولدانيس؟ حسنًا، حسنًا. لقد فكر في هذا ذات مرة: إن رولدان هذا يبدو مخلصًا من لقب عائلته!

في تلك اللحظة انقشعت الغيوم، وفجأة ابتسمت قمة جبل مقمرة من بعيد.

سيمدهم بالمؤن، عجينة تتخمر في الداخل، أجبان تفوح قشرتها المعتقة برائحة تنفذ عبر السلة. لكن في تلك اللحظة، كوب من العرقي المعتق. لم يكن هناك شيء يثير إعجابه مثل الشجاعة. الرجل الشجاع، حتى إن كان لَصًا، كان يثير إعجابه. كانت أهم فضيلة. بالفعل، رئيس الأساقفة توربين كان ماهرًا في

قطع رؤوس الموريسكيين تمامًا مثل ريكارت النورماندي...

كان رجال الميليشيات يشربون العرقي ويسمعون تلك الأسماء بدهشة كبيرة. لكنهم كان يحنون رؤوسهم احترامًا لاعتقادهم أن الأمر يتعلق ببضعة كولونيلات قدامى من معارف السيد.

واصل العجوز حكايته لأنه كان يرى في الموافقة مدحًا، فلم يكن يقبل أي تشكيك في تلك الحكايات الهامة. وكان قد أصبح خبيرًا بقصص الفرسان وشق الدروع وتحطيم الملابس المدرعة.

احترام وصمت من السامعين. على بعد آلاف الفراسخ، بعد عبور بحار كاملة وعوائق تاريخية، كان دوراندال يبث تحديات أسطورية وسط ذلك الجنون. كان ما زال هناك رصيد من السذاجة لتصديق هذه الخزعبلات الهائلة حول الفرسان الجوالين؛ وكان ذلك الشاعر المتمرد يشعر بها بشكل غريزي، حيث كان يجد في القصة شيئًا من الشجاعة الهائلة في تلك الألقاب والأسماء الفروسية.

- قد يكون هذا سخيًا، لكنه ليس مستحيلًا على الإطلاق. الآباء الاثنا عشر كذبة؟ يقولون له هذا، بينما الوطنيون ينتصرون في كل ركن على من هزموا رولدان.

الآباء الاثنا عشر كذبة؟ الجاوتشوس، وكل الناس، كم أود رؤيتك هنا يا شارل

الكبير!

تلاشت الأبخرة مع برودة الصباح. كان القمر يهبط مصحوبًا بنجمة،  
واستطالة الظلال تضيئ شيئًا ما من الكآبة على الأشياء.

عندما سُئل الغربيان عن أسلحتهما، أظهرتا مديتيهما. ابتسم العجوز، ودخل  
في صمت للداخل، ثم عاد بعد قليل وقال إنه آتٍ بهدية للمغني. اعتقد  
الرجلان أنها جرة من عرقي القصب، بسبب هيئتها وأبعادها، لكنهما كانا  
مخطئين. أخرج من اللفافة بندقية عريضة الفوهة من البرونز، وكان زنادها  
يصدر صريرًا تحت إبهام مالكها. وكان هناك قرن من البارود مع السلاح. وسيتم  
استخدام حجر الصوان الذي يستخدم في إشعال النيران من أجل المزيج،  
وبسبب عدم وجود رصاص، سيستخدمون الأحجار. لم تكن تلك البندقية مثل  
البنادق القصيرة المرهفة، التي لا يمكن تعميمها سوى بالخراطيش.

ذلك السلاح القديم، بصيرير صدئه في الماسورة، والغطاء الجلدي  
المخيط بالخيش في الكعب، كان يبصق النيران كالشيطان في حالة  
الضرورة. لم يكن أنيقًا بالطبع، لكنه كان ينبح بالموت مثل كلب مسعور.  
حينئذ كانت الخيول ترتعش في نطاق ألف متر. كان مرمى نيرانه  
العريض يغطي حيوات ثلاثة رجال. في شباب هذا السلاح، كان يتألق  
في المعارك مثل الجوهرة، ويقعقع نابه الحديدي بصوت نظيف لدى  
الضغط على الزناد وترتطم المطرقة بمفتاح الشرر، وعندما ينثر باروده مع

الخطر، كان يبدو كمزهريّة معدنيّة تتوجّها زهور تيوليّب نارية.

والآن بعدما أصبح بالياً، ما زالت قعقعتة مثيرة للربح. كان له اسم كلب، كان اسمه نياتو. لم يكن الأمر يتعلق بسلاح عادي. لم يكن يركل ولم يكن يعاني من طنين في أذنيه عندما يرغب في المعاشرة. عندما يكون فارغاً، يمكن استخدامه كالشومة. وعندما يكون معمرًا، يبدو أن المرء يحمل جحيمًا معلقًا في خصره.

كان يستأمن المغني عليه، فلم يكن عبثًا أنه يعرف أنه ماهر وذكي. ولم يكتفِ بهذا. لرغبته في وداع جدير بمكانته، سيهديه أيضًا بعض الحلوى من تلك التي كان يأكلها الآباء الاثنا عشر.

سعل بينما يضحك ضحكة متقطعة، حيث كانت أجفانه مغمضة بمكر أفكاره، وسرت غمزة من الشفة حتى الحاجب مثل دودة، وأمام عرفان الفتى المندهش، ملأ له القبة بالنقود.

## وداع

سقط العجوز من فوق حصانه في الحقل.

منذ احتل الإسبان مدينة خوخوي، شعر بالمودة تجاههم. كان يجول دون توقف، ويوزع المواساة على البؤساء، والوصفات على المرضى، ويقدم تقريراً للضباط الموجودين في الخدمة، ونكات ماكرة للجميع. عندما اقترب الجيش، وهاجر المهزومون إلى محافظة "سالتا"، ظل مقيماً كبقايا الحطام في كوخه في ضواحي المدينة؛ من جانب بسبب أمراضه ومن جانب لميله إلى الملك. كان يصاب بنوبات برد رهيبة يوماً بعد آخر. ربما كان يبالغ كثيراً بسبب تدهور صحته، لكنه كان يصر كثيراً فلم يكونوا يبذون مقاومة في تصديقه. في حالة الشك، كان يتذرع بالصمت؛ وكان أي اعتراض يخرس أمام شبيهه.

كان يركب على الحصان بينما يتأوه بسعال خشن مصحوب ببصاق لزج. وكيف لا! - لقد أصبح لأحفاده أحفاد. في شبابه كان يعمل كصائغ فضة، وحصل على شهرته لصنعه آنية لشرب الماتيه، والتي كانت مقابضها مزينة بعرف طائر حجل. من

الحقيقي أن الناس لم تكن تستأمنه على الحلي دون الكثير من الاعتراضات والتذمر؛ لأنه اعتاد على فصل الفضة عن المعادن الأخرى، وعلى الرغم من أنه كان يعيدها بهيئة ممتازة، إلا أن اللحم كان يظهر بعد فركها لأول مرة، لكنه كان يؤكد أن هذا يحدث بسبب اللعنات.

الآن، بعدما أصبح غير كفء، كان يصنع ملاعق من قرون الحيوانات وأوعية، أو يصبب أسنان الأمشاط. كان احترامه يصل إلى درجة الخجل. أن يتمرد الآخرون، ويفضلوا جنرالات بوينوس أيرس على جلاله الملك المقدس، كان هذا بالنسبة له بلا أي قيمة. لم يكن يتخلى عن قناعاته بسهولة. ولم الكذب! على الرغم من تأثيره بكل هذا الدمار بين أبناء وطنه، فقد كانوا يستحقون هذا لابتنزازهم رجال الأعمال الكبار.

كل هؤلاء الفتيان الرائعين يتعفنون فوق تلك الصخور! كل هذه الخيول سيقانها مجروحة حتى الموت. كل هذا الحصاد المهدر، وأسوأ شيء: كل هؤلاء الشجعان المتورطين في ذلك الصراع مع حقراء أبناء عاهرة. وهكذا كانت لديه أسباب لاعتراضاته وانتقاده لهؤلاء الصبية، المتشبهين بعناد بالوطن كأنه سيعطيهم أي شيء. ليعملوا فيهم السيف بحزم. بما أنهم لا يريدون العودة لصوابهم بالحسنى، ليكن هذا بالعنف.

هذه القناعات كانت تكشف عن حكمته وولائه، على الرغم من معاناته من نوبات بَلَه من حين لآخر. كانت فصاحته الغزيرة

تأتي متبوعة بالصمت. كان العرق البلاغي ينضب فجأة. لكن هذه الاندفاعات المفاجئة كانت تنتهي سريعاً، ويعزوها أصدقاؤه للهوس أو للمزاج السيئ. ملامحه، بلحية كثة كالمقشاة التي تتأرجح فوق وجنتيه، وبجلد مدبوغ، وبعينين كبيرتين كلبيتين، لم تكن تعبر عن أي شيء أثناء سكونه الذكي. ولم يعرف عنه الإخلاص للتاج قبل دفاعه عن الملك بحماقة.

كان أحد من خانوا الميليشيات الريفية قد أصبح رقيباً في قوات الأعداء. كان يحظى بتقدير رؤسائه، كما كان يتمتع بمودة العجوز، والذي كان سلوكه الشبيه يبرر خطأه. لكن الرقيب كان يعرف اسمه ويعرف جريمته، ومن أول لحظة شعر تجاهه بحنق مميت. كان مدينًا له بكل المنغصات التي تسبب فيها تجسسه، بعد بقائه في المدينة.

لم يكن تكليفه بتلك المهمة مجانياً؛ لأنه مثل الآخرين كان يطمع في غنائم الإسبان، لكن ذكائه وحنكته قاداه إلى ذلك الطريق الآخر. حينئذ، أطاع الأمر من باب الانضباط.

كانوا يفضلونه لأنه دقيق في تنفيذ الأوامر؛ لأن صرامته وصلت لدرجة أن أدنى سهو معه يؤدي لعواقب خطيرة. وفي هذا الشأن يشيرون لواقعة:

عندما اندلعت الحرب كان عريفاً في إحدى الفرق. ذات مرة

سافر القائد وكلفه بإعدام أحد السجناء في اليوم التالي. تبقى معه ثلاثة رجال، كان أحدهم صديقاً للمدان، وكان يدافع عنه. كان الهروب يبدو مستحيلاً؛ لأن العريف كان يراقبه بنفسه. كانت التوسلات بلا جدوى مع ذلك المحارب القديم الذي يتمسك باللوائح بأظافره وأنيابه. هكذا كان يجب الاستفادة من تلك الاستقامة.

طلب الجندي الحديث مع رئيسه على انفراد، لكي يستشيريه في مسألة ضمير.

- ما إن يطلع النهار سينفذون الحكم في ذلك الآخر. هذا أمر واضح. لكن هنا تكمن المشكلة. كان القائد قد أمر بشكل واضح بإعدامه رمياً بالرصاص، وهو ما يعني إطلاق النار عليه من بندقية. كيف سينفذون الحكم إن لم تكن لديهم سوى مسدسات؟

نظر العريف بشروود إلى ما يعلو الأشجار، مط شفته السفلى، بينما يחדش سيجارته بالخنصر. تظاهر بالحيرة لبرهة عن طريق الرمش ببطء. هل يعدمه بالرصاص في تلك اللحظة ذاتها لكي يتوقفوا عن التلاعب به والسخرية منه؟ تظاهر في النهاية بأنه قد فهم الأمر وهز كتفيه بإذعان وقال:

- أنت محق. هذا سيكون رميه بالرصاص بالمسدس.

بعد ساعتين، كان مبعوث ينهب الطريق لكي يطلب من القائد تفسيراً أو حلاً. وفي تلك الليلة ذاتها، تم العفو عن السجين، ليتم الاعتراف لغويًا بذلك الفارق الفريد.

في مقابل صلابته العنيدة إلى حد ما، كان الرجل يخفي شيئاً من الحيل الماكرة. كانت قبعته الشبيهة بقبعات العفاريت الأطياب في قصص الأطفال تضيء عليها شيئاً من الطيبة التي كانت تزداد في حضور المنشق، وهكذا كان يسيطر عليه بينما كان يحتقره. كان شاربه الكث البازر وسط ذلك الوجه يضاعف من مرارته. وكيف كان اللعين يمسده بعناية! وكيف كان يعتني به! كانت تلك الصبانية تثقل عليه لدرجة أن كل حنقه قد اتجه في النهاية نحو ذلك الشارب.

كان الجيش سيتحرك عندما تعود الوحدات التي خرجت في السعي وراء مؤن. وحينئذ ستنتهي مهمته، وانتهز تلك الفرصة ليودعه بمزحة لا تنسى.

بعد تفكير مُضنٍ، نجح مكره في الوصول لحل: كان قد اكتشف أن الخائن لاعب ماهر لألعاب الحظ كالورق والند، وبث فيه حينئذٍ للعب. تذكر خيولاً سريعة كالضوء، تجري كيلومترين في لمح البصر، وخيولاً أخرى تسبق طلقة رصاص تصل لمسافة

فرسخ. هل سيوافق القائد على سباق بأربعة ريات لإشباع هذه الرغبة في الرهان؟ هو، بحصانه ذي البقع البيضاء والسوداء غير المنتظمة، سيقدم على هذا؛ لأن التسلية ستخفف عنه الأوجاع والمصاعب. بالإضافة إلى هذا، فإن حصاناً عجوزاً ضعيفاً كهذا، ربما لن يركض. يمكن لأي حصان تافه في البراري أن يفوز عليه.

الشروط؟ هذا أمر يسهل تدبيره. إن لم يضايقه أي حيوان أو شخص في السباق، قد يتألق. وإن لم يحدث هذا، سيقضون وقتاً ممتعاً، وهذا أمر طيب بالنسبة له أيضاً. في نهاية الأمر، لا فائدة لأي حصان عجوز سوى هذا. أين سيذهب الثور الذي سيحرق!

لم تكن هناك آثار للمتمردين في المناطق القريبة. ولكن، من أجل عدم المخاطرة، يمكنهم التسابق في المرعى، باتجاه الشمال، أي بالاتجاه من أعلى إلى أسفل المنحدر، كأنه سباق للحمير. لم تكن هذه الخيول قادرة على القيام بما هو أكثر من هذا.

وأخذ يعيد ويزيد بمعسول الكلام حتى شعر الخائن بالغواية والطمع. حصل على تصريح بعد الكثير من المزاح. أبدع العجوز في الإقناع، حيث حمس الجنود وتملق القادة بمعسول كلامه.

كان الجميع سيلعبون، وهو أيضاً، إن ساندته القديس سانتياجو، راعي السباقات...

أصبح معجوزاً بالخداع مع الخائن على الأخص، حيث كان ينظر له بتفاخر مازح. سيفوز عليه بينما تكون الشمس في مواجهته

ومن دون سوط. لهذا لا يجب أن يحلم بالفوز عليه بحصان ضعيف كهذا  
الحصان ذي الشعر الأبيض والأسود الذي اختاره.

بالفعل، كانت الخيول مبرراً لأي مزحة. وحصانه ذو البقع البيضاء والسوداء  
غير المنتظمة، بأذنيه المشعرتين، وذيله الأشعث والشعر الطويل فوق  
حوافره، كان يبدو أكثر الحيوانات بؤساً. مع ذلك، فإن جلده الذي تغير حديثاً،  
على الرغم من تغطيته بالغبار عمداً، وحيوية عينيه، ونحافة بطنه، كانت كلها  
تفضح الغش. لكن الفرسان قليلي المهارة لم يكونوا يفهمون أي شيء من  
هذا، واستغل الوغد العجوز هذا الجهل.

كان ذلك الحصان هو "رصيده"، وكان مؤهلاً لأن يكون معه في أي واقعة.  
سريع، كثير التحمل، وبحوافر سوداء تتحمل الأراضي الوعرة. كان ينظفه  
بعناية كل يوم، بل إنه قام بوضع علامة ثانية على جسده، حيث قام بتسخين  
حلقة اللجام ثم وضعها على نسيج مغطى بالشحم، ليحول علامة الهلال  
إلى درع. وفي الوقت ذاته كان يتشارك معه طعامه وشرابه بأخوية. وعلى  
الرغم من أنهما لم يكونا يتحدثان، إلا أنهما كانا يتفاهمان بحركات الجسد  
والصيحات.

كان يكرر طقس المشاعر ذاك في كل مساء. كان الرجل  
يدخل الحظيرة بالعلف والدلو في يديه. كان الحصان يحييه

بصهيل خفيض، بينما تكون أذناه منتصبين وترتعش شفتاه الممطوطتان بخفة. وعلى ضوء سماء رمادية، حيث تلمع نجمة وحيدة، كان الحصان يمضغ شعيره بإيقاع منتظم، بينما يغوص العجوز في ذكرياته، بوجنته مستندة إلى ذراعيه المستندتين إلى سرج الحصان. كانت كآبة الغروب تتغلغل في روحه ببطء مثل خيط من الدخان، وتتهادى أفكاره على إيقاع مضغ الطعام من الجوال. كانت بعض الحباحب تومض في حقول الذرة. العطش المروي من المزود تحول إلى بخار مهدئ، بالكاد تصحبه حموضة خفيفة. ماء الدلو، الذي كان يعكس بريق النجوم، كان متموجًا مثل قطعة صفيح داكنة مطلية بالفضة. كانت مجرة درب التبانة تنثر في الأعالي نورها الغزير كنبع متفجر. وبينما كان الرجل يراكم أفكاره، كانت قمم الجبال القريبة تمتلئ ليلاً.

كان العجوز يتمشى بحصانه بينما يتذكر هذه الأمور. كان المساء يسقط في نور دافئ، ويصبغ السماء بلون السيانيد. كان السهل محاطًا بتلال كثيفة الأشجار، وفي نهايته تنهض سلسلة الجبال مثل كتلة هائلة من الحديد المصهور. كانت هناك سحابة تميل ناحية الشمس، لتصبح أثناء هبوطها رقيقة السمك مثل الطحالب البحرية. كان إناء مستند إلى جدار بعيد يجذب كل النور في نقطة متقدة للغاية، فيما يشبه قرحة حارقة مترعة بالأشواك. كان الجنود يتواترون على ساعة الترفيه بينما يرتجلون

خيامًا بمعاطفهم.

كان العجوز يتحداهم بسخرية حادة كالطعنات أثناء مروره. ماذا؟ ألا تغامرون بأوقية واحدة فقط؟ وعرض أن يرهن معطفه الصوفي الذي بهت لونه بسبب عمره المديد. لا تكونوا جناء! لنر هذه النقود!

ابتسم الجنود بمرارة... اللعب؟ لم يتبق معهم حتى الأنفاس!

أي فارق بين هذا اللهو وحفلات الأوقات الغابرة. تذكر المتمرد سباقات متلائة بالشمس في أمسية كهذه.

كان الحضور يعج بالصخب بينما تصل الخيول. أكثرهم توترًا لم يترجلوا، كانوا ينتقلون من جماعة لأخرى ليتلقون الأخبار. يسمعون ويحكون الذكريات. آخرون، تحت عربة مقلوبة لارتجال حانة في ظلها، كانوا يرقصون مع العاملات في الحانة على نغمات الجيتار وقعقة زيت القلي. وبعيدًا، كانت هناك لعبة نيشان بعظام الشياه:

من يرمي! من ينتظر! حان دوري!

من يحين دوره للرمي كان يقف بتركيز، بركبتيه شبه مثنيتين، يمسك بالمعطف بيسراه، بينما يحمل قطعة العظام في يده اليمنى ويحرك ذارعه إلى الأمام وإلى الخلف. كان يتحمل الصخب ببرود، بينما يقوم أحد مناصريه بتسوية المكان الذي يجب

أن تسقط فيه قطعة العظام لتترك علامة على الأرض. وانتهت المراهنات أخيراً. كان اللاعب يمسح يده اليمنى بالغبار، يلقي قبعته إلى الخلف؛ يضم ساقيه قليلاً... ويرمي بكرته. إن أصاب، تنطلق التعليقات. وإن تقدم خطوة أثناء الرمي، تنشب النقاشات. وإن أخطأ، تأتي التبريرات:

بالطبع! من سيلعب النيشان بعظام المؤخرة؟ وعندما تصل الخيول، أي صخب في حلبة السباق! كم من المراهنات تدعو للتحدي بحففات من الشطائر المقلية.

أي فارق بين تلك الاحتفالات الماضية وهذه المسابقة البائسة!

وتقدم الحصان ذو الشعر الأبيض والأسود بدوره. تم خلع السروج دون طقوس أو رسميات. وخلق حذاءه في غمضة عين، أحكم ضبط نطاقه، وبعد تمسيد شاربه الكث ففز فوق الحصان. أتم العجوز استعداداته بهدوء مثير للتوتر. استغرق دقائق كثيرة في ربط حزام مهمازه الحديدي. كانت ابتسامة ساخرة تسكن وجنتيه لاستمتاعه بنجاح خدعته. كان يسخر من الخائن بجسده مائلاً للأمام.

- لمَ تمتطي مهرة؟ من يفعل هذا لا ينجح في مسيرته العسكرية مطلقاً. فيما يتعلق بالسباق... باه! كان يحمل في نطاقه خمس أوقيات ذهب ويراهن بها على السباق.

كان غريمه يمسد شاربه بتوتر دون أن يرد. في النهاية امتطى

المنشق حصانه.

كان عريفان نظاميان يقومان بدور حكمي الراية، وكانا على شيء من الدراية بالأمر. وقفا في مكانيهما وقفة عسكرية، في حالة تقمص تام لدوريهما. أخذوا يفضان التجمعين ببطء. كان العديد من الضباط يصوبون نظاراتهم المكبرة على المتسابقين. كان كولونيل يدخن منتصب الظهر فوق بغلته. كانت سحب صغيرة تظهر من حين لآخر فوق حواف الحلبة. كانت بعض الأعشاب العالية تعلو الخطوط التي تحدد الحلبة.

بعد تراجع الحر الخانق، كانت بعض حشرات الزيز تنز على الأشجار. كان قرص الشمس يختفي في الأفق. والسحابة عندما مرت على حافته اكتست بلون نحاسي متقد، ليتبدل بعد ذلك إلى لون شائه، يجمع بين الأصفر الداكن الذهبي ولون الصدا الأحمر كأنها فرع كرم خريفي.

قاد المتسابقان حصانيهما بهدوء إلى الحلبة. رعد قصير، سحابة غبار... الجولة الأولى. وتوالت الجولات، وبدأ فارس الحصان ذي الشعر الأبيض والأسود في الشعور بالخطر عندما لاحظ تفوق غريمه. في النهاية سيرهقه بالركض عديم الجدوى.

كان العجوز قد حاز تفوقاً ملحوظاً. استعاد شبابه في الصراع، ولم يعد يلهث عند ركوبه، ولم يكن يجبن كمصاب بائس. كان ينزل لترطيب حصانه بعد كل جولة. ومن دون عناء، يثير حماسه

بحركات مبهجة، ويمتطيه مرة تلو الأخرى.

كان الحصانان يبدآن من جديد بعنقيهما منحنيين، ويلتھمان الحلبة في منافستھما. والرجل الوطني، الذي بعثت غريزته العسكرية بينما يتحكم في حركة هذا الجسد المرتعش، كان يخترق بعينيه الغابة المواتية للحيل والشراك، ويتعد عن منافسه الذي يسير خلفه، بينما يستنشق جرعات من ذلك الهواء الجدير ببلد حر، الذي كانت الأشجار والتلال ترسله مع نسيم المساء.

تصلبت أصابعه بين اللجام وبصر نافذ. تحول كل غضب الحيوان إلى رغبة في الإسراع للانتصار في السباق، في الأراضي المفتوحة، حيث كانت الجبال تصطف إلى جانبيه. كانت السحابة الحمراء، في الأعالي، تنذر بهجوم وشيك. كان لونها الأحمر المائل للبرتقالي يلمع مرتعشاً فوق طبقات ذهبية في تشكيل يشبه ثمرة طماطم مشقوقة، وبعد ذلك يتحول إلى لون أحمر بلون اللحم، وفي القاعدة لون قرمزي مرتعش عندما تتلاشى في الشمس، تتقد انفجارات الألوان كأنها تتويج.

وجهاً لوجه مع الرجل، كانت سلسلة الجبال تبدو خندقاً. كان الجاوتشوس يدافعون هناك عن حدود الوطن بنصال الحراب، وهناك يقيم الهنود المخلصون بعيونهم الساهرة ومقذوفات أحجارهم المرعبة وذخيرتهم من الرصاص. كان قلبه يقوده إلى هناك بغصة مؤلمة مقبضة.

استمرا في جولات السباق. كان المتفرجون على الخط يشعرون بالضييق بسبب كل هذا التأخير، وطلبوا أن يواصلوا. أبدى الرجل العجوز اعتراضه، لأن حصانه كان غارقاً في العرق بالفعل. هذا الاحتيال ينتهك ما تم الاتفاق عليه، بإطالة السباق لأطول وقت ممكن.

في النهاية كان الحصانان متعادلين. انطلقاً في الركض، بسرعة متوسطة، دائماً متحاذيين، الوجنة فوق العنق تقريباً، السوط إلى أعلى، حيث يتماوج في الهواء

ضربا بالسوط في الوقت ذاته. كان هذا مثل برق أسود هائل.

مرا وسط سحابة من الغبار وتسابق سريع لقوائم الخيل، ليجعلا الحصانين كالمُدَى الخاطفة في انطلاقهما.

وصلا أمام حَكَمِي الراية، وكان الحصان ذو الشعر الأبيض والأسود يرفع قائمته الأماميتين ويدور وسط هتافات بالنصر، عندما هجم عليه الرجل الوطني بشكل مفاجئ وركله بطرف قدمه. قاد حصانه إلى المعركة. انطلق إلى المكان سقط فيه الخائن بوجهه إلى الأرض، وبعد صراخ من الخائن، امتطى حصانه مرة أخرى وانطلق هارباً، وكان يلوح بين أصابعه بخصلة من الشارب.

اندفع الجنود الإسبان، الذين بوغتوا، لإنقاذ زميلهم. كان البأس مستنداً إلى مطيته، بينما تتحرك عيناه بفرع. كان الدم ينهمر في شلالات من فمه المشقوق. كان القطع يكشف عن أسنانه، بذات رعب العقاب الذي بتره، كان يضحك ضحكته الدامية التي لا تنمحي.

في أثناء ذلك، كانت سحابة صغيرة من الغبار في التلال تفضح هروب المتمرد، الذي أصبحت قبعته تتزين منذ ذلك اليوم بشارب الخائن.

## عقاب

كانوا ينتظرون وصول فرقة من جنود المملكة بين لحظة وأخرى، وكانت تنهب في طريقها باستمرار أكثر القرى الوطنية نأياً، على حدود محافظة تشاكو نفسها، وكانت تتجه إلى القرية التي يصعب الوصول لها بسبب الجبال والأمطار.

كانت الأمطار تهطل بغزارة، حتى أغرقت أكثر الأماكن منعة حول القرية الصغيرة. كانت تغرق الحقول القريبة، وتترك بيوت الضواحي فيما يشبه البركة، دون أن يوقفها أي شيء. في ذلك العصر سقط المطر في عاصفة عنيفة، بينما كان هناك حر شديد ينذر بالشؤم.

كان القس والعمدة هما أكثر سكان المنطقة مكانة، وكانا منزعجين للغاية من العاصفة، لأنهما كانا يمثلان الملك الذي يبجلانه تبيلاً مثالاً، وبحكم منصبهما، كانا يحتجزان في مصلى الكنيسة ستة شيوخ من الوطنيين الذين منعتهم أمراضهم من الالتحاق بالميليشيات الريفية. كانت الميليشيا، التي تتعاون مع الحملة بدورها، تحوم بعيداً حسب إخبارية تم تلقيها في ظهر

اليوم السابق، ولكن نظراً لسرعتها التي يضرب بها المثل، يمكنها أن تظهر أمام الباب في أي يوم، ومكافأة لولاتهما سيتم تعليقهما من المشنقة.

كان ذلك الرسول هو الناجي الوحيد من الإبادة التي تعرضت لها طليعة القوات الغازية في الأسبوع السابق. كانت تلك القوات تتقدم عشوائياً في غزوها، وحدثهم بعض الهنود الذين تم الإمساك بهم في الغابة عن قطيع كبير من الأبقار، والذي كان الوطنيون يمتلكونه في مكان غير بعيد، دون حراسة تقريباً، لثقتهم بسرية الأمر والمسافة، لكن لم يكن هناك طريق. كان عليهم الإبحار حتى منبع نهر قريب، حيث عرضوا التجديف في قواربهم. دون التدقيق في صدقية الحكاية، قرر القائد، ذو العينين المليحتين وسط ملامح رائعة، الانطلاق في المغامرة متجاوزاً كل القواعد.

كانوا يسافرون نهاراً فقط؛ لأن النهر الهائج كان يتحد بمستنقعات شاسعة يزداد خطرهما في الظلام. في الليلة الأولى، حاول أحد المجدفين إزالة الأشجار الجافة بينما يقفز من فرع إلى فرع، لكنه اختفى وسط صوت ارتطام مروع بالماء. التهمته التماسيح كما قال رفاقه؛ لأنها كانت تملأ المستنقع.

كانوا يجدفون عكس التيار، ويسحبون في الوقت نفسه قاربًا بمعداتهم، لهذا كانوا يتقدمون ببطء، لكنهم تأخروا كثيرًا في الشك في أن المرشدين كانوا يدبرون لهم شركًا. كما قالوا، كانوا يتوقفون باستمرار للصيد تحسبًا للتأخير المحتمل، وكانوا ينخرطون في نقاشات طويلة بلغتهم، مما أثر على سرعة الحركة، وعندما طلب منهم التوضيح، كانوا يتفادون الرد بشكل قاطع. عقابهم سيفسد الأمر برمته، وسيؤدي للقتال أو الفرار؛ ولذا قرر القائد، رغم قلقه الشديد، أن يراقب أثناء الليل، وامتنع عن أخذ الأمر كأمر مسلم به.

في اليوم الثالث، مع حلول المساء، توطدت الشكوك. بكل وضوح كانوا تأنهيين وسط شبكة من الخلجان الضحلة المتشابكة، خارج أي قناة صالحة للملاحة، تحت الصمت الكئيب للغابة الغارقة. لم يكن هناك سوى طائر حزين الصوت، ويزقزق من حين لآخر، دون إيقاع منتظم، بعيدًا على فروع الأشجار السوداء. كان التجديف يصدر من الماء فقاعات ذات غمغمة حزينة؛ وعضات البعوض تسخن الدم إلى درجة الغضب، وبخار ذو دفء لاذع يغرق اللحم في رخاوة من التعفن، وينثر الحمى بمذاقه اللاذع الفطري. وهكذا حل الليل، وهكذا رسوا، بينما يتحكمون بالكاد في مخاوفهم وتوجسهم، كما لو كانوا مدفونين تحت اتساع الغابة المخيف التي يجعلها الليل أكثر كثافة، والحر الخانق في الجو.

كانوا يتوخون عدم إظهار الخوف تحت عباءة الصلابة الوحشية والكبرياء  
الإسباني. بينما يعانون من توتر يلتهم أعصابهم ومشاعرهم.

لكن بعد قليل، تنازل رئيس القبيلة في النهاية عندما سئل ليعطيهم إجابة  
لأول مرة. نعم، لقد حادوا قليلاً عن الطريق، لكن لكي يبحروا في أقرب وقت  
في الماء منتهزين المد. ما زالوا في الطريق الصحيح، وفي اليوم التالي، في  
وقت مبكر، سيصلون بالقرب من الوطنيين. بعدما قال هذا، ألقى نظرة على  
رجاله، لملم جسده في قاع زورقه ونام.

لم تأت كلماته بتأثير، على الرغم من الثقة النسبية التي كانت تفيض من  
خطابه. وأمضوا الليل مستيقظين، لكنهم كانوا مجبرين على هذا إلى حد ما،  
بسبب الخفافيش التي تلمس رؤوسهم أثناء طيرانها، كاشفة عن شعر كثيف  
مقزز.

طلع النهار هادئاً، بفجر ناصع الألوان. عندما أمسك الهنود بالمجاديف،  
كرر رئيس القبيلة تأكيدات بابتسامات بها شيء من الغموض، والتي انتقل  
تأثيرها على الفور على وجوه رفاقه الذين كانوا يضاعفون من قوة الدفع.  
بدا أن هذه الإشارات تبشر بالنهاية الموعودة، وطفت لمحة من البهجة على  
وجوه الملاحين الشاحبة المكروبة.

عانوا كثيراً من برودة الفجر، وكانت عيونهم محترقة بسبب السهاد. تأملوا  
الفجر المهيب على المياه بدهشة صامتة.

كانت الغابة ممتدة إلى الأفق فيما يشبه خليجاً وحشياً معزولاً، تحده  
أشجار كثيفة قائمة منيعة. لم تكن هناك تجعيدة واحدة تخدش ققامتها  
الكريستالية، وكان طائر مالك الحزين واحداً يقف على سطح الماء ويزيد  
من حزن المكان. كان سطح الماء، المصقول كحجر لامع عاكس كالمرآة،  
يمور بلون داخلي كالقرميد الذائب، ويصبح أكثر عنفواناً بلون بنفسجي  
كخبث الحديد، ثم يتحول إلى رمادي مائل للحمرة. كان الشرق متوجاً بكتلة  
من الضباب الداكن، والتي يحيط بها نطاق أحمر، ويبدو في انعكاسه على  
سطح الماء، في المكان النائي، بلون الصدأ. كانت السماء متقدة بشفافية  
بلون الكريز حتى الأعالي. وفوق العلامة التي يتركها القارب تموجت المياه  
بخطوط رفيعة، وصبغت الشفافية الداكنة للمستنقع بلون بنفسجي، وفجأة  
بزرت الشمس كاملة، بينما يتهادى الضباب كدخان وردي صادر من ألعاب  
نارية.

في تلك اللحظة، زفزق طائر المساء السابق مرة أخرى، لكن في هذه المرة لم  
يكن على الأشجار وإنما في القارب نفسه. وبعد الزقزقة الشبيهة التي صدرت  
كرد من الأشجار الكثيفة، خرجت سحابة من السهام من الغابة قبل أن يتحول  
اليقين من وقوع الخيانة إلى أي فعل من الجنود الإسبان. وظهر سرب من

المحاربين الزاعقين بالهتافات فوق الأشجار وداخل الماء الذي كان يصل حتى صدورهم. كانت وجوههم مطلية بعلامات الحرب، ويطلقون السهام من أقواسهم أو يطوحون بالعصي، حيث كانوا يتحركون بسرعة بينما يضحكون بقهقهات قاسية يحيلها الكريستال الكوارتز المعلق من شفاههم إلى صيحات مشؤومة، وفي أثناء ذلك كانوا يمطرون ضحاياهم بالسهام المسمومة دون هوادة.

اصطادوهم في الماء، بالعصي الغليظة والسهام. الناجي الذي جاء بالخبر كان يبرهن على حكايته بكوع محطم أثناء العراك.

دفعت قسوة هذه الحكاية القس وصديقه لفحص أصفاد السجناء بصرامة بالغة ليلاً ونهاراً. كما كانا يوقعان بهم العذاب لإضعاف قواهم. لأنهم بالطبع كانوا يخططون للفرار وارتكاب الفظائع، وبما أن الأمطار كانت تنهمر على سقف الكنيسة، كان الأمر يتعقد بخوف جديد.

كان القس يعظ السجناء دون جدوى، وكان الآخر يحاول إرهابهم لكن فشله كان أكبر. كان الجاوتشوس يتذرعون بحكمة شيخوختهم، ويتحملون العذاب بصلابة، دون أن تصدر عنهم آهة واحدة...

كان هناك معاملات دائمة بين السجانين، لأن أراضيهما كانت متجاورة، ليشكلا شراكة لا فصام لها. لكن الرأي العام كان يفصل بينهما تمامًا؛ لأن أهل المكان كان يتغاضون عن إخلاص القس للتاج الإسباني بسبب منصبه وشيء من الشعبية، لكنهم كان يحتقرون الآخر في صمت.

كان متعجرفًا كارهاً للبشر، ويثير الحسد الذي يصل لدرجة البغض بسبب المفاخر التي يتباهى بها. كان يتاجر في العبيد، حيث كان يرسلهم إلى بيرو في قوافل كبيرة. أو كان يؤجرهم حسب مهنتهم إلى أغنياء المنطقة عندما لا يعملون في ورش قصره، حيث يتم العمل في كل شيء، من الخياطة حتى زراعة الخضروات. وكانت قسوته تخضع لهؤلاء المساكين، حيث لم يكن يقدم لهم سوى الطعام وضربات السوط. كان تحميم أقدامهم أو وضع ملح في جروحهم من بين العقابات الشائعة. وتم استخدام علامة الثيران لوسم أكثر من واحد. ويقوم بالاعتداء على الفتيات الصغيرات في فراشه فور أن يبلغن.

فقد كان يعتقد أنه وسيم جذاب على الرغم من الشيب في سوائفه وأسنانه المسوسة السوداء. كان الشعر المستعار والخصلات المتناثرة فوق صدغيه لا يخفيان صلعه جيدًا، لكنه كان يحل الأمر بقبعة ثلاثية الزوايا متوجة بريشة لافتة للنظر. كان يستخدم بذلته الرسمية كل يوم، ويغطي شعر جسده الغزير بالسترة والبنطلون القطيفة والذي يثبته على ساقه بمشبك فضي

كبير، وحذائه ذي الإيزيم من التوباز والربطة الكبيرة. لكن على الرغم من ثرائه الفاحش، فإن بخله كان يجلب له الاحتقار. كانوا يخضعون لسلطته، لكن بتذمر.

كان يتحدث في ذلك العصر مع القس، وكانا منزعجين للغاية من تأخر القوات. كانا أمام البيت الفخيم، حيث كان حصانه المزين بالفضة والقطيفة في الزاوية ينفث أنفاسه بنفاد صبر على اللجام الفضي.

كان كل من الميليشيات الريفية والمخلصين للتاج الإسباني يعانون من ذات الشح، دون أن يتأثر حماس الوطنيين. التعصب، الضغائن، الهلاك، كل هذا ساهم في مثل هذه اللعنة.

لم يكن هناك صوت خطوة واحدة في المناطق المحيطة ولم يكن هناك شخص واحد في الشوارع. كانت الكنيسة -على الرغم من أنها كانت على الجانب الآخر من الساحة- تبعث بروائح الروث التي كانت الرطوبة الدافئة للهواء تجعله أكثر نفاذاً. كان عبدان يحرسان المدخل، ببنادق قصيرة معلقة على كتفيهما. ظهرت وجوه بعض كبار السن، وكانت لحاهم الكثيفة لا تكشف عن أي تعبير، كانت عظام أفكاكهم مصفرة مثل كعوب المتوفى في العتمة الكهفية التي تغمر الكنيسة؛ وصوت متحشرج، صوت سجين تعاطفوا معه.

نكران جميل أبدي. تصدر من الداخل نغمة جبلية، بينما تصاحب الأصفاد  
الغناء بدقات حزينة.

كلهم كانوا مثل هؤلاء. هل ترى مثلهم في التحمل؟ وقال القس إنه في  
ذلك الصباح، بينما كان ينتقل بين البيوت القربية ليقدم الدعم الروحي لمن  
تضرروا من العاصفة، التقى بالعجوز خيرتروديس، التي كانت تعمل كساحرة  
وطبيبة في الوقت ذاته، وكانت تطبخ في موقدها المغطى بالسخام طعاماً لا  
يعلم كنهه سوى الرب. وعندما ذكر الكنيسة وعندما لعن الجحيم لكي تتحرر  
هذه الروح الشاردة من الشيطان، أخذت في التجديف بكلمات رهيبة، بينما  
تصطك أسنانها الأربعة بغضب، وتتحرك كأنها ملبوسة بالشيطان. هددت كل  
جنود المملكة الإسبانية بتعويذات شريرة على سحالي مجففة معلقة من  
حبال، وهتفت للوطن بحمية شيطانية. هكذا يفسد السكان. التهاون مع مثل  
هذه الأمور كان يشبه تربية الغربان...

في تلك اللحظة دوت ضربات عصا على أرض الشارع، وظهرت المرأة  
العجوز أمام عيونهما كأنها قد نبتت من الأرض.

تحت رداؤها الممزق، كانت ساقاها ترتعشان بتورم دام بسبب  
الاستسقاء. كان شال مملتئ بالعثَّة، فيما يبدو من يركات المقابر،  
يغطي رأسها وكتفيها، متداخلاً مع منديل تظهر منه خصلة قدرة.

كان جسدها منحنيًا كالعادة، ويداها المترهلتان كيدي الضفدع تمسكان بالعصا. كان يبدو أنها تتجشأ ولا تتكلم، بتهتهة طفل، كلمات غير مترابطة، كانت على حال من التدهور المقزز.

-... كيف تغير حالهم... كانوا حسني المظهر! المساكين الشيوخ الوطنيون مسجونون كاللصوص، وفتيان الوطن يعملون كالحوانات. كانت قد جاءت لتطلب الحرية لهم -كانوا رجالاً مثل أي شخص آخر، ولا يؤذون أي شخص- وإذا لم يمنحوها ما تطلب، فسوف تشكوهم لرب السموات نفسه. ليتوقفوا عن تدنيس الكنيسة بتحويلها إلى حظيرة. ألا يرهبهم مظهر تلك الغيوم المحملة بالنار، والتي يمكن للعناية الإلهية أن توقع بهم عقابًا هائلًا بواسطتها.

احتجبت السماء خلف السحب مرة أخرى. امتلأ العصر بضوء صامت محمل بسحب ذهبية. ظهرت سحب أخرى، تتراكم إحداها فوق الأخرى مثل أكوام كبيرة من القش، وشمس الغروب التي مسحت آفاقهم بلمحة من المرارة، أضاءت القمة الثلجية للجبل القريب. وفي الطرق المعتمة، كانت الزهور البيضاء في فروع متشابكة على الأشجار. كانت هناك شجرة حور قريية من المجموعة، وكانت أوراقها المتشابكة كدرع فضي ترتعش بهمس خفيف، ولم تكن هناك أي حركة أخرى وسط هذا السكون الهائل.

وساد الصمت بعد كلماتها. المرأة العجوز فقط استمرت في

طرد الأرواح الشريرة، بين الدعاء واللعنات:

-...كيف تغير حالهما... كانا حسني المظهر!

بالفعل، كان الصديقان يرتديان ملابسهما الرسمية استعدادًا للاستقبال. كان العمدة يرتدي صدرية من النسيج الأرجنتيني ذي الخيوط الذهبية، سترة طويلة، ومعطف من الحرير الأخضر الرائع، وربطة عنق رفيعة، أما الكاهن فكان يرتدي عباءة من الحرير وشملة يدل نسيجها الكث على عدم استخدامها.

هدر رعد مكتوم، لمعت أكثر السحب انخفاً بأزرق كحجر كوارتز متصدع.

-... كيف تغير حالهم. هناك ستنزل نار الله للقضاء عليهم، كما فعل سابقاً مع الطاغية تاكون في موكسوكويا، ببراميل البارود من مدينة بوتوسي التي فجرت ثكنة بأكملها، بجنود المملكة الثلاثة من مدينة تاريخا...

ضرب برق قوي السحب، وعقد القس زر شملته بحركة حادة بينما يرتعش. من أين تأتي هذه المرأة التي تشبه الشبح بمثل هذه الأمور؟ أمور لم يعرفها سواهما في رسالة سرية للغاية في اليوم السابق؟

كانت العجوز تبكي في تلك اللحظة بكاءً بلوريًا غزيرًا لا يصدق.

كان صوتها المتعثر الصباني ينغم صلاة وحشية، ووسط كلماتها بلغة كيتشوا كان اسم الأم القديمة للتلال يسبق لعنات شريرة.

لكن عاد السكون مرة أخرى. كان لون السحب الأبيض يلمع بلمحة زرقاء، وشجرة الحور ترتعش قليلاً، وفي وسط السحابة الكبيرة التي تغطي السماء، كان هناك خليج سماوي بياضوي.

كانت العجوز ما زالت في تضرعها. لكن العمدة كان يشعر بانزعاج وضيق شديدين، فوضع القبة ثلاثية الزوايا على رأسه بحركة عنيقة. كانت تلك المخرفة الثرثرة تهذي كثيراً. "ارحلي بعيداً بصواتك ونبوءاتك!". ودفعها دفعة قوية نحو الجدار ثم أشار إلى الشارع لكي ترحل.

ابتعدت المرأة بينما تهمهم في صمت، لكن عندما وصلت إلى الناصية استدارت فجأة. وصاحت بصرخة مرعبة محملة باللعنات كأنها تتقيأ أحشاءها:

- إسبان ملاعين! لتتعفنوا في الجحيم! ليشق البرق والشرر أجسادكم!

بعيداً، وسط التلال، أصدر بوق جنود المملكة نغمته المنتظرة.

لكن في اللحظة ذاتها سقط برق حارق ببريق مبهر على بيت الإسباني، وتناثر حطام انفجار كارثي في الهواء. وعندما استعاد

القس رباطة جأشه، رأى صديقه ميتاً بجوار الحصان الميت، والذي كان أحد فروع شجرة الحور ساقطاً فوقه.

برق الرب والوطن، يحقق النبوءة، يعاقب طغيان العدو وينتشر كسيف جبار، مع كتائبه من السحب ومدفعيته من النيازك، برفقة بركان ثائر ورعد هازم. ككشف عن المستقبل وتوكيد على التدخل الإعجازي تعفنت الجثة في تلك الليلة بشكل سريع للغاية، لدرجة أنهم دفنوها مع شروق الشمس دون خلع الحلبي والزينة، حيث كانت مغطاة بقيح كريحه الرائحة من سم اللعنة.

## هجوم

... ويجب أن تحافظ على هذه القوات بأي ثمن. ليحفظك الرب.

كان ظل شجرة آس ضخمة يحجب تلك الفقرة. حل صمت لم يعكسه سوى تنفس حصان المبعوث. بذل القارئ شيئاً من الجهد لقراءة التوقيع ونطقه بنبرة متشائمة: مارتين جويمس. بعد ذلك كور الورقة بعنف. ثم اختفى بين الأشجار بينما يتبعه الآخر.

كانا قد وجدا نفسيهما في نهاية طريق جبلي مؤدً إلى وادٍ بين قمتين. ومن بعيد كانت هناك سحابة تمتطي الأفق ذا لون الجرافيت، والذي كان مزيئاً بجداول من النور. وفي وسطها توجد قطاعات عريضة من الألوان الباهتة المتداخلة كأنها ماء مصبغة، وكانت هذه الألوان تكشف الشمس. عكست القاعدة إيناعاً من الندف التي تدحرجت بتكاسل، كأنها انهيار جليدي. كانت ظلال من اللون الأزرق تحدد منخفضات بين تلك التضاريس، وكانت مضاءة ببريق فضي حي حمضي، وفوقها تومض أشعة برق بلا لون. لم تدم هذه الروئ طويلاً؛ لأن الشمس كانت تغرب. كانت الأبخرة تصعد متزايدة من أسفل، وتمتزج منتفخة كالقطن

للحظة، ثم تمددت في الأفق كأنها هيكل معماري، ورسمت سرابًا من ألواح  
رخام ضخمة.

انفتح شريط الشفق الأزرق مثل ذيل الطاووس فوق السماء الوردية، حيث  
ارتفعت السحابة، وأطلقت برقها. كانت عاصفة بهذه الأبعاد تبدو في ثقلها  
كانهيار للأهرامات. كانت تلقي باللقاح أعلى من الأشجار. كان فزع الحياة  
يسحرها، ويثير الذعر بأزيز حشرات الزيز ويدفع الضفادع للنقيق في الأرض  
الموحلة.

ومع حلول الليل، كانت السحابة تكتسي باللون الأصفر، ويتقد قلبها  
بومضات خفيفة. كان الشفق قد امتصها كاملة، وغزتها درجات من اللون  
البنفسجي، وشحبت كتلتها بالكامل عندما تسلطت عليها تلك الأشعة الزرقاء.  
ومع تزايد الظل، أصبحت بلون الرصاص. وبزغت سحابة رقيقة جديدة من  
الخلف، لتتوج عتمتها كطرف عنقود. تلاشت التضاريس باطراد، ولم يعد  
ينيرها سوى البرق بإضاءة عابرة. كان الصمت يزداد مع دكنة الظلمات التي  
كانت الأشجار تمتصها كإسفنجات ضخمة. كانت السماء تختفي خلف سحب  
كبيرة، وترتعش النجوم بينها مثل نقاط ماء فوق سطح ألومنيوم داكن. مرت  
بومة بينما تنعق. وبعد قليل ذابت العاصفة تمامًا في الليل.

كان رجال الميليشيات الريفية قد لمحوا وصول قوة إسبانية عبر الطريق الجبلي ثم عسكرت في الوادي. كان الحرس يحيطون بالقوات، لم يشعلوا ناراً ولم ينصبوا خيامهم على الرغم من العاصفة القريبة، وكانوا يستعدون لليلة العاصفة بجزع لم يحاولوا إخفاءه.

سيعودون في النهاية بعد ليلة أكثر أو ليلة أقل. لم يتوقفوا عن القتال منذ خرجوا من مدينة خوخوي، ولم يعودوا لمعسكرهم. سقط كثيرون. لكن الباقين عادوا بشيء من الماشية حسب المعركة التي شاركوا بها. كانت المدينة هي هدفهم الوحيد، لأن الفرق كان تهاجمهم من الأطراف دون هوادة. تضاعف العداء قبل وقت قصير من الوصول إلى ذلك المعسكر. بالإضافة للكمان والقتل على حين غرة بالسيف والأنشودة، كانت الصحراء تظهر فجأة.

كانوا يقطعون فراسخ وفراسخ دون أن يسمعوهم همسة بشرية. كانت الليالي تمر في سكون تام. لكن مع شروق الشمس، ما أن يبدؤوا يومهم، ينشب حريق تحت كعب الرجل الأخير. وفي المقدمة توجد نفس المشاق غير المرئية. انهيارات حجرية تسد الممرات الضيقة. قرائن كاذبة تقود إلى مروج خادعة حيث سممت أعشابُ القناد الحيوانات، بل والبشر. المياه المسممة؛ الينابيع المردومة عمداً كانت تقطع عليهم الطريق، واضطروا لحفر الآبار في الرمال للشرب دون خطر. ذات ليلة انفجرت عربة

محملة بالبارود، ونشب الحريق في المعسكر. بعد استكشاف المنطقة المحيطة، لم يعثروا سوى على ذراع محترق، وأدانتها المحكمة العسكرية بالشنق كسجين.

لكن بالإضافة للمتمردين، كانت الغابة تحاربهم بكتافتها. النباتات الطفيلية ذات الغزارة الغادرة، وخيوط العنكبوت التي تسد الطرق وتتأرجح عليها الرتيلاء كثمار جوز البلوط. وكان هذا البذخ يأسرهم. كانت زهور الخثرية تزين جذوعًا ضخمة بفروع ملولبة كأنها مرسومة بألوان مائية. هذه الأرض كثيفة الأشجار بجوار الماء كانت تعمق من الشعور بحميمة صالون، لكن وسط طرواة بستان. من حين لآخر يسمعون دقات الجوز التي تكسرهما القروء. وفجأة يسود الصمت تمامًا، وبعد لحظات ينتشر ضجيج هائل بين فروع الأشجار.

حينئذ طارت البغاوات الدمشقية، والعققق ذو المخمل باللون السماوي والكريمي، وطيور نقار الخشب بأعراف قرمزية تقص الهواء برفرفات قوية.

وعلى الرغم من الحياة الغزيرة لتلك الدرجة، كانت تلك الغابات تهدد بالعطش. كانت الأيام تمر دون أن يروا نبعًا واحدًا. في البداية، كانت الثلوج تغطي الجبال، رقائق الثلج ذات اللون الفضي المائل للأزرق أو الأبيض السكري، كانت تحمل الماء للجداول؛

وبعد ذلك، تتجمع هذه الجداول في أنهار، لكن بعد ذلك لا توجد موارد. ويئس الناس من الحشرات. حشرات الطامر الثاقب كانت تحفر ثقوباً عميقة متقحة، والقراد يلذع لذعات تثير الجنون. وبعد كل ذلك العذاب، متصورة الملاريا التي تزيد الكارثة وتترك مرضها القاتل في الأجساد. كانت تلك الهزيمة تعد بالموت كأنه انتحار بطيء.

كان الكثير من الرجال يحملون القبعة فقط كزيٍّ رسمي؛ لأن الحطب الصغير قد أتى على الأحذية والسترات. كان الضنك يحولهم إلى جثث بتعبيرات مروعة. كانت وجوههم مكونة من لحية مشعثة وقطعة جلد مدبوغ تخترقها عينان مثل ثقيين. كان الصمت هو الملمح المشترك في اختلافهم.

بعد ذلك، يكثر عدد الفرق مرة أخرى، دائماً ما يهجمون بغتة، لكن في أوقات غير مناسبة، ودون تنظيم. إلا أن نقص البارود كان ملحوظاً بالفعل؛ لأن المطاردات كانت تنهكهم أيضاً. كان هزال الخيول واضحاً، وكان هذا أكثر ما يثير الحزن. لم يكن نقص الذخيرة أمراً هاماً؛ لأنهم كانوا يستعيضون عنها بالصخور والهروات. لكن هزال الخيول كان يقيدهم تماماً على الرغم من العزيمة. كان الرسل يتنقلون سيراً على الأقدام، ويقتاتون على نبات الكوكا. وكانوا يعرفون ينابيع ماء خفية يروون بها عطشهم، كما كانوا يحصلون على الماء من جذور نبات الياكون. لكن الحركة الدائمة في تلك اللعبة كانت ترهق الجنود الإسبان

دون قتال، كانت تتطلب خيولاً منتعشة دائماً. أدرك العدو هذا، فكان يحمل سيقانها كتذكارات.

وبما أن الخيول لم تكن تأتي إلا من توكومان، كانوا يعتبرون المنهكة منها كخيول مفقودة. كانت ظهورها المثخنة بالقروح لا تتحمل حتى مقاعد السروج. وكانت مفاصلها المتورمة تلتوي بعجز وألم. كانت القوات تتحرك راكبة فوق خيولها بإيقاع السير على الأقدام تقريباً، وتم إمدادها بخيول نافرة ومنشور وطني يذكرهم بحب الحرية...

لكن تلك الحيوانات الستمئة، حتى وإن كانت مروضة، لم تكن تكن تكفي للفرق المتجمعة هناك. كانوا يحثونهم على التحرك بسرعة، ويرسلون لهم خيولاً وحشية غير مروضة، ويكررون العبارة المعروفة: "مهما كانت الظروف". موقف لطيف. لم يمكن لثمانين رجلاً أن يمتطوا هذه الخيول الستمئة. وكانوا صائمين لا يكشفون عن حضورهم بالدخان إن أشعلوا النيران. تم عقد مجلس حرب، وبدأ القادة في النقاش، مع اتخاذ قرار مسبق بألا يدخل أي شخص.

في أثناء ذلك، كان الليل يرفع جدرانه الضخمة. من حين لآخر كان برق مرتعش يحيط بحواف المكان. كانت التلال والغابات تلمع بضوء أصفر كالزعفران، وبعد برهة تصدر ضجة هائلة.

يصبح صوت صراخ الحقل أكثر حدة. كان دقات رياح حائرة تنشر الدفاء. وفوق السحابة الكبيرة البيضاء يرتعش بريق أزرق دون توقف، مشيراً لهبوب الرياح. وفي الأسفل، تصيح السحابة أكثر كثافة، وتكشف عن عروقها وخطوط النار كأنها ورم. وفي أثناء ذلك كانت قمتها تزحف ببطء كالودود. كان لون البرق يخفت، ويضفي الحيوية على الظلال في طفو حلمي. بعد ذلك كان الليل ينغلق مرة أخرى، مثل بوابة تم دفعها فجأة وتتحرك على مفصلاتها.

وما زالت نجمة تلمع على الجانب المقابل. إن اتحدت السحب الكبيرة قبل طلوع القمر، فمن المؤكد أن مطراً غزيراً سيسقط. لهذا كان الذئب ذو العرف يعوي كثيراً في اليوم السابق...

كانت الخيول قد حدست بالمطر في أرض خلاء ليست بعيدة عن المضيق الذي يوجدون فيه، وأخذت تسير ببطء، بينما تتشمم الأرض برؤوسها متجاورة، كأنها تتكلم. كانت عيون بعضهم تلمع بتوتر كأنها شعلة تحت الماء. كان ستون فارساً يجوبون المنطقة المحيطة. كانوا يقومون بجولات حراسة في الليلة المرعبة، حيث كانوا موزعين في ثنائيات، يسيرون دون توقف، في اتجاهات متعاكسة، حتى يصلوا لنقاط البدء. ستكون نهاية حيواتهم إن فر أحد الحيوانات؛ لأن العدو كان نائماً بالقرب منهم. كان الآخرون مختبئين بين الأشجار والأعشاب الكثيفة ويتناقشون بصوت خفيض.

والخيول المغطاة بالتقيحات والأورام كانت تسقط تبعاً. فقد كان بعضها يشارك في القتال منذ أكثر من عامين. كم تغير حالها من أمس إلى اليوم! حصان بظهر رمادي ووجه أسود كان يستخدم لصيد النعام بالأنشوطات. حصان بلون السمك في جبهته، وحصان ناصع كطفلة.

كانت تأتي بذكريات أعياد وسم الخيول والماشية بالنار، وأيام الترويض بالفخامة المعتادة وقفزاتها التي تحبس الأنفاس مثل القفز في الماء البارد. وكخيول جيدة، كم كانت تستمتع بالبارود أثناء القتال: العيون متقدة بالغضب، الآذان منتصبه بحيوية. الأنوف مثل فتحات فرن، اللجام يسبح في الرغوة. وفي المعارك المحتمة، كانت السيقان النحيفة تتألق، وتبدو أجسادها بالكامل على وشك التمدد بين المهاميز.

كان سقوطها جرحى يثير الحزن، وكانوا يقضون على آلامها بالذبح توفيراً للبارود. كانوا يتناقلون حكاية مهرة تسقط دموعها صافية، مثل طفل....

كانوا يتحدثون بهذا همساً في الليل. كانت العتمة المتزايدة تقبض قلوبهم. كانوا يعددون صفات الخيول النبيلة بفخر أبوي، ويصفون بدقة بقعها وشعورها، كمن يتذكر

الرداء المنزلي الأخير للأخت التي تزوجت حديثاً. والعيوب: هذا سريع الفزع، كأن سيقانه غير متساوية الطول. حسان بحوافر مثقوبة، وآخر نافر السيقان، ويقفز بسبب نفخة هواء في بطنه. وأثناء الخدمة: كانوا يحاولون استباق القمر بينما يغنون. يعبرون الحدود بحثاً عن حظ أفضل، بعيداً عن السلطات العدائية للمنطقة، لكي ييکوا محناً رهيبة، وينزلوا عن الخيول مع حلول المساء.

هذه التأمّلات كانت تطيل قصة المأساة. بالكاد يمكن تمييز تعبيرات البطل الذي يحكيها. قتل دفاعاً عن نفسه، عزلوه، وابتعد مطارداً ليجوب الطرق. وكان يصل للقري كل أربعة أو ستة أسابيع لسمع صوت البشر. أفسدته الوحدة وأصبح محباً لإهراق الدم. وصل إلى قطع أعناق المسافرين مقابل أوقية من الأعشاب. وإن كان قد نجا من المطاردات، فقد كان هذا بفضل حصانه غير المخصي، الذي علمه كيف يوقظه بالصهيل ويحميه بجسده. وكان يوجهه بالريبات والضغطات بساقيه عندما ينفلت عقاله. كانت صرخة تجعله ينطلق في الركض، وصرخة أخرى توقفه. وعلى الرغم من أنه كان نهماً للعرقى، منذ جعله يتذوقه ذات مرة بينما كان مسكوراً، إلا أنه ظل حصاناً ممتازاً.

كان يقص شعر عرفه بنفسه بالخنجر، ولم يكن يقتر في ابتكار أشكال جذابة. كان قد روضه على عادة أهل منطقة توبا، ليمطّيه من اليمين فقط، بحيث إنه لا يدع أي شخص يمطّيه من الجانب

الآخر. بالطبع لم يكن يصلح لأي شخص آخر. وكان هذا ينفذه في المواقف الحرجة.

كانوا يسمعون الرواي باحترام وتوقير تقريباً؛ لأنهم كانوا يعتبرونه أكثر الأشخاص خبرة بالطرق، خاصة في الليل. وكان تقدير مواهبه وقدراته أكبر لأنه كان أمهق ولا يرى في الليل. وهكذا كانت يداه النمشتان، ذواتا الجلد الأبيض البارز في الظلام، تكملان السرد بحركات حاسمة.

استمر الحكوي. بعد انهيار كل شيء، كان الرجال دون طعام، والخيول لا تأكل سوى ضربات السياط والمهاميز، فلم يعد الأمر يستحق التضحية. وصلوا إلى هنا. العدو قريب وهم عاجزون. من الأفضل الانتهاء مرة واحدة، القضاء على ألم كل الخيول العجوز الضعيفة. هكذا يجب مكافأة التعساء!

بينما كل منهم يستحق رتبة رقيب على الأقل!

كان برق كبير يسمح الأفق. انفجر قصف الرعد بتدفق واضح غير معتاد. انطلقت الكلمات الغاضبة في الأسفل كأنما ترد على الرعد. كان القادة يتناقشون. كان رجل العصر يختلف معهم، ويملاً كلماته القسم مرة تلو الأخرى. كان يرد على الآخرين متعللاً بنقص المؤن والمعدات. وترتفع الزمجرة وسط الهمهمات.

- دون خيول!...

-...دون بارود...

- هذه هي حالنا!...

دوى الرعد للمرة الثانية، وأكملت فرقة الرعد العبارة التي تفيض بالتجديف. بعيداً للغاية، في نهاية نهر الظل الذي كأنه الطريق الجبلي، صدر الإنذار المتتالي من الجواسيس الإسبان. كانت العاصفة تتسارع وتحجب بريقتها. وكان الوصول لحل أمراً ملحاً، فمع قصف الرعد أصبحت الحيوانات قلقة للغاية، وزاد فزع الخيول من القلق. كانت الخيول قد أوشكت على الفرار مرتين بالفعل، حيث كانت مؤخراتها أمام الريح، بالفحول في المقدمة، والأفراس العجوز في الخلف؛ وكان على الرجال أن يخففوا الضغط قليلاً بسبب توترها. وسعوا من منطقة الحراسة، على الرغم من أن تزايد الدوامات، وبالكاد كان يمكنهم إعادتها للمرة الثالثة. إن اجتذبت الحيوانات البيضاء بعض الشرر بفرائها، فسينفجر الوضع.

في تلك اللحظة تحديداً، تم الاتفاق على أن يكون أول برق هو الإشارة. توقف صرير الحشرات، في إشارة على اقتراب العاصفة.

كانت نداوة حارة تعمل على تخفيف الهواء وبدأت النقاط في السقوط بالفعل. كان اضطراب الخيول الوحشية أكثر عنفاً، لكن هذا كان مواتياً في هذه اللحظة. كانت الريح تنبئ بالإعصار. وما إن مرت دوامتها الترابية الأولى حتى انشق الهواء عن برق كأنه شاش مشدود.

اندلع وإبل من السياط، وانطلق ألفان وأربعمئة حافر، وسط صفير مدو وصيحات يصدرها المتمردون بالربت على أفواههم بينما يعوون. اندفع القطيع ليشق الأرض، وتكونت زوبعة في الأفق. هكذا دخل القطيع في الليل، استحال إلى سحابة، وشيئاً فشيئاً أصبح كالشبح، واندفع إلى أسفل نحو الموت. كانت الرياح تصفف أعراف الخيول في انطلاقها، والعاصفة تتجمع في الأعالي، بينما الصراخ يحفز الخيول المجنونة بالرعب إزاء تلك الهاوية التي كانت تعوي خلفهم. كانت انحدارات الطريق الضيق تبهظهم، بينما يطاردون الماشية السمينة عفو الخاطر، وتجرح ضلوعها بنبشات هائلة من الشجيرات، وكانت الأعناق القوية المنتصبه ترتفع من حين لآخر فوق موجات الظهور. كانت تهرب بينما تنفث أرواحاً سوداء من أنوفها، وكانت تبدو شرسة في تلك المسيرة التي كانت تحطم قوائمها، وكان زخم مشترك يلف أعناقهم كأنه عرق برونزي يربط بينهم.

كان الليل يفتح أمامهم فجوة كالهوائية، وترتطم أحجار الأرض بهم، وتردد سلسلة الجبال صداهم، وفوق حشد الحوافر الذي

كان يقعقع كالطبول، كان الرعد يتدحرج ككرة داخل الجرس الأسود الذي كانته السماء.

انتبه الجنود بالكاد عندما تقيأ الطريق الضيق بإعصاره؛ لأنهم لم يكونوا قد أفاقوا بعد من ذهول الاستيقاظ وسط البرق. تقدم الإعصار كجناح كبير، ومال فوق المزرعة استجابة للطلقات التي انفجرت في الحال، حيث شق طريقه برفسات هائلة - وأسقط حراساً ومعدات، وأطاح بالماشية في اكتساحه الذي كان يرعد في الوقت ذاته مع العاصفة.

كان صدى الصراخ يزيد من الفزع؛ لأنه كان ينتشر ككتلة مهلكة. مر الغبار غائماً ملفوفاً أمام المعسكر الذي أصبح عاجزاً عن الرؤية، والأرض ترتجف تحت وابل من السيقان، وغاص في الليل...

لم يتبق للعدو سوى بغال المدفعية التي كانت مفزوعة.

كانت النهاية المأساوية تتكون من نداءات مفزوعة بالأبواق، وأوامر ورعد وسباقات في العتمة وتبادل لإطلاق النار منفجراً في الظلام. كان الإسبان يشهدون مأساة غير متوقعة على ضوء برق طفا فوق الأشجار كملاءة كبيرة.

تجمعت الكتلة بعيداً أمام التلال التي تسد الوادي. واستدارت لتعاود الهجوم بين السقوط على الأرض وفوضى جامحة. ربما يمكن القول إن نولاً ينسج الكارثة من خيوط المطر عبر العاصفة.

كان إطلاق النار قد أصبح منتظمًا الآن، ويتم في مجموعات. لكن البغال المتبقية هربت على دوي الرصاص.

وأدركوا متأخرًا أن تلك الفوضى لم تكن بناءً على أمر، وأن ذراعًا واحدة لم تقد ذلك النسق، وأن تلك الفوضى لم تكن محكومة بالنزق. كانت الأرض تتعرق بالدم بينما تتناثر الكتل السوداء فوقها. كانت رائحة الحيوانات اللاذعة تفوق رائحة البارود فوق أرض المعركة التي ما زالت تحتفظ بآثار ركض الخيول.

## حتى الموت

تفرق المتمردون ليشتتوا الجماعة الصغيرة التي تلاحقهم. سقط رجال من كلا الجانبين، لكنهما كانا منخرطين في الصراع، فلم يحمل أي منهما رجاله الساقطين. وهكذا ابتعد الصراع في فوضى طلاقات متناقصة.

كان شاب من الميليشيات الريفية يرقد تحت الأشجار، يتلوى بسبب ألم حاد مؤلم قاتل. كانت وجنتاه السمراوان ممتلئتين بشعر خفيف كثيف أشقر. كان البونشو الأزرق من صوف خراف المرينو والسفرة السوداء يظهران الفخامة. كانت أنفاسه تشق بطنه وتقطع عنقه أيضاً من حين لآخر. وحينئذ، يظهر التناقض بين بياض الجبهة مع الوجه الأسمر الذي يجسد الاحتضار. كان العرق يتلألأ فوق حاجبيه وشفته. وينتشر ظل فوق جفونه، بينما أطراف شفثيه تمتقع ألماً.

كان المساء يللمم غلالته الوردية في الغرب. برزت أشجار كثيفة حزينة من بعيد، في حقل من الذهب الداكن. كانت مطلية بالذهب في أماكن متفرقة أو مغطاة بالقرمزي، وتنفرد لفتاتها

الآن. بعد ذلك تقصر الأعشاب وتنفض السحب بتثاؤب قاطط ضخمة. كانت تحيد منجذبة إلى الأفق بسحابة كبيرة متموجة، والتي كانت تقشراتها تنضح بالدم. كانت قمم بعض التلال تظهر خضراء بينما كانت سفوحها غارقة في دخان أزرق. كان الهواء محملاً بعطر منبه من الزعتر والنعناع.

أصببت الطبيعة بعدوى معاناة الرجل الذي كان يحتضر. تنهدت كربها الملفوف بالسحب. تزايد نضوع اللون الفيروزي في السماء. وميض أخير أشعل الغابة بلهب عابر. تشققت السحابة في الأسفل مثل جدار يمتلئ قرميده المحروق بفقاعات من الرماد. ظهرت عبر الفتحة خلفية من لهب مجهض في حياء الليلة المحترق، ليخلف سحباً ملونة، وفي النهاية استحال إلى جمرات ذهبية. كانت كآبة الشفق تطفو مثل الروح، وتنزع الآمال. وكان اللون الرمادي يهيمن بسرعة أكبر، عندما ظهر ضوء خلف الأشجار، وسط شحوب طافٍ، ليضفي وضوحاً على الأشكال ويغطي السماء الياقوتية بلون أزرق شفاف من ماء لبني... كان القمر يطلع.

في ذلك الوقت، أدى توافق الأنوار لإضاءة الأرض بنضوع غير طبيعي، وظهرت امرأة، يسبقها كلب، بالقرب من الرجل الجريح. تردد الحيوان قليلاً، بينما كان رأسه مدفوناً في الأعشاب، تقدم، وعاد مرة أخرى. قفز نحو المكان، تقريباً بجوار المكان الذي تصدر منه حشرة الموت. تبعته سيدته، التي استندت إلى

الأرض بركبتها ووضعت رأسها بجوار رأسي الحيوان، ولبرهة، لم تسمع سوى النحيب.

كانت تعيش في مكان قريب، بمفردها، في حرية عمرها الغض. كانت قد تيمت قبل الثورة، وسقط شقيقها الوحيد في مدينة أيوهوما. وبما أن النساء قد هاجرن لدى غزو الإسبان، نصحتها الزعيم المحلي باتباع خطاهن. كان ردها هو طلب الالتحاق بالصفوف، وقصت شعرها لكي يمكنها الذهاب للحرب؛ لأن الخوذة لم تكن ستسع ضفائرها. تقدمت مرتدية ملابس رجل، بعينين مليئتين بتحدٍ حربي. جاوتشو شاب جميل، رفضوه بحزن. ولم تخرج من تلك التضحية سوى بلقب: كدعابة، أطلق عليها رجال الميليشيات الريفية لقب "الصلعاء".

لكنها ظلت في كوخها، وكانت تعمل كمرضة أحياناً، وكطاهية دائماً، وكانت تدبر أمرها بحنكة كبيرة، وعلى الرغم من توفر الكثيرين ممن يمكنهم مساعدتها، كانت تقوم بجز صوف خرافها بنفسها. كانت تقيم حفلاً على شرف سان خوان، شفيع الشياه، في الأعياد السنوية. بل وكانت تخضب وجهها، حسب التقاليد، بدم الأذان حيث تنقش شعارها: قطع دائري في جانب ومذراة في الجانب الآخر. كانت ترتدي ملابس مناسبة لأعمالها الريفية. وكان أي فستان منقط، من أي لون، كافياً لكي تظهر مليحة. كان كوخها أكثر من كافٍ لاحتواء عشها الصغير، وكانت هناك حديقة صغيرة تزهر بعد ظهر كل يوم بأزهار قرنفل حمراء لم يرها أحد

تموت...

كانت وجنتها تلمعان ببريق خفيف فوق جمالها الأسمر الدافئ. كانت نظرتها تبدد النار السوداء في عينيها كأنما في ألق حلمي. كانت أسنانها الشبيهة بحبات الذرة النضرة، تجعل ابتسامتها لؤلؤية بين شفتيها الحمراوين الممتلئتين؛ ولأن أسنانها متباعدة قليلاً وذقتها دقيق، فإن مظهر الشابة يوحى بشيء طفولي، لا يناقضه سوى إيقاع مشيتها والارتجاج المرتعش في صدرها.

لكن منذ وقت قصير، حجب شحوب سحرها. إن كانت وجنتها قد فقدت النضارة، وغابت العذوبة عن حنجرتها، فإن جلدتها أصبح أبيض، ونحف خصرها أكثر. شعرها المقصوص الذكوري لم يقلل من ملاحظتها. لكن ذكرى ذلك الشعر أقلقت أكثر من شخص. أي ألق حار عندما يفتح بانعكاسات العشب، ويحيط الفتاة بدفء كالمطر. أي أنافة مبهرة عندما تلامس الأرض بالزهور الصفراء التي تحيط بأطراف ضفائرها مع كل خطوة.

لم يكتشف أي منهم السبب، لكنهم لاحظوا تغييراً كبيراً في الفتاة. لم تعد تجري بينما ترن القهقهات. ولم يعد انفتاح جفونها يعني نشوة مؤثرة. أصبحت ترتدي الآن رداء الرهبان الفرنسي سكان، كمواطنة جيدة، كما يقول البعض. لكن آخرين كان يرون في هذا الرداء نذراً غير معلن. أصبحت شاردة باستمرار،

حتى يبرد مشروب الماتيه في حجرها، وبينما تحكي للوحدة عن كروبها العريضة. قالوا إنها عاشقة؛ لأنها كانت تجلس أمام المدخل في الغروب، وتبدو بارزة وسط الفراغ الكثيب، بينما تردد أغاني أعياد الميلاد:

ها هي البقرة آتية في الزقاق،

تحمل اللبن للطفل للإله...

كان هذا الوضع يزيد من تأثير الشفق على وجنتها كأن أفجاراً بعيدة تملؤها روحانية. اكتسبت عيناها اتساعاً متوترًا. كانت عتمة الكوخ تحجب نصف وجهها، بينما ظل مرمرى يرتعش على أنفها، وعلى نقطة في ذقنها وعلى وجنتها البارزة. كانت العتمة تغطي ظهرها بظلال باهتة بدلاً من الشعر. وعندما تمد ذراعيها لتسند ركبتيها إلى أصابعها المتشابكة، يصبح جلد الذراعين أبيض، ويشف عن أوردة الدم الرفيعة.

إن جاء شخص ما سعيًا وراء الأخبار أو بحثًا عن مأوى، ترد عليه كأنها نائمة، وذاهلة خلال برهة. لم يكن شكهم هباءً. إن لم يكن الأمر هكذا، لماذا كانت تحمل معها حجر مغناطيس دائمًا؟

رابطة الجأش بحيويتها الجبلية، لم تكن تنزعج من تبادل إطلاق النار المستمر في الغابات الكثيفة منذ أيام. لكن في ذلك العصر، بينما كانت تمشط شعرها، اندلح القتال خلف التل. بعد

ذلك عجت الغابة بالفارين. مر فرسان متفرقون بسرعة هائلة، ليختفوا وسط نار المساء. وكان القلق القاتل قد عذبها، وأفكار بأن الوحدة قد أصبحت يقيناً. بشكل غير واع، سبقها كلبها أثناء عبورها الأرض المليئة بالصبار بينما تلملم أطراف رداؤها، وعبرت الربوة كأنها تتطاير ويمتصها المساء الرمادي. كانت قد سمعت لتوها، لأول مرة، صوت الموت متجسداً في الطلقات.

كان الكلب يتشمم، متوخياً الأثر بدقة. كانت الأشجار تبدو كمنفضات ريش كثيبة. كانت القوارض من فصيلة بيسكاتشا تهمهم مزمجرة على أبواب جحورها. وتزايد قلق الفتاة. كانت تشعر بالتردد أمام تلك الأعراس التي ربما تكون مذبورة بالجثث. بالكاد انتبهت لطلوع القمر.

كانت أنفاس المحتضر تتحول إلى حشرات، وكان برد الليل يزيد من ألم جراحه. نهضت المرأة مهممة، ونظرت إلى التل الذي ينهض أمامها، وتذكرت فجأة. هناك يوجد كهف يسهل الوصول له، وعلى مسافة أقرب من الكوخ. لكن حسب الأقاويل، كان ذلك الملاذ مسكناً للساحرات.

يخرج "الфанوس" من هناك في ليلة القديس بارتولميه. "الфанوس" هو الشعلة المشيرة للكنوز الخفية، وتشتعل في مؤخرات المارة. وفي الداخل كانت هناك أحجار عليها صور أفاعي أو أصنام الديانة القديمة. أحدهم ذو تعبير مخيف وحواجب كثيفة، وآخرون ذوو تعبير تأملي، كأن الأحجار قد تعلمت

التفكير لكثرة ما اتخذت هيئة البشر... وتذكرت الشابة، بينما تشعر برعب هائل، حكايات إحدى عماتها، والتي كانت مداوية؛ تطرد الأرواح الشريرة للتخلص من الحب. وتصنع التعويذات والأحجبة للحصول على الثراء، بالإضافة إلى رعبها السري عندما يطلب منها إنهاء ألم المحتضرين عن طريق كسر فقرات العمود الفقري...

كان الصمت الفضي للقمر مواتيًّا لتلك الذكريات. مع ذلك، لم يكن هناك مأوى آخر سوى ذلك الكهف؛ لأن الرجل كان يقضي نحبه. تراجعت يداها متقلصتين بسبب الألم بينما تتحسس دون هدى، وكان الإبهامان تحت بقية الأصابع. وتفوق الخطر على المخاوف. تركت في المكان كلاً من المهاميز والخنجر والحزام وأي شيء ثقيل الوزن.

رفعت الفتاة الرجل المحتضر. كان العروسان المثيران للشفقة يصبغان آثار أقدامهما بالدم. مزجت دفقات الرياح بين شعريهما، وحركت أشجار الغابة بقوة. لم تكن المسكينة تكمل أكثر من عشرة خطوات متواصلة؛ لأن التعب كان يخدر ويرعش أطرافها في الوقت ذاته، بينما كان الحصى يعذب قدميها. ومع كل توقف، كان سراب جبهما يبدو في كل ملامحهما، على الأخص بالتناقض مع الخواء المرعب.

ذات يوم، أمسك بيدها بين خيوط النول بينما كان يساعدها في منسجها. وذات مرة، كانا يحتفلان ويتناولان العشاء معًا، ثم

التهما بطيخة. وعندما كانت تصنع عقودًا من الفلفل الحار، لكي يأكلها بقبلاته النهمة وتصل لحنجرته.

كانت تلك المداعبات من الأمس السعيد تنخز ثديها كالأشواك. لم تكن تفكر حتى في العدو المتسبب في مأساتها وتعاستها. كان المحتضر يشكل عالمها الألمي. كانت تكلمه دون طائل. لم يكن يرد على نداءها. ولا واحدة من تلك التنهدات بينما يسحرها بكلماته، فتصدر مرتعشة، عن قصد أم لا، مثل الكتاكيت التي تخاطر وتقف على حافة العش؛ أو تهدئ اندفاعها كعاشقة مثل نبيذ حلو.

خطوة أخرى، معاناة أخرى... خطوة أخرى، معاناة أخرى... ظل الكلب حزينًا للغاية خلال تلك المسيرة المؤلمة. كان يعوي عندما تنخرط مالكته في البكاء بتأوهات حادة خلال لحظات. خطوة أخرى، معاناة أخرى...

- ماء!...! توسل الرجل الجريح بألم الاحتضار على شفتيه.

ترددت الفتاة لثانية، ووضعته بعد ذلك على الأرض برقة. وتفحصت الأعشاب بسرعة فعثرت على نبات الراوند التشيلي الذي تبحث عنه. عصرت العصير اللاذع للعشب في الفم المحبوب الذي كانت بالكاد تجرؤ على تقبيله، ثم استمرت في طريقها.

كانت أساور من الألم تمزق أطرافها. كانت فخذاها منهارتين

تقريباً بسبب الدفعات، وصدرها مشقوقاً بسبب الكرب، وصلت إلى حل إغلاق عينيها، بينما كان وجهها ملفوفاً بالدموع والشعر. كان المحتضر يرقد بين ثديها وذراعيها.

تجمعت غيوم رقيقة كأنها ندف جليد من النور، لتغطي السماء بغلالات رقيقة. وأضاءت الزهور في روعة البدر، لتسبح باللون الفضي في الأفق، مثل منمنمة في وعاء مصنوع من قشر ثمرة كبيرة... كان المهاجرون يخرجون من الغابة، على مبعدة خطوات قليلة من الكهف. انتهت الغابة فجأة في الخلف، لترسم جغرافية من الخلجان والقمم. وفيما حولها، كانت التلال مظلمة للغاية، في شفافية الفيضانات. كانت هناك ضفدعة مختبئة قريباً، وكانت تنقنق منبئة بالمطر.

كانت الروائح تنبعث برطوبة قبر تقريباً، كأنها صادرة من بئر قديمة. تناثرت العظمة الأثرية لروعاتها في الفضاء في تلك الليلة. كان القفر يبزغ من صلابتها المضيئة التي كانت تجمع الغيوم كندف القطن. كان ضوءها يغطي الجذور الجافة موحياً بسلام الموت. لكن هذا لم يؤثر في الفتاة أو يفزعها كما حدث عندما بدأت في الحركة. الوصول! الوصول! هكذا كان الدم يصرخ في صدغيها. الأشباح ذاتها كانت ستشفق على مثل هذا البؤس، وستشمها أرواح الآلهة القديمة بعطفها.

عوى أسد الجبال باتجاه الكوخ، وفي الوقت ذاته كانت النعاج تتغني، وانطلق الكلب في ذلك الاتجاه عاوياً.

وصلت الفتاة إلى الكهف في تلك اللحظة، ليتوافق دخولها مع زيادة العزلة.

ملأت رائحة السرخس اللزجة الكهف. طار خفاش مفزوعاً، ليلوث البياض القمري بشكل عابر. ثلاث خطوات أخرى، ووصلت المجموعة الكثيية إلى عمق الكهف. تأوهت بينما تميل على صدر حبيبها...

حينئذ شعرت بتصلب الجثة عبر الملابس. لمست الفم، لم يعد يتنفس. ولم يعد القلب ينبض. خلعت عنه السترة ذاهلة كأنها في حلم، ومررت أصابعها على شعره الناعم حتى خمنت الفرق الذي كان محبوبها يزين به رأسه. فتحت فمها لتتنحب على مثل هذه النهاية، عندما صدر تأوه في العتمة، بالقرب من الميت.

لظمة من الخوف كبحت بكاءها. والتصقت بالميت بانقباض هائل، وقضى الإغماء على قواها.

عندما أمكنها التحرك، كان القمر يضيء الكهف من الداخل.

حبت على أربع، وكانت جمجمتها مليئة بالهمهمة المتداخلة مثل الحلزون، وكان الألم يمزقها. ورأت عيناها من دون مفاجأة، بعدما خبت كل انفعلاتها لفرط رعبها، جثتين مقلوبتين على وجهيهما بدلاً من جثة واحدة. كان الآخر يرتدي زي الأعداء.

أبعدته بركلة، فلم تعد تخاف من أي شيء. أصبحت عيناها كثقبيين من الهذيان. وجسدها كزق متجدد؛ لأن ساعات الألم قد

أتت على كل لحمها بالكامل. لقد تحقق السحر الشرير في ذلك الكهف القذر حيث ما زالت المرأة تبكي. كانت الحشائش قد مزقت ملابسها، وتغطى جسدها بالدم بينما تحمل الميت، وركبتها ومرفقاها مليئة بالجروح بسبب حواف الصخور، وشعرها مبعثر فوق وجهها، وكانت تشعر أن كل نوبة بكاء تنتزع شجرة من قلبها.

رأت الضفيرة فوق صدر المتمرد، ذلك الحرير الكئيب على جسده الذي أنقذته بكل ذلك المجهود، والحنق الذي منح قلبها القوة مثل دواء مر. كان وخز غاضب يضغط فكها. كان الإسباني الشرير يحتضر هناك، في مرمى مرارتها. آه، لتعصر مرارة كبدها على احتضاره، لتمزقه بيأسها، وتطنن عظامه. مجنونة بالغضب! بالغضب! بالغضب!...

حينئذ، قامت بدور المداوية التي تخلص المحتضرين من آلامهم، وجذبتة نحوها بجذبة واحدة. أحجمت لبرهة، مغمورة بالمتعة أمام ذلك الوجه الذي يحييه القمر لحظياً. ثم رفعته بعد ذلك بين ساقها، وأسندت قفاه إلى صدرها. بل إنها لتمنحه بعض الحيوية نفخت في عينيه، اللتين فتحهما التعس. أمسكت في النهاية بكتفيه، وعضت على شفتيها لكيلا تزار باصقة روحها على وجهه، وكسرت عموده الفقري بضربة واحدة.

## معجزة

خيمت قوة ملكية في تخوم القرية الصغيرة بموافقة الزعيم المحلي لإراحة بعض المرضى هناك. كانت هذه الضيافة بمثابة سجن؛ لأن الفرقة المحاصرة برجال العصابات كانت تستعد للسفر، وتحمل عاصفة منذ اليوم السابق.

وافقت النساء على هذه التكاليف الإضافي، وتولت كل منهن أمر اثنين أو ثلاثة من الإسبان، على الرغم من أنهم كن يعشن بالكاد، دون إشعال الفرن أو تذوق اللحوم منذ أسابيع عديدة ذلك، وتحولت ملابسهن الرثة إلى مزق.

كان احتضار الإسبان مريعاً بسبب الملاريا التي أصيبوا بها في الغابة، وكانت تقضي عليهم كالكلاب الضالة. جوعى، أصابهم الهزال بسبب الشح حتى أصبحوا كالأشباح. حرقهم الجو القارس للرياح الباردة فوق الهضبة، حصدتهم الطلقات، وأكثر ما كان يفتنهم هو المرض الذي ينتشر في أجسادهم. تحالفت الميليشيات الريفية مع الجوع والعطش، وزدات أمورهم صعوبة مع الحمى.

كان أعضاء هذه الفرقة يعودون من جولاتهم من دون بقرة واحدة، كانوا مرفوضين من ذلك البلد الذي لم يكن يقبلهم سوى كجثث فقط، وأحياناً يغرسون فيهم سونكي البندقية طوال ليال كاملة. كان بعضهم محطماً بالفعل لدى الرحيل، كانوا يجرجرون هزيمتهم خلفهم بحزن، وسقطوا في اليوم السابق تحت المطر. وأقاموا المعسكر حولهم، في ظل هتافات معترضة من المتمردين. كانت السماء تكفنهم بمطر مستمر، وأشار نباح الكلاب للمكان الذي استقبل المرضى في اليوم التالي؛ أربعة عشر جندياً ورقيباً. عاد المسعفون بعدما عسكروا في القرية. وبعد ذلك بوقت قصير، تعرضت الفرقة لإطلاق نار كثيف بمجرد بدء التحرك، فدخلوا تحت الأشجار الكثيفة الكثيفة.

كان المطر يسقط باستمرار...

ويما أن القمر كان محجوباً بالماء، فلن يتغير الطقس حتى ظهور الهلال. استمر الطقس هكذا طوال أربعة أيام، حاجباً الرؤية عن كل شيء، ومحياً الطرق إلى وحل سائل.

اضطلعت النساء بالعمل، حيث كن يعتنين بكومة الهياكل العظمية، ويداوين جرحاً هنا ويخففن ألماً هناك. كانت أجسادهم مليئة بالقروح، وينتفضون بسبب الرعشات كأنهم يضربون بالسياط، فتتجدد جلودهم كأنها ملابس مطرزة. كانت وجوههم

الشاحبة ذات اللحي الطويلة تبدو مخيفة. وبما أنهم كانوا مهزومين، كان شفاؤهم أبطأ من مرضى الثوار.

كان المطر يسقط باستمرار...

دحرجت العواصف كتلها السخامية، واحدة تلو الأخرى، عبر السماء الرصاصية. كان الرعد يدوي ويهز الأرض. كانوا محاصرين بالمطر المستمر الذي يتحول إلى رياح باردة وعواصف ممطرة. وفوق الأزرق الكئيب تقريباً في سلسلة الجبال، تطفو سحب كبيرة، يظهر في قلبها بريق مرئي عن بعد أحياناً، كأنه شعلة تنتشر على جبل. كان الظلام يحل مبكراً، ويستحيل الرمادي إلى عتمة الليل بسرعة. وكثيراً ما كان يخفي حمرة عابرة ناحية الغروب. كأنما كانت الأشجار تختفي، دون حفيف أو همسة. كان القش المهترئ في الأسقف يبكي قطرات حزينة للغاية، وبالكاد كان كلب ما عابس يهرول من بيت لآخر.

كان الليل يثير نقيفاً كثيباً في المستنقعات. لم يكن هناك سوى قوالح الذرة كوقود، وكانوا يقتصدون في استخدامه. وكانوا يحفظون شحوم القناديل لعمل لبخات الزيت وحساء النخالة، طعامهم الوحيد. هكذا كانت العتمة تتوج الآلام برعبها. كان اليأس رازحاً تحت قش الأكواخ. كانت الرياح الشريرة تخترق الجدران الجصية المتهدمة. كانت الوحدة تحاصرهم خلف الأبواب الجلدية. ووسط صمت هذه الليالي، كانت صيحات المرضى تعوي للرب بأشياء رهيبة.

كانت أسنانهم تصطك، وتصير مفاصلهم مثل مفصلات الأبواب بسبب البرد. كان المريض يمسك البندقية بين إبهاميه، ويطلب بالأدثرة والبونشو، بل والفساتين أيضاً، وسط مزق الملابس التي تحيط به. كان الصغار يتأوهون، بينما يتشبثون بأمهاتهم في الظل. بعد ذلك يأتي العطش، الألم الحارق للحمي المتكررة كل ثلاثة أيام. كانوا يتخلصون من أغطيتهم، يمزقون الأبواب، يكسرون الجرار الفارغة، يعبرون الليل بينما يجبون ويمترغون في الوحل. يصل النهار في النهاية، منبئاً بنهايات كئيبة. كانت جراح قديمة تنز بالقيح، وكانوا يصابون بالإنفلونزا مع أقل انخفاض في درجة الحرارة. مرت تلك الأيام الأربعة بينما يخلفون كل يوم منها بجثة.

الأحد عشر ناجياً، بعدما أصبحت إحدى أقدامهم في القبر، كانوا يقضون لحظاتهم الأخيرة في ذكريات كئيبة، أكثر إثارة للضيق بسبب الضجر الشرس. كانت عيونهم تلمع بالهذيان القادم من أعماق رؤوسهم. كانوا يوجهون إهاناتهم للنساء باستمرار، وكانوا يفرطون في الكلمات الشهوانية البذيئة. كانوا يشتمون رائحة خيانات، وكانوا يرون الحياة أكثر استحالة كلما ازداد ضياعهم فيها. كان المطر يسقط باستمرار...

كانت إحدى النساء تعتني بأمر المرضى، الذين كانت وحشيتهم تفسد أفضل العلاجات بسبب إهمالهم. لم تكن الضمادات

والكمادات تنجو من لعناتهم وسبابهم، ولم يكونوا يستثنون الأدوية المرة. كانوا يرون سماً في المزيج الكحولي من قشر البرتقال المر والفلفل، والذي كان دواءً للحمى. ويا لسخريتهم إن سمعوا تعويذة طبية، كالصلاة للأم القديمة:

أيتها الأم القديمة للتلال. أيتها الأم القديمة للعالم السفلي،

يا قديسة أنا...

حل عصر اليوم الخامس بينما المطر المستمر يغرقهم. من بين جنود المملكة الأحد عشر، كان الرقيب هو الوحيد الذي أطل لبرهة من باب الخيمة بشاربه الشبيه بقطاع الطرق، وقام بحركتين ماهرتين بالعصا التي استخدمها كأنها سيف كبير.

توقف المطر مع حلول الليل، وانتهزت النساء الهدنة للاجتماع في بيت المداوية، ليستعدن شيئاً من مرهين الذاوي.

بعدما وصلن لسن النضج، كن يبدون رجالاً بالغين أمردين، وكانت قبعاتهن الخشنة تجعلهن يبدون أكثر ذكورية. كانت المداوية بنحافتها تبدو أكثر أنثوية، على الرغم من معصمها ويديها الخشنتين كالحبال. كان حلقها المنتفخ وعظام القص تظهر من صدريتها المفتوحة قليلاً.

للماتيه كالعادة. كن يلهون بإبعاد حبات الفاصوليا باهتة اللون أو يقمن بأعمال أخرى رتيبة، ويتأسفن على الأزمان الغابرة. كان ذلك الاجتماع البائس يذكرهن باجتماعات أخرى، للغزل أيضاً أو للعجن، والتي كانت تمر كاحتفالات لانهائية. مشروب ماتييه وينسون في الليل. وفي النهاية، حفلات رقص وولائم.

ما بين جملة وأخرى، كن يعدلن وضع سجائرهن في الزوايا المهملة لأفواههن. كانت ملابسهن المثقوبة كالمناخل تغني عن التعليق عن بؤسهن. لم تكن هناك ذرة لعمل العرقي أو عملة واحدة لمباراة كوتشينة بأسة.

كانت الحكومة تدفع للرجال رواتبهم بعد شهور كثيرة، وإن حصل الجندي على ريال واحد يعتبر هذا مبلغاً كبيراً. وكان الجنود يبددون رواتبهم التافهة في اليوم ذاته بلعب النشيان في أي مكان ظليل. "في نهاية الأمر، لم يكونوا يصلحون لأي شيء نافع".

محظوظون هم من حفظوا بذور الخروب في الأواني؛ لأن نخالة طعامهم كانت تفيدهم في عمل الكمادات.

كان تمثال العذراء في نهاية الغرفة، وكان المحراب الأحمر الذي يشغله مضاءً بالقنديل. وأمامه، على الرف، كانت هناك جرة يصل ظلها المنتفخ إلى حبال النول، ولفافة من أغطية الأسرة بنقوش متعدد الألوان. كان المرضى يشخرون في الغرفة المجاورة.

كانت المداوية تتأمل حركة المغازل وهي غارقة في التأمل. آه، تلك الاجتماعات في الأزمان الغابرة، تلك المراهنات بأربعة ريلات بعد الولايم!... ذلك الماضي كأرملة ثرية، تعقد للعدراء قداسات فاخرة بأشعار وعزف بالفيلولين والطبول.

كان التمثال مشعاً في مكانه، وكان طوله كطفل في الثالثة من عمره. كان رداؤها من الحرير الأبيض ومطرزاً بالذهب. كان شعرها المموج، الذي أحاله ماء الجفيل أشقر، ينساب على صدغيها اللامعين ومن بين حليها، يبرز العقد، والتاج الفضي والقرط - لؤلؤتان متدلّيتان للغاية، مثل شعر الماعز تحت الفك. كانت يداها مفتوحتين للأبد بمباركة طيب. حدقتها ثابتتان بذهول بريء، وابتسامتها الجامدة على هيئة قلب تضيء وجهها الخالي من التقاطيع. ما زلن يتذكرن صانع التماثيل الذي نحتها بالسكين في قطعة خشب من شجر البوليبيس: مخلص من مدينة كوئكو، كثير الشراب بقدر ما هو ماهر. دفعت الأرملة أربعة ثيران وكل أغراض المتوفى. لكن هذا الإنفاق كان في محله؛ لأن ذلك التمثال كان إعجازياً تماماً. لم يكن يتطلب التزاماً كبيراً مثل سان أنطونيو -القدّيس المتمتت للغاية- أو أن يعلق أي شخص من قدميه مثل التمثال أو يضطر الناس لمخالفته. دائماً ما كان يمنح الأمنيات دون ممانعة كبيرة.

عندما كانوا يحملونها إلى الكنيسة في عيدها، لم تكن الطرق الوعرة أو الحر يمنعانهم من حمل عرشها بمظلاتها الحمراء

وباقات الزهور بكل الألوان التي يعرفها السكان الأصليون. وكانوا يحتفلون بإطلاق النار في مدخل القرية.

كان المحراب يشع بشيء بلسمي غامض، وفي الجانب الداخلي من بابه المزدوج، توجد صورة لسان خوسيه وأخرى لسان روكيه. كانوا قد زينوه من الخارج بسلاسل من البيض البري، من البيض الأخضر والبنفسجي للحجل، حتى يبيض الفرار الملطخ بالأبيض والوردي، والبيض الرمادي لطائر السمينة أو البيض الصغير للغاية للطنان. كان البؤس ينحصر في الهدايا، دون انتقاص من التكريم؛ لأن ذلك التمثال كان لعذراء الرحمة، أي إنها عذراء وطنية. وتسببت هذه الحال في تدمير المرضى أكثر من مرة؛ لأنهم كانوا من أتباع عذراء المعجزات، التي كانت إسبانية.

كانت كل ممتلكات الأرملة الآن هي التمثال والبيبغاء كثير الكلام، لدرجة أنه كان يصلي المسبحة الوردية مرة واحدة. وهذا التناقض بين زمن وآخر، بالإضافة للذكريات التي استدعتها للتو، كان يثير حنقها. تكثفت في عينيها كآبة مريعة، واهتزت عظام الترقوة مع البكاء.

تكلمت، وتذكرت بالتفصيل العذاب الذي تعرضوا له بسبب عدم الحنث بالقسم في السنة الثانية عشرة، حيث تم إلباسهم جلدًا طازجًا لعجل صغير. كأن هذه الحكاية عن العذاب تخفف همها، تطلقها ثم تنطلق الضحكات.

كان جلدًا مائلًا للحمرة، جلد العنق. ضحك أولئك الذين رأوا أنفسهم يرتدون تلك السترات على اللحم في البداية. لكن، في منتصف النهار، سقطوا مرضى. اتجهت وجوههم للسماء وعانوا من حمى مثيرة للذهيان. عطش بشع جعل عيونهم تكاد تخرج من مقلماتها، حيث كانوا يلهثون مختنقين. أصغرهم عمراً كان يطلب باكيًا أن يخلصوه من الألم ويقتلوه. الآخر -في صمت- كان يخلط حشجراته بقرقرة كأنه مذبوح، تحت الشمس الهائلة التي كانت تدفعه للتلوي كالودودة. خرجت ألسنتهم المنتفخة من بين شفاههم، بينما تتأرجح بلهفة وحشية. كان الذباب يدخل ويخرج من أنوفهم التي تنساب منها غازات داكنة...

بعد قليل، أصبحت وجوههم لامعة بلون أحمر كاردينالي مثل الكلى، ولم يكن مرئيًا سوى الثقوب الدموية للجفون. واستمر هذا يومًا، يومًا كاملًا!

تلك الحكاية كانت تثير صاحبها وتنتهي بالسباب. الغضب تجاه هؤلاء المحتضرين الذين كانوا ينعثون أمهاتهن بالعاشرات. سبتهم:

- يا نسل العرب يا لثام... إسبان فذرون... أي... لتبتلعكم الأرض بملككم وشعبكم كله!

حينئذ دخل الرقيب من الباب المفضي للغرفة الأخرى. كان

يسترق السمع بينما يتجادبن أطراف الحديث، حتى دفعته تلك اللعنة على الملك للدخول كأنه يخرج من الظل. كانت رأسه ملفوفاً بالخرق، وتفوح منه رائحة قبر. أصابهم حضوره بالخرس فجأة. كانت شعلة القنديل ترتعش كريشة تمسك بها يد أثناء الكتابة. كانت إحدى الغزالات تلف الخيط بشكل ميكانيكي. حرك الرجل ركبتيه المتيبستين بصعوبة حتى وصل للمجدفة وأمسك بشعرها:

- عاش الملك!

وقفت على قدميها بعد تلك الصرخة التي كانت تحمل استنكاراً وحجراً على رأيها. واجهت الجندي الملكي، صلبة ونابضة بالحياة كعضو ذكري. وبكل عداء المطر والليل، وكل حنق الفرق التي تمشط البلاد، ردت عليه:

- عاش الوطن!

بمجرد طلوع الفجر، تجمعت النساء في بيت المداوية. الخيوط التي لم يتم الانتهاء من لفها، المصباح الذي ما زال مشتعلًا، الغلاية باردة ومائلة في صحنها. كل هذا كان علامة على التخريب. ما زال البغاء نعسان، ويتمايل على طوقه المعلق في السقف. كانت مالكته ترقد في الحظيرة، بعدما عوقبت بالجلد.

كان الجنود الإسبان يجهزون عصي العقاب، التي كان الرقيب يعمل على ربطها معًا بعناية بالقرب من ذلك الحقل المسور، أمام

كانت الأجساد تبدو سوداء في الضوء الخافت، وأخذت تكتسي شيئاً فشيئاً باللون الرمادي. كانت الوجوه شاحبة تحت الشيلان وأغطية الرأس. كان الطقس السيئ مستمراً، لم يكن أي طائر يغرد. وكان البرد خفيفاً وسط هذا الهواء الغريب. التلال الزرقاء، والرطوبة المعبقة بالروائح، والأشجار التي نظفها المطر، كانت كلها تعلن عن يوم جيد.

خرجت العذراء على أكتاف النساء باتجاه المكان حيث تنتظر الضحية تنفيذ العقوبة. كانت الزهور الفضية في تاجها تتمايل فوق الرأس. وكانت يداها تهيمنان على المكان بالمباركة المعهودة بينما تتدلى القلادة منهما. كانت النار قد خبت، وداخل الحظيرة يصدر صوت شبيه بالدق، طرقعة الجلدات التي كان الجنود يضربونها، حيث كانوا يتناوبون بعد كل دسنة. توقفت المسيرة أمام باب الحظيرة. أدار الرقيب رأسه، ولاحظ الوجه شبه الوردى، وأدى التحية العسكرية مع رجاله. ثم تبادلت كلتا المجموعتين النظرات، دون كلمة واحدة لحل المعضلة القاتلة لتلك النظرة. ذلك التحدي، في تلك اللحظة، كان يفسر كل شيء.

كان جسد المرأة المعاقبة ملفوفاً في قماش. وعبر تمزقات ذلك الكفن قبل الأوان، تظهر خصلة شعر، وفي موضع آخر تظهر

قدم بالأظافر ذاوية، وكانت القدم منقبضة بشكل فظيع. لم يكن ممكناً رؤية أي شيء آخر، لكن بعض البقع الحمراء كانت تلتصق القماش.

كانت الحمى قد أنهكت الجلادين. كانت معافطهم القديمة تغطيهم بالغبار. كان شحوب الشفق يخفف من نفور شواربهم. كانت أعينهم المحترقة تحت حواف القبعات تلتهم ما تبقى من الحياة. كانوا يرتجفون مثل الجثث المكهربة. وكانوا يبذلون جهداً كبيراً للتماسك حتى إن العرق قد غطاهم. كان وجه الرقيب شاحباً كالجمجمة، وكان أكثرهم شراسة، وهكذا كان يبدد أي أمل.

معاييره، التي تم رد الاعتبار لها تماماً عن طريق العقاب، لم تكن تسمح بأي شيء سوى الخضوع للملك، مضحياً بنفسه من أجله، ومعذباً للعنيدة التي أهانته. أبقتهم هذه الفكرة على أقدامهم، كأنها تخوزقهم.

ربما كان شيء ما قد أيقظ ضمائرهم أمام تلك المرأة التي كانت تعتني بهم باهتمام كبير، أو إزاء شفقة صديقاتها. لكن لِمَ أهانت جلالته؟ إن كانت أمهاتهم! كانوا سيجلدون أمهاتهم شخصياً!

كان بعضهم ييصقون الدم تحت الارتعاشات التي يسببها السعال. كانت الحياة تطفو حول كل جسد كأنها خرقة مربوطة إلى قائم خشبي. وكان التمثال يبتسم لهم بتطويبات بخديه

الموردين.

عندما رآها الرقيب، تهته حائراً بسبب هذه الزيارة التي لم يفت مغزاها عليه. لكن، ألم يكن الملك والعدراء أقارب على نحو ما؟ عدراء وطنية إن أرادوا. لكن في نهاية الأمر كان المتمردون مهرطقين لأنهم كانوا يسبون الملك.

تجسدت هذه الفكرة بسرعة في إيحاءة. عملت العصا من جديد، وبما أن النساء الذاهلات من التأثر لم يتحركن، هددهن بعصاه. حينئذ، تركن المكان إزاء التعصب الغبي لهذه الأشباح التي تعاقب باسم الملك. من خلفهم كان السوط يعاقب بالمئة الثانية...

تلاصقن تحت مظلة السحب بينما كن ذاهلات بسبب الرعب. انفتحت لهم لمحة من الشمس في تلك اللحظة، كأنها شق في الجنة. من دون شك، كان شلال الملائكة الذي كان سينفخ أبواقه بقوة على التدنيس. ولم تتعرف المخلصات على التمثال في بقعة الشمس التي تنيره. كانت العدراء قد شحبت بسبب شق خارجي وداخلي إعجازي.

## نهر ضحل

النهر، في عصر مائل للحمرة. ثلاثة جدران جبلية، أرجواني، ونيلي، وأزرق، متدرجة في الأفق، أشجار كثيفة باتجاه قاع الوادي، وكان هناك رجل مقرص في الجرف.

أخذت الفرقة الملكية الصغيرة في السير في ذلك المكان. كانت مكونة من عشرة فرسان تائهين بعد الهزيمة، وكانوا يحاولون العثور على الطريق وسط تلك الحقول.

كانت حيلة من الجاوتشوس. كان الطريق يمر بين الأشواك أو ملتصقاً بالتشعبات بين الأشجار، وكان يقودهم إلى الجبل دون صوت أو خشخشة للأوراق الجافة المتساقطة. تذكروا المأساة منذ دخلوا بين الأغصان. في البداية كانت هناك أجزاء كثيفة من الغابة وتخللها أراضٍ خلاء، والتي كانت تدعو للسير. لكن الغابة المنفتحة بهذه الطريقة كانت تتداخل فجأة، وفقدوا الطريق بعد ساعتين.

كانوا يمسكون ألجمة البغال بينما يفتحون الطريق بالسيف بين خيزران الأعراس الذي كان يتقوس خلفهم بقوة. كانت أسطح

المستنقعات خادعة، تبدو صلبة لكنها كانت رخوة كجلود حيوان اللاما. وكان شخير البغال فقط هو ما يكتشف الأرض الموحلة في الأوان، رغم أن هذا لم يكن يحدث دائماً. ابتلع الوحل أكثر من جندي حتى الخصر. كانت الرطوبة تخترق أجسادهم، ويشعرون بالألم في صدورهم، وتصفر أسننتهم بالحمى.

في الأعالي، رياح خفيفة لطيفة. وفي الأسفل عصر هادئ لا يكاد يقطعه سوى هديل اليمام. حكى بعض العارفين أساطير الجبل. كان جامعو عسل، معلقون في الفروع العالية بأحزمة مرتجلة، يفتحون خلايا النحل بضربات البلط: كان الكثيرون يفقدون توازنهم، ويظنون مثبتين من آباطهم فقط بينما يتمايلون في الهواء على ارتفاع عشرين متراً. تحدثوا عن النباتات التي كانت أجسادهم تطفح في ظلها، وعن الضفادع المنتفخة، وعن الشعابين. كانت هناك تماسيح في بعض الأنهار...

في بعض الأحيان كانوا يسرون بالإصبع على الزناد، منحنيين في الطرقات التي فتحتها حيوانات التابير عبر الغابة مثل الأنفاق الأسطوانية، حيث كان الضوء شفقياً أخضر، وفي غضون ذلك، كان آخرون يتسلقون في الأعلى، ويتقافزون فوق أراجيح من النباتات الزاحفة. إذا سقطوا إلى أسفل، فإن وسادات من أوراق الأشجار تخمرهم في دوامات كالأمواج.

في بعض الأحيان كانوا يجدون أنفسهم في أرض خلاء، حيث تقفز بضعة أيول شادن بمطاطية فوق الشجيرات عندما تشعر

بهم. وبعد أن توحى لهم الغابة بأن هذه هي النهاية، تبدأ من جديد. بعد مسيرة طوال عشر ساعات ينتهي بهم الأمر في نقطة البدء. لأنهم كانت يحيدون إلى اليمين دائماً أثناء حركتهم ولم يكونوا يرون الأفق. ودائماً حفيف أوراق الشجر! دائماً عدوانية الجبل! تلك الأذرع من الحطب تضاعف من حصارها لهم أكثر فأكثر؛ وكانت المسيرة تشق عليهم للعثور على الماشية التي لا يعثرون عليها.

كانت الخنازير البرية تزأر بشكل مخيف في بعض الأحراش. كانت الألوان الرائعة للزرع تخيفهم. زهور الياسمين تتساقط متطايرة كالفراشات. بتلات حريرية رقيقة كانت تداعب وجوههم، وكانت أنفاسهم تحيلها سوداء. وكل هذا البهاء الربيعي الذي يسود فيه اللون البنفسجي الناعم، كان يبيث السموم تحت جماله الهش.

اليوم الأخير كان مربعاً. حشية الأوراق التي كانت تفرش الأرض كالبساط كانت تنتفخ برطوبة متزايدة. كان السرخس ينثر نداوته الغزيرة. كانت الحشائش متداخلة في كتلة شعرية، وعندما تنكسر سيقانها تتساقط منها المياه اللاذعة وسوائل بيضاء كاوية. أصبحت أبخرة الغابة محسوسة، حيث كانت تبلل الجلد بلزوجة بذر الكتان. كان هناك جدول يشكل حوار المستمر من الماء والحجر على مسافة قريبة.

توقفت القوات تحت ثقل التعب والوحدة. لم يكن هناك صوت

واحد في تلك الساعات الأخيرة؛ أو ببغاء ينعق، أو ثعلب ينزلق عبر الحشائش. لم يكن هناك سوى طيور الطنان التي تكهربها الحرارة تحت الشمس.

لكن مع غروب الشمس، خرجت رصاصة من الأدغال. وكأن كوز ذرة من الرصاص ينفرط، بزغت الرصاصات من الأرض ومن الفروع، كان بعضها قريباً جداً لدرجة أن البارود عندما يشتعل، كان يترك وشماً مثل قبلة مصاص دماء. فشلوا في الدفاع، فأخذوا في الفرار عشوائياً من إطلاق النار كان بعضهم يعلق بالجذور ويسقطون، فتغرّسهم رصاصة في الأرض. وآخرون يتطايرون بسبب عثرة من المطية أو الارتطام بالفروع، فيعضون التراب. كانت البغال تتعثر وتسقط وسط الأشجار الكثيفة. في الظلام الذي هزته الانفجارات، تصاعدت سحب من الدخان مثل ريش مالك الحزين. لم ترد بندقية إسبانية واحدة.

سمع الناجون من مخابئهم كيف يتم ذبح الساقطين. وسقط ثلاثة أو أربعة آخرين في مخالب رجال الميليشيات الريفية.

خرج الباقون في النهاية من الجبل، وهم يحثون الخطى ومغطون حتى حواجبهم بالزغب. وجدوا أنفسهم بجوار نهر، حيث يجلس رجل مقرّصاً في جرفه.

اتجهوا نحوه عندما رأوه. كانوا يبحثون عن نهر ضحل على وجه التحديد، ولهذا الغرض كانوا بحاجة لرجال من أهل البلاد.

لأن تدفقاً عكراً كان ينساب في ذلك المجرى الذي كانوا يجهلون عمقه. بالإضافة إلى هذا، كان المخلصون المهرة في التعامل مع الخيول يعرفون الطرق لكي يوجهوهم ويرشدوهم في التيار. كانت هذه هي المشكلة؛ لأنهم سيعومون.

لم يكن يبدو أن الرجل قد رآهم، كان ساكناً في قرفصته. كان وجهه كجنين وجمجمته الضئيلة يوحيان بأنه أبله، لكن هذا لم يكن أمراً هاماً. سواء كان عاقلاً أو نزقاً، سيفهمهم بالسيف. وكبداية، ضربوه على قفاه ضربة بظهر السيف. نهض الأبله، كان نحيفاً للغاية وسط ملابسه المهلهلة، رأسه حليق تماماً بشكل يرثى له. كان يضحك، ووجهه الثابت على تعبير واحد يبدو كثمرة تين يحرك فيها شفثيه الغليظتين المملتتين بالمخاط. كان يرتعش من الألم، وفي الوقت ذاته تبللت جفونه المليئة بالعماص. كانت رائحته كريهة كطفل متسخ بقروح ينساب منها سائل أبيض وجلد ممتلئ بالقاذورات. رد بتلك الضحكة فقط في البداية. وبعد ذلك، أمام تلميحات وإلحاح بعض النغزات، تأوه بينما ينطق بسرعة أصوات اللام تباعاً.

شعر الجنود بغضب أعمى. ربما كانت تلك اللغة البلهاء تخفي علاقات هامة. صرخوا بتهديدات وتجديفات. لكن الأبله عاد للضحك مرة أخرى بعدما شعر بالخوف

تكلموا معه مجدداً، ببطء، بينما يشددون على نطق أسئلتهم ويصحبونها بالإشارات. النهر... المد... البغال... السيوف... الملك...

حجبت سحابة وجه الأبله. واحتبست الضحكة في حلقه، وربما أضاء وجهه لأول مرة بفكرة. أصبح ذلك الوجه مربعاً لفرط قبحه، كأن الفكرة البسيطة تغطي قبحه بالبرونز. تردد خلال لحظة. أشار نحو النهر، امتطى الرجال بغالهم، وبدأت المجموعة في السير خلفه.

كان هناك كوخ متهدم بالقرب من ذلك المكان، وتصدر منه أحياناً دقات على سندان، صرير حاد لمطحنة، صفير منفاخ، وفي الليل تصدر زوابع من الشرر. كانت ورشة وطنية، يقوم عليها هندي عجوز والأبله. كانا يعيشان على بضع نعاج، وينتهزان طراوة الجو للعمل ليلاً.

كان المنفاخ مصنوعاً من بطن ثور، وينفث الهواء فوق الفرن. كان الفتى يقوم بحركات مضحكة في العتمة عندما يكون عارياً حتى خصره، وكتفاه متوهجتان بسبب الحرارة، ونصف وجهه ممزق بسبب اندفاعات اللهب الذي ينتشر فوق جسده كأنه سائل كاو. ويبدأ رقص الظلال مع تطاير الشرر، حيث كانت الأغراض تتضاعف وتنتشر. والأسطى يصفق له في أثناء ذلك. يتغير لون الحديد شيئاً فشيئاً ليصبح باللون الأحمر الداكن المائل للبرتقالي، وكالدم الفاتح، بل وبلون ذهبي كالعسل البري. وينتهي بهما الأمر بحب ذلك الجمر كأنهما يحبان شخصاً، ويريانه كشيء ما شبيه بألوهية غامضة.

كانا يشتغلان القطع الثمينة، في أوقات أخرى، بينما لا يعمل المنفاخ، ويجعلانها تزهر بورود صلبة، أو يزيلان الصدأ الكثيف أو يصهران المعادن في بوتقات من الطين والصوف، ويسكبان الصهارة في حفر كالقوالب في الأرض.

لكن الحرب أثرت على تلك الصناعة سلبياً. لم يكونا يريان حلية أو إناءً من الفضة إلا كاستثناء. أما عن الذهب فلا شيء منه إطلاقاً. الحديد فقط، من المهاميز المكسورة حتى الحلقات المتآكلة. وكانت الأسلحة التالفة تخرج وقد استعادت شبابها مرة أخرى، لتخترق الجلد الإسباني من جديد. أو كما كان الأسطى يقول عن البنادق القصيرة "رائعة الجمال كصبيات"، والتي تهدي الموت في تلك التلال، أو الحراب التي تطلق أشعة سريعة كلمح البصر.

ومن خلال الاحتكاك بهذه الأسلحة، وأيضاً بسبب حواراته مع معلمه وسماعه عن الميليشيات الريفية، بزغ بغض في الأبله. الإسبان... الفرسان الإسبان...

هذه الكلمات كانت تساوي نخزة في غريزته؛ شيء ما كالصوت الذي يثير حيواناً مطاردًا.

عندما يتوقف الأسطى عن العمل لمضغ أوراق الكوكا في المساء، كان يجب المرتفعات المحيطة بينما يحمل النبلة أو الفلاوت. أحياناً تكون السحالي التي تعيش على راحتها هناك هي هدفه، وأحياناً تكون شياهاه هي هدفه عندما يقوم بجمعها

لإعادتها للحظيرة. كان يضحك في الماضي عندما يخطئ التصويب. أما الآن، فيدق على صدره بغضب. كما كان يحدث عندما يصيد الأسماك. وكأن حرارة الغضب تفصل وعيه عن بلهه، وتنتهي اندفاعات الغضب بحلم.

كانت نوبات الغضب هذه تنتابه بشكل أعنف خلال الليالي الحزينة. كان يستلقي مع حيوانات الراكون اللاحم على ضفاف الأشجار، بين الشجيرات، وكان يبكي كطفل تائه. بعد انتهاء هذا الكرب، كان يظل لساعات في تجويف ما، مشدوهاً أمام سيقان الزنبق التي تتماوج تحت بريق النجوم. لكنه كثيراً ما كان يختار الوادي في المساء.

كان ذلك الجدار ينهض غير منتظم فوق الفراش، وكان مشوهاً بفعل الحت، فيبدو كرقائق القرفة. كان السطح المشمس في الأسفل يكشف عالمًا من الجزئيات المضيئة. كانت ومضات طويلة تسم المروج بخطوط ذهبية. وبعيداً، كان التيار ينكسر على صخرة ما. كانت السهول الخضراء تمتد، وبعد ذلك الغابة بحياد عديم اللون، وفي الخلفية، تتوهج سلاسل الجبال باللون الوردي عند غروب الشمس.

إن كان هذا يقلل من اندفاعاته، إلا أنه لم يكن يقتلع حنقه. كانت روح الإقليم الذي يزرع تحت الحرب تتوغل فيه. وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف لغة سوى تلك الخاصة لاستيقاق الحيوانات: قصيرة للخيول، وطويلة حزينة للأبقار، كانت عيناه تلمعان

عندما يسمع حكايات المعارك. كان رجال الميليشيات الريفية يطلقون عليه بمودة وشفقة لقب "أبله الوطن".

كانت الحاجة ملحة لالتحاق الفرسان الإسبان بفرقتهم التي كانت قريبة. كان الفتى يركض على ضفة النهر، بينما يغني لحنًا محليًا بصوت خفيض، لكنه عذب للغاية. كان صمت العصر يفرض نفسه. بالكاد كان هناك صوت قعقة حدوة حصان على الحصى، أو تصادم سيوف وكانت غمغمة النهر تعادل الصمت بسبب تكرارها. من حين لآخر تخرج سمكة في قفزة مفاجئة قصيرة. كانت رائحة الخوص أكثر حدة مع الرطوبة المتزايدة، والطمى يبخر رطوبته بأبخرة معبقة براائحة الروث. تلاشت زقزقة طائر في الجو بعيدًا.

حينئذ، صدر ثغاء في مكان قريب. توقف الأبله، ذهب في الاتجاه الذي أتى منه؛ بحث وسط الأعشاب لبرهة، وبعد ذلك بقليل نهض بحمل بين ذراعيه. كانت الأم تتبعه على مسافة قريبة. كان وجه الفتى يتلوى بالضحك بينما يحمل الحمل الرضيع في صدره؛ فعلى الرغم من نوبات الغضب اليومية، كان يبسط على قطيعه حبًا يشبه إلى حد بعيد المودة الأسرية. كانت إحداهما هي زوجته، والآخرين هم أخواته. وكان يدافع عنهن حتى الموت أمام الصقور والثعالب أثناء طفولتهم، لكنهم كانوا يكافئون جهده بمداعبات الصغار، كأنهم يحممونه بصوفهم الجديد، وتعبيرهم

بينما يلحقون يديه ووداعتهم في الركون لحمايته. بل إنه كان يحمي أكثرهم ضعفاً في صدره. واعتاد على القتال مع القطيع، ليدخل في معارك حامية لإخضاع الكباش التي ترغب في معاشرته نعجته.

ولم يفوت الجنود هذه الفرصة لتناول الطعام، وذبحوا النعجة والحمل في لحم البصر. عندما أمسكوا بالحمل، انحنى جسد الراعي كأنهم يركلون بطنه. صرخ متعذباً بعواء حقيقي، لكن التهديدات العنيفة منعه من هذا، واستأنفوا السير.

كانت بعض الآثار تشير إلى المنطقة الضحلة من النهر. ربما كان النهر لا يمتد كثيراً، وتوجد طرق أفضل، لكن صبر الرجال كان ينفد. رأوا دخاناً بعيداً، وبدا لهم المعسكر. بعد ذلك، لم يكن في الأفق سوى شبرين من الشمس.

خلع المعنوه ملبسه، واتجهت نظرتة إلى الكوخ حيث كان الأسطى ينتظره في تلك الساعة، وعكرت تلك النظرة الموقف بضباب حزين. ثم استدار إلى الجنود والماشية والبغال...

بعد فك سروج البغال، أخذت في التهام الأعشاب بنهم. جهز الفرسان طوقاً لأغراضهم. نقلوا نصفها بعد جهد شديد؛ لأنهم كانوا يجرونها بأيديهم وأسنانهم.

ثم حان وقت دخول الآخريين والبغال في الماء. كانوا يدفعونها بالصرخات والإشارات. كانت أنوف البغال ترتعش، تشم الأعماق، ثم ترجع للخلف. انهالت ضربات السياط على مؤخراتها النحيفة. أثارت طرطشات الماء بأجسادها المتقلصة، ثم غرست حوافرها في الحصى. استدار بغلان فجأة إلى الخلف، وانطلقا في الحقول. صرخات جديدة، ضربات سياط جديدة. في النهاية، غاصت البغال واحداً تلو الآخر ببطء، ترددت لبرهة مثيرة دوامات، ولم يعد مرئياً في النهر سوى صف من الآذان الداكنة مثل علامات تشكيل فوق سطر. غاص الأبله بدوره في اتجاه التيار مع الرجال الباقين. وعندما خرجت رأسه، شملت نظرتة الأولى المكان الذي كان يبدو أكثر بهاءً وعظمة أكثر من أي وقت مضى بسبب وداع النهار.

كان المساء يطيل آفاقه الأرجوانية في الغرب، وشعاع شمس يشطف سطح الماء، والشرر يلعب بقشعريرة ذهبية كالترتر فوق البريق العاكس. كانت سلسلة الجبال تبدو زرقاء في الجنوب وفي الشرق. وكانت هناك سحابة في الشمال، وتبسط نقوشها بلون أصفر داكن محمص، والذي كانت الشمس تغمره بغبار ذهبي.

كان أبله الوطن يسبح بذراعيه خارج الماء بجوار البغال: في مقدمة صف السابحين. ومع كل حركة تبدو ظهورهم برونزية بسبب الشمس. كان يوجه البغال بطرقات الشفاه والصفير. كان يسير بجوار أول البغال بينما يمسك الجنود بذيلها. كانت أنفاس

لاهثة تحرث سطح الماء. تعقد الوضع كثيرًا، لكنهم أصبحوا في منتصف الطريق.

وقع حادث عارض فجأة. رفع الأبله صدره فوق سطح الماء، ودفع رأس البغل الذي يقوده بضربة واحدة ليغوص تحت الماء. كان هناك دفع باليدين، ظهرت فقاعة من الرغوة، وانجرف البغل مع التيار. كما استسلم آخر تحت قبضته، وآخران وخامس، وسبح الإسبان للدفاع عنها.

قفز الفتى فوق أقربهم، وضربه ضربة قاتلة على قفاه بينما يعوي عواءً عميقًا. أخذت الأمواج في الارتفاع والهبوط وسط حلقة من الرغو.

اختفت تلك العقدة من الأذرع لبرهة، وظهرت بعيدًا، بينما تصحبها اختناقات، واختفت مرة أخرى، دائمًا في اتجاه تيار الماء. بعد ذلك انتصبت ساق متصلبة. كشفت الموجة الأخيرة عن كتف رجل هارب، وقبضة يائسة تمسك بمؤخرة بغل. وغرقت الحياتان أخيرًا في دوامة، بينما ينتصر الباقون بجهد كبير على الأرض العميقة، ووصل بغلان للشاطئ، بينما كانت الشمس توشك على الانطفاء في الأفق مثل طلقة مدفع دون دوي.

## معسكر

كان قائد الفرقة، الشهير بأنه ثرثار، يتحدث أمام الجميع.

كانوا يتناولون الماتيه حول النار، والرماد يغطي الحطب الذي يتضاءل بريقه مع تطاير الجمر. الرجال السبعة، بما فيهم الملازم، يتشاءبون خلسة، ويخدعون رغبتهم في الطعام بالماء الساخن في ليلة الجوع تلك. ومما زاد الطين بلة وجود رجل جريح بينهم. كان الرجل قد خاطر كثيرًا في قتال اليوم السابق، ومزقوه إربًا بالسيوف. لكنه كان يشارك في التعليقات من موقعه على الحشية القريبة من النار.

وبما أن موضوعات الحوار قد نضبت بعد برهة، تلهوا بلعبة التخمينات:

عجوز تمتلك سنة واحدة،

تنادي على كل الناس.

- الجرس!

كرة مكورة. بوجه هندي عجوز...

## - المدرع الإنديزي!

بعد ذلك طلبوا من القائد أن يحكي لهم حكايات، ووافق على هذا عن طيب خاطر. كان يحكي بينما يفك لفات شريط جلدي، ويقوم آخر بتحميص قشرة ثمرة من الفصيلة الدفلية لاستخدامها كدواء. استمع الآخرون ساهمين بينما يدخنون سجائرهم المعطرة بقشور الثمار. كان الماتيه محلى بالعسل، ولهذا فقط، وليس لأي سبب آخر، كانوا يعيدون إضافة الماء لأعشابه، لكن هذا الظرف المواتي كان مصادفة. في ذلك العصر، عندما كانت خيولهم تشرب في البركة المجاورة، ارتفعت نحلة من الوحل وتبع القائد طيرانها بعينيه. كان النحل كثيراً ما يأتي هناك لامتصاص الرحيق، وهكذا عثر بعد ذلك على خلية النحل معلقة في فروع شجرة تيبوانا تيبو. كان سكر الغابة يخفف من الطعم الماسخ للماتيه. توات الحكايات. أخبرهم بما حدث لإحدى الفرق ذات مرة.

بعد عاصفة أغرقتهم خلال يومين، صفت السماء في اليوم الثالث. انتهزوا الفرصة لتجفيف أجسادهم والراحة، وبسطوا ستراتهم على الأحجار، وعلقوا قبعاتهم على بعض الأشجار التي ناموا في ظلها.

كانت قبيلة من القروء تتقافز على الفروع، وكان أحدها

أكثر شقاوة من الآخرين وسرق خوذة فقلده الآخرون. وعندما استيقظت القوات، كانت القبيلة تتقاذف في الأعلى بالقبعات تزين رؤوسها.

لحظة من التوتر. كان إطلاق رصاصة سيفزع تلك الحيوانات وسيضيع كل شيء. حتى تلك اللحظة كانوا يلعبون، مستغرقين في سحر خدعتهم. لكن يمكن التكهّن بتغيير تصرفهم من خلال هيجانهم. كان أحد الجنود يعرف عاداتهم، وفي النهاية قام بتدبير خطة. أمسك بقبعته وأخذ يحركها دون توقف لإثارة اهتمام اللصوص، ثم ارتداها. توقفت الصخب. اتشح مئة وجه صغير بسخرية بالغة تحت ظل حواف القبعات. أدى الجندي تحية مهيبية بقبعته. قلده الأشقياء. لكن بعضهم كانوا مترددين بعد، ولهذا كرر حركته. رفع ذراعه لبرهة. وفجأة، قذف القبعة بتعبير غاضب. وعلى الفور، سقط وابل من القبعات من فوق الأشجار وسط القهقهات والتصفيق احتفالاً بالخدعة. علقوا على الخاتمة بصيحات جعلتها السخرية أكثر مبالغة. وبين ضحكات ولكمات، صدرت حكمة موجزة فلسفية، لتلخص الواقعة وسخريتها:

- إشششش...! إن لم أرَ بعيني لما صدقت.

ظلوا صامتين لفترة من الوقت، ينظرون إلى وهج الأوراق الجافة التي أوقدوا بها النار للتو، ويرسمون أشكالاً على الرماد:

صارٍ ينتهي في الطرف العلوي بخطاف مزدوج، في الطرف الآخر ينتهي بمطرقة مزدوجة، وحرف s في المنتصف. مخروط يشقه درع دائري صغير، وتخرج منه مطرقة إلى اليمين. شكل بيضاوي غير منتظم، يوجد خط تماس في طرفه وقطر موازٍ له في الجانب الآخر. رمح ثلاثي الرؤوس ينتهي مقبضه الملتوي بهلال مقلوب...

وبما أن القائد لم يكن يغضب من السخرية، استمرت الحكايات.

ذات يوم كان النمر يتقافز في الجبال برفقة ابن أخيه الثعلب. في نحو الساعة الثانية عشرة، بعدما شعر بالتعب، نام على ضفاف بحيرة، وكلف الآخر بمراقبة المكان المحيط.

جاء قطيع من الغنم ليشرب، لكن النمر احتقر هذه المخلوقات الحقيرة.

جاء ثور. عجوز للغاية. طعمه غير شهوي.

جاء جحش. لحم سيئ. له مذاق البطيخ!...

في النهاية، صاح الحارس:

- يا عمي، هناك حيوان قادم...

- أي حيوان سيكون يا خوان؟

- غير مخصي، سمين، يمكن شقه بالأظفر!

مكث النمر بين الشجيرات مترصداً، قفز على العجل وأسقطه بضربة واحدة من مخالبه.

بدأ الوليمة. بدأ العم أولاً بتناول الدم. بعد ذلك مزقا العجل. ساعد خوان في صمت، منتظراً الأحشاء. لكن، كما قال النمر، كان يرى الجلد الملطخ بالدم شهياً للغاية. وبمجرد الانتهاء من العمل، كافأ ابن أخيه بالمثانة. جعله يعود للمراقبة مرة أخرى، واستكمل في قيلولته.

بدا الحماس في عيني القائد المرحتين. كانت مهارته كرجل متمرس قد علمته الخبث. كانت لحيته الشيباء تتقافز فوق صدره. ولمهارته كحكاء، توقف عن الكلام، وانشغل بمضغ حفنة من الكوكا المتبقية في علبته.  
آه، العجوز!...

لا غنى عنه في أي احتفال، كان مشهوراً على السواء بمهارته وببطنه الذي لا يمتلئ.

- حسناً، وهذا ما حدث بعد ذلك:

كان خوان ينظر للأحشاء التي لا فائدة منها بينما يموت من الجوع. قام بنفخها لكي يزجي وقته، وفي أثناء ذلك كان يضع خططاً للإتراع من الطعام، حتى خرج في النهاية بنفع من طعامه

القليل.

أمسك بعشر ذبابات كبيرة جذبها اللحم، وحبسها داخل المئانة. ربط اللعبة بذيل عمه الذي أفاق من نومه على صرخة:

- حشد، حشد من الناس!

ألصق النمر أذنه بالأرض. خدعه أزيز الفزاعة، ترك فريسته وفر هارباً، بينما تلاحقه مئانة مليئة بالذباب.

منذ تلك المرة، كلما وجد الثعلب جيفة، كان يخبئ جزءاً منها في الجوار قبل أن يأكلها، ويهرب بمجرد أن يشعر بقريبه، لكن مؤنه في أمان.

كان الملازم يطحن التبغ على ظهر سرجه. كان الخنجر يدق على الخشب، ومن حين لآخر يشحذه صاحبه على الأحجار ذات التشكيل الثلاثي التي تسند الغلاية. كانت تلك اللعقات الفولاذية فقط هي من تكسر الصمت. بعد الانتهاء من حصة التبغ، حفظها الرجل في كيس التبغ وربط الغطاء بقوة. كانت الحويصلات المليئة بالعسل تلمع مثل صخور التوباز فوق اللحاء المتقشر المتناثر على جذع شجرة تيبوانا تيبو..

طلبوا حكاية أخرى من القائد الذي لم تكن حكاياته تنضب. كانوا يحبونه ويحترمونه في الوقت ذاته بسبب مهاراته، سواء

لرفع دعوى قضائية أو للتنقيب في منجم. لم يكن هناك أي شخص أكثر مهارة وابتكاراً فيما يتعلق بالطهي. من شَيِّ السمك ملفوفاً في الوحل ليحل محل الفرن، حتى ارتجال مشروب من العسل والبذور، حيث يستخدم وافي السيقان كزق. كان يحمل معه دائماً زجاجة بها دهن نعام لمداواة الجراح، ومشرباً مصنوعاً من سن حاد لحيوان البيسكاتشا، والذي كان يستخدمه للحجامة. كانوا يحبون حكاياته، وكانوا يسمعونها منه طوال ليال كاملة. أصبح الانتباه مضاعفاً لأنه وعد بحكاية عن الأشباح.

مات رجل من أهل منطقة ما ودفنوه. وبعد ثمانية أيام تم غسل الأرملة وممتلكات المتوفى في جدول قريب. وكما جرت العادة، غسلوا كلبه أيضاً وشنقوه.

أشاع البعض أنه مات غاضباً من المرأة -روح مباركة!- وأنه لم يرغب في التوقيع على الوصية لصالحها. بغض النظر عن هذا، بعد مرور عام بالضبط، بعد الانتهاء من القداس على روحه والذي عقد في القرية، عادوا برفقة الأرملة إلى بيتها. أغلقت على نفسها غرفة النوم، بينما كان خدماها يعتنون بأمر المرافقين الجالسين حول المنزل، ويقدمون لهم العرقي والكوكا، حتى حل منتصف الليل وظهرت صاحبة المنزل بملابس حمراء، مما يشير إلى نهاية حدادها وفي الوقت نفسه لبدء الرقص للاحتفال بهذا.

كان الليل صافياً رغم عدم وجود قمر. كانوا يتهامسون في مجموعات، بعضهم عن السباقات، آخرون عن علاقات الخطوبة

والعرس، وآخرون عن الميت. كان أحد الغرباء الذين سكنوا المنطقة يرتدي ملابس المتوفى، التي تم كيها جيداً يوم الغسل. وكانت الأرملة التي كانوا يعتبرونها عاقراً، على وشك الولادة.

هكذا كانت الوليمة على روحه، التي كان ينتظر أن تكون هائلة في عيد الأموات، ستصبح وليمة عرس غامض...

أخذت الكلاب في النباح وسط هذه الشرثرات. أبعدوا الكلاب. لكنها بدأت مرة أخرى على مسافة قصيرة، وتكرر الأمر للمرة الثالثة والرابعة. وضع الحاضرون قبعاتهم مقلوبة دون جدوى: لم تفلح التعويذة. حينئذ لاحظ البعض أن كلباً مجهولاً يقود حفل الغناء الكئيّب. واقترب منه آخرون، وتعرفوا عليه في الحال. كان كلب المتوفى!

في تلك اللحظة شعر الرجال بالخوف من صوت طرقة مفاجئ. لكن الملازم شرح الأمر بنظرة إلى حدائه. كان هناك عود ذرة على الحافة، وعندما قطع منها ورقة ليمسح بها مديته، وجد أنثى ثعلب.

تبادلوا النظرات، وابتسموا بينما يشعرون بالأمان، وقام من يتناول المانيه بتحليلته بوضع القليل من العسل في الماء.

-... أخذ الحيوان الغريب في الركض فجأة، وصل حتى السور، وبما أن أيّاً منهم لم يطارده، عاد للنباح. أطلقوا عليه الكلاب الأخرى، لكن دون جدوى. حينئذ قرر أكثر الفتيان شجاعة

كانت هناك بعض الأكوخ المتهدمة في الجوار، بقايا قرى لم تعد حتى أسماؤها موجودة، وتوجهوا إلى هناك، لكن ما حدث لم يكن معروفًا. فعند طلوع النهار ذهب الناس بحثًا عن الفتیان. كان أحدهم على الأحجار وآخر بين الأشواك، عثروا عليهما فاقدی الوعي بسبب الرعب. ومنذ ذلك الحین یصدر عنهما شخیر مثل حیوانات.

هل كانت الأم القديمة للتلال؟ هل كانت روح الميت أم الشيطان نفسه هو ما أخافهما؟...

بالكاد أمكنهم معرفة أن أحدهما، عندما أمسك بالكلب/ الشبح، لم يقبض إلا على شيء يشبه غلالة من التول المتطاير، وسرعان ما تبخرت بين أصابعه. أجهضت الأرملة في تلك الليلة. ومنذ تلك الليلة ذاتها، أصبح الكلب يثير الرعب في تلك الطرقات. كانت إخافته هي أسوأ شيء؛ لأنه يصبح أكثر عنادًا. وبخلاف هذا، كان يتلاشى مع أول ضربة سوط تطرق على جسده الهلامي.

ازداد سلام الغابة حول النار. كانت بلورية الليل ترتعش بوميض النجوم، التي تنثر ضوءًا بلون رمادي كالحديد. كانت أبخرة حارة تخنق الجو. تلاشت الرائحة الحادة كالنشارة الجافة في دفقات روائح الغابة، التي تزيدها الراتنجات قوة. كانت التلال تبدو سوداء كأنها ظهور لشفاية معتمدة. كانت مجرة درب

التبانة تمد انعطافتها النهرية في الأفق، وتغطي سماء الجنوب بالنجوم. وظهر القمر في الشرق، على حافة سحابة تشبه شريطاً من القصدير المنصهر. نهمت بومة في مكان بعيد وسط الأشجار الكثيفة، وأدى تأوه الطائر لتفاقم الوحدة. كان الرجال غارقين في اللانهاية، وشعروا بالتوتر الذي يحمله الصمت. هناك، بعيداً للغاية، كانت نجمة شاردة يتيمة ترسم أخدود دمعة في اللانهاية...

تحدث الجريح بدوره. كان أسود غليظ الشفتين، وكانت أخلاقه اللطيفة وضحكته الأبدية مضرب المثل في روح الدعابة. هو أيضاً كان يعرف واقعة، وليس حكاية، بها كلب.

وقعت له أثناء رحلة قام بها كمبعوث للميليشيات الريفية. كانت رحلة فظيعة، تركته طريح الفراش لمدة عشرين يوماً بسبب تورم قدميه.

سافر عبر البلاد مسترشداً بالنجوم. كان يحمل أوراقاً سريّة مخططة في حافة قبعته. كان يعقد حزمًا من القش في الوديان، لتصبح علامات ييحث عنها إذا عاد ليلاً؛ ودفن زقوق ماء في الطرق من أجل العودة أيضاً.

ذات مرة كان عليه أن يقطع سلسلة الجبال مما اضطره للسير في طريق جبلي حيث كان هناك نصب مقدس من الأحجار المتراكمة. كادت تلك الكومة من الأحجار أن تختفي تحت حفنات

الكوكا التي كان المسافرون يتركونها فوقه. لكنه لم يكن يحمل كوكا، ولهذا أضاف حجرًا آخر لمباركة رحلته. واستمر في طريقه، لكن لم يفت عليه أن كلبًا نحيفًا ترك الكومة وسار خلفه.

كان عصرًا في شهر يوليو، والطيور تزقزق بحزن لانهائي. كان الغروب يبدو ذائبًا في لون أحمر فاتح عبر جذوع الأشجار. كانت مؤن الرجل قد نضبت. وكان طعامه الأخير في ذلك الصباح عبارة عن القليل من الذرة المحمص والكوكا وبقايا مؤن الأيام السابقة. ربما يمكنه أن يأكل قلب ثمار النخيل. لكن هذا، بأقصى حد، يمكن أن يخدع الجوع قليلًا.

فك السرج في أحد الوديان مع الغروب، وذهب للبحث بشكل عشوائي، محرّكًا الشجيرات ليرى إن كانت هناك فريسة ما. عاد بخفي حنين.

اتجه متنكّدًا إلى فراشه، جذب غطاءه بينما يطلق اللعنات لعدم وجود عشاء أفضل، وفي أثناء ذلك انتبه لوجود حركة بالقرب من السرج. كان الكلب الصغير الذي تبعه، وكان جائعًا من دون شك. بينما كان يجوب بين الأعشاب، مضغ جزءًا من الأحزمة.

نفث غضبه بغضب صياني ضد تلك السرقة. أمسك بالكلب، وغرس السكين في عنقه، ثم ألقاه بركلة بطرف قدمه. تدحرج جسد الكلب بين الأعشاب بينما يئنّ ألمًا، كان يشبه كرة من الوحل مليئة بالشعر والجذور. كان تعب الرجل هائلًا لدرجة أنه لم يتوفر

على وقت للتفكير فيما فعل، ونام متدثرًا بالبونشو.

مرت الساعات. كانت أطراف الغطاء مغطاة بطحلب أبيض كندف الجليد. بدأت رياح الفجر في الهبوب بقوة. كان البياض الجليدي للقمر ينبض بأناقة حزينة في الأفق، وهو ما كان يضيف الحيوية على بريقه، فتعكس الأشياء ظللاً. كان الفجر يطلع. كانت كوكبات النجوم تبدو بيضاء في اللانهاية كأنها لوحات من الزهور. وحطت هالة الشفق المضيئة فوق التلال الضخمة. كان شحوب شائه يغطي الأوراق.

فجأة، شعر الرجل أن هناك من ينتزع شعره. نهض مفزوعاً، نافضاً النعاس عن عينيه، بالخنجر في يده. كانت بقع الزهور الفاتحة تبدو كبحيرات فوق الحقول، والرياح تصفر بشكل متقطع بين الحشائش القصيرة. لا بد أن شيئاً ما قد حدث وسط هذا السكون؛ لأن الحصان كان جالساً بجوار لجامه، وكان ينفث أنفاسه بغضب وشعر عرفه منتصباً.

تحركت شجيرة قريبة، ولمعت عينان وسط الأوراق الكثيفة، وكانت رائحة سعار تحاصر الرجل: رائحة النمرا!

تلخيصاً، دبر له المسيح الحماية. كان يعرف طريقة أبيه، الصياد الشهير الذي كان أجره في المزارع اثني عشر ريالاً مقابل كل رأس. جلد شاه في يده اليسرى، الخنجر تحته، والنظرة ثابتة. تقدم الحيوان بينما يزوم في الخفاء نحو الصياد، والذي كان

يمطره بالسياب بدوره:

- نذل!...! لم لا تهجم دون اختفاء؟

هكذا مرت دقيقة لانهاية. كان حلق الرجل جافاً، ومعدته مقلوبة. كان ينفث مرارة الخوف في أنفاس ساخنة: لكن نظرتة، الثابتة دائماً، كانت تمنع الاعتداء، كأن ذراعاً تخرج من أعماق مقلتيه وتمتد نحو النمر.

في النهاية انتصب النمر بينما يزأر. ألقى المسافر بجلد الشاه على عينيه. وانهاled عليه بالطعنات بينما يحاول التخلص من الجلد.

لكن حينئذ، بعدما مر الخطر، رأى الكلب شبه المذبوح بجوار فراشه، وفهم كل شيء. عندما شم رائحة الحيوان المفترس، جرجر جسده حتى وصل إليه. ولأنه كان عاجزاً عن النباح بسبب جرحه، جذبته من شعره. وهذا ما أيقظه. إنه يتذكر هذا بوضوح. والآن، بعد أن رأى انتصاره، هز ذيله، ولحق ساقه التي أصابها النمر، وتحدث إليه، إلى جلاده، بعينيه، بينما ما زال ينزف، ويحتضر تقريباً...

لم يكن ملكه، ولم يكن مديناً له بأي خدمة سوى جرح مقابل طعام بائس -بسبب الجوع بالطبع، ماذا كان يمكنه أن يفعل سوى هذا!- ومع ذلك فقد أنقذ حياته...

انفتح فم القائد بالثأوب بمبالغة مفضوحة، فلم ينخدع أي

شخص بمصدر الدموع التالية.

استمر الآخر. بدأ في علاج الكلب الصغير، وحمله إلى مداوية عندما وصل إلى وجهته. حسنًا، انضح أنه أعجوبة.

أصبح كلب رعي لقطيعه، وأصبح ماهرًا للغاية في قيادته، فعندما يختلط بقطيع آخر، كان يبعد قطيعه، وإن تطلب الأمر، كان يعض وينبح. في الليل كان يغطي النار بخطمه دون أن يحترق. وعندما يسأله شخص ما عن اسمه، كان يرد أن اسمه "هذا".

هيمن فخر أبوي تقريبًا على السيد الممتن؛ وضحكته، الضحكة الكبيرة في الشفتين الغليظتين، التي تشف بالطيبة، أعادت الحوار إلى متعته.

كان يحمل الكلب الصغير معه منذ بدء الحملة. كان ينتظره في حفرة ما أثناء المعارك. وعادة ما كان يصعد ليجلس كطفلة على مؤخرة الحصان...

هذا حقيقي. تذكروا ذلك الكلب الصغير ذي الشعر الأبيض المائل للحمر، والذي لم يلتفت إليه أي شخص حتى ذلك الوقت، والذي كان يتمرغ على الأرض بهجة ويعثر على مخابئ أسطورية، أو يلهو مع كلبات الطريق، واثقًا للغاية في بنفسه بسبب طوقه المرصع بالمسامير. لكن تكلم الجريح مرة أخرى.

الآن يعرفون لماذا كان شديد الاندفاع في المعركة السابقة. عندما كانت المؤمن شحيحة، ويشاركون في قتال، كان يقتل إسبانياً ليقدمه لرفيقه للإفطار. اعتدل مستنداً إلى أحد مرفقيه، وربما تجدد النزيف بسبب الحركة؛ لأن وجهه المحتضر أصبح أصفر على الرغم من سوداه. فتح البونشو الذي يغطيه، وظهر الحيوان ملتصقاً به كطفل صغير. بدا مبهوراً قليلاً، وينساب من خطمه بقايا دم فاسد بينما يبدو عليه الشبع.

مد سيده يده تحت رأس الفراش، وأخرج حزمة من الأوراق العريضة ثم فضها. كان ذراعاً نصف مأكول، وكانت اليد كاملة، لم تؤكل بعد. وإزاء إيماءة التقزز التي بدت على أنف القائد، انفجرت ضحكة الرجل الأسود الخشنة وقال مبرراً:

- أي رقة يا سيدي الملازم!... عندما يشح الخبز، يكون الذرة شهياً!

## مدفعية

بعد محاصرة تلك القرية التي كانت تدفع بخنادقها ودشمها لإيقاف القوات، أقام الضباط الملكييون في بيت من بيوت القرية، حيث استمرت امرأتان في الأوقات الصعبة.

امرأتان عزبتان، يحترقهما الأرستقراطيون؛ لأنهما على الرغم من ثروتيهما الكبيرة كانتا سمراوين من النساء المخلصات.

إحداهما، الأكبر سنًا، لم يعد لها آمال في الحياة بسبب عنوستها، وكانت تظهر ورعًا دينيًا مفرطًا. كانت الأخرى سمراء، محبة للحياة، وبجهد كبير أمكنها تجنب حياة الانغلاق والتشقق تلك، حيث كانت كثيرًا ما تطأ الأرض العدائية في القرية، حيث كان حذاؤها اللامع يدوس على بؤس متأصل وقلوب نبيلة في الوقت ذاته.

لم يكن أي شخص سواها يتذوق أفضل أنواع الشيكولاته من سانتا كروث، أو يشتري المفارش والأنسجة الأخرى من المهربين بمنتهى الحرية. كانت قاعة استقبالها هي الوحيدة المفروشة بالسجاد، وتعزز تلك الفخامة بمرآة عريضة الإطار، والتي كانت

تلمع مثل المذبح. كانت تجلس بحسية بالغة في عربتها، متكئة على غلالات رقيقة وحرير ثخين لكي تتأرجح بنعومة مع اهتزازت تعليق العربة، وكانت هناك زهور وردية متقدة في ضفريتها، وعلى شفيتها ابتسامة تميل للأسود الناري من العرق الإفريقي. كانت ترقص بشكل رائع، وفي رقصتها المفضلة، المينوت، كانت تحرك قدميها بأناقة أكثر من أي امرأة أخرى.

في خفقان أنفها الرقيق، في طلاقها الشهوانية إلى حد ما، في سحر جمالها المفرط الساحق، توجد جرأة ووقاحة جمال المرأة التي وقعت في الخطيئة، لتصبح في عداء مع المجتمع الذي نبذها بسبب غزواتها ورفاهيتها. لكن وطنيتها كانت تجعلها محبوبة، وتحظى بالتقدير أيضاً، من الأغلبية. كان المتمردون يلجؤون إلى مائدتها وخزائنها ببساطة أخوية، واثقين من الحصول على ما يريدون. تدرّب عبيدها على أيدي ضباط وطنيين، وكانوا يشاركون مع الميليشيات الريفية. وهي نفسها تشاجرت ذات مرة مع إحدى الجارات التي كانت تتباهي بولائها للملك، وترتدي ملابس كالأهبات الإسبان، وتصفف شعرها إلى اليسار.

وراء أسوار القرية الصغيرة حيث كان خمسون متمرداً تحت إمرة رائد في فترة النقاها يصدون هجمات كتيبتين، كانت تقوم سراً بتقديم الدعم للمقاومة بمساعداتها وحماسها. كانت تأوي القوات الملكية، هذا حقيقي، بل وكانت تتخجج قليلاً ليطمأنوا أكثر، لكنها كانت تتجسس على كل تحركاتهم.

حصلت على مودتهم بسبب روعة الضيافة. أغطية الفراش الحريرية المطرزة في حوافها بشرائط فضية؛ تلك المائدة ذات الفخامة الأرجنتينية التي يتناوب أمامها فتاتان من العبيد، فقط لطرد الذباب بتحريك منشفة مصنوعة من شعر الخيل. تلك الحوارات المتحررة إلى حد ما، حيث كانوا يغزلون الشابة بعزف أغانٍ عاطفية على الجيتار. تلك الهدايا، تلك الثقة بصفتها سيدة هامة. كل هذا كان يوطد اتفاقًا غير معلن.

في نهاية الأمر، لم لا؟ امرأة أمرها معروف، وعلى الرغم من ثرائها، بالكاد يمكنها أن تدفع لهم مقابلًا لمكانتهم. وبنبل ساذج تخلوا عن الحدز تمامًا. بالفعل كانت أحيانًا تقع في سهو، تفلت منها تعليقات لاذعة أو حادة، أو تهوي على وجهها بمروحة، يوجد بين عصيها الذهبية نقش بمقطع من مسيرة الوطن. كانت تهوي على وجهها بذلك الشعاع من الأشعار الممنوعة. لكن هذه الوقائع، النادرة من ناحية أخرى، لم تدمر الوفاق.

في أثناء ذلك، لم تستلم القرية على الرغم من كل التكهّنات. كانت الحامية متحصنة خلف الخنادق والدشم، وتصد كل هجوم بعزيمة أكبر، وكانت مسلحة بمدفعية خفيفة، بمدفع جبلي محمول ومدفع بحري قصير الماسورة.

كانت أسلحة المتمردين تعمل جنبًا إلى جنب مع أكثر أنواع

الأسلحة غرابة. كانت الميليشيات الريفية تستخدم كل أنواع المدفعية، دون استثناء المدافع الصغيرة الخفيفة التي تعود إلى فترة الغزو. وكانت ذخيرتها متنوعة، من الجذع المثقوب والمدعم بحاصرات من الأسلاك المحيطة به على شكل أطواق، حتى أسطوانات القصدير التي تقذف كل ربع ساعة فقط حتى لا تنصهر.

ومع ذلك، كان المدفعان اللذان يمنعان دخول الإسبان للقرية على حال سيئة. كان لديهم بارود، لكنهم يفتقرون إلى الرصاص؛ ووفقاً لجميع المؤشرات، فإن الإسبان سيجربون حظهم قريباً بهجوم جديد. كان أسوأ فشل بلا شك، حيث لم تكن هناك أوقية واحدة من هذا المعدن في الإقليم كله. لم تتمكن الراعية من شرائه في أي مكان!...

في ظروف أخرى لم يكن هناك مفر من أن يسوي الإسبان القرية بالأرض، وأن يموت المدافعون مقابل وطنيتهم. لكن الحصار كان مرتبطاً بالميليشيات الريفية، التي كانت بحاجة إلى إلهاء العدو لعرقلة تقدمه بشكل أفضل، وجاءهم الأمر بالاستمرار في المقاومة. ومما زاد الطين بلة، أن زحفاً مضاداً من العدو خدعهم في اليوم السابق، قاموا بتعمير المدفع بالحجارة فانفجر.

المدفع المتبقي، الذي كان يفتقر لهيكل جر، كان مثبتاً إلى حاجز من جذوع الأشجار، ومربوط من أطرافه إلى جذع شجرة، ويقوم عليه رئيس الساحة بنفسه. كان المدفعجية يلفون سجائر

من الأوراق الجافة لذات الشجرة لعدم امتلاكهم تبغاً.

أظهروا جميعاً عدم مبالاة واضحة، وتجادب بعضهم أطراف الحديث في ظلال الأغصان التي تأوي اليمام والحسون كأن هناك عزلة تامة؛ وروى آخرون أحداث الغزو السابق، عندما تحدوا الموت من نقطة الحراسة تلك، حيث كانوا يرصدون تحركات العدو؛ أو الأيام الأولى للوطن وآلامها، عندما وضعت القوات الملكية أقدامها في المنطقة المتنازع عليها. بالإضافة إلى هذيان الفرحة، عندما رأى مراقب الطريق السترات والقبعات القرمزية تحت الغبار كجبل من أشجار الخوخ. كانت فرقة محافظة سالتا.

على مبعدة بسيطة، كان رجلان يقطعان جذعي شجرتين لسد مدخل الحصن بمتراس. كان فتیان يتمرنان على الرمي بالسهم، وفتاة من السكان الأصليين تشرب الماتيه على مبعدة. لم يقطع ذلك السكون سوى الظلين المتحركين لحارسين على الجانب الآخر من الخندق، حيث كانا يتبادلان السير بتوقفات مدروسة، لكي يستكشفا عبر فراغات الأغصان الشائكة التي يهب عليه نسيم الصيف.

لكن، لدى النظر جيداً، كانت هناك أموراً غريبة في المجموعات. هنا فتى بلا قميص، ظهره الأسمر مغطى بطبقة من العرق، كان جالساً في الشمس ليلتئم جرحاً حديثاً برصاصة. هناك، قائد الساحة، مداوي للعظام ومدفعجي في الوقت نفسه، كان يضع جبيرة على ساق شابة متنكراً تماماً في زي رجل. الوجوه شاحبة

هزيلة بسبب نقص الطعام. كانت المعاناة تسهم بالحزن، على النقيض من هذه الجراءة الخالية من الهموم. في الحقيقة لم تكن تلك الحمية تساعد على زيادة الوزن.

ولاء القرية الصغيرة، لتصبح مثل أفضل القرى أمام الوطن، جعلها في حالة عداء مع الملك؛ وعلى الرغم من الثقة دائماً في شجاعتها، لم يعوضها أي شخص على تضحياتها. كانت الميليشيات الريفية تترك خيولها لترعى في حقولها. وجنود الملك يسرقون ماشيتها. وعندما تنسحب القوات الملكية، يتركون جراحهم في رعاية القرية، التي كانت ترثهم بالإضافة مصابيحها.

تسبب هذا الحصار الأخير في بؤس رهيب، علاوة على كونه دامياً جداً. يتناولون الغداء يومين من كل ثلاثة أيام، ولم يكن لديهم ما يكفي لتناول العشاء. لم يعد هناك طفل يرتدي حفاضات بيضاء، كانت كلها سوداء؛ لأنهم يضمنون الجرحى بها، واستبدلتها الأمهات بالشالات. الموت، كأنما عامد، يختار الأفضل من بين الشباب؛ مما قلل من حجم القوات. وأصبحت نوبات الحراسة القاسية من نصيب الرجال والنساء على حد سواء. كانت النساء يطهون طعاماً من النخالة كحل أخير. كانوا يتناولون قطع اللحوم المجففة الفاسدة، إذا جاز التعبير، تحت تهديد خطر دائم، وكانت تشبع جوعهم بدرجة أقل من الاعتدال. كانوا يندون بالأغاني ليتغلبوا على الطعم الماسخ للماتيه، ماتيه للمرضى كما يقولون، فعندما لا توجد أعشاب ماتيه، يخلطونه

بالزعر البري. بضعة أطفال يرضعون بنهم. كانوا يشوون قوالح الذرة لعدم وجود أكواز الذرة. أصبحت حبات الفلفل الحار هي العملة المتدولة في المنطقة المحاصرة.

لكنهم لم ييأسوا من الانتصار. ودفعتهم نقص الرصاص إلى ابتكار حلول جديدة. نوع من الفرخ العنيف كان ينبثق من المعاناة نفسها. في ذلك الصباح أمكن للمعسكر تحلية طعامه بالنبق الذي جمعه اثنان من المتطوعين في الحقول المفتوحة، من بضع أشجار ذات ثمار كبيرة في قلب منطقة إطلاق النار. وعلى الرغم من إنكار الذات الذي تجذرت فيه أخويتهم بقوة أكبر في ظل الخطر، وعلى الرغم من هذا البؤس الذي حط من كبرياء الكل، وعلى الرغم من ذلك الكرب الذي زرع خرابه المميت في الأرواح، استمر الحنق الطبقي على مضيعة الملكيين.

كانت الشكوك تزيد من ارتيابهم بها، كانوا يدينون أفعالها وينتقدون سلوكها.

الذرة واللحوم المجففة الفاسدة للوطنيين، بينما كانت تأكل حتى الإتراع مع الإسبان. خبر ما، مساعدة من حين لآخر، كانت تخفف من احتقار سلوكها أمام المرتابين؛ لكن لا، لم تكن ستخدعهم بمثل هذه اللفتات. سمراء مخلسة وخائنة، هذا ما كانته!

رائع، أليس كذلك؟ في حوارات مع الإسبان ليلة بعد ليلة، ولا يعلم سوى الرب كيف ترد على مغازلات فرسانهم في ساعات

العشق المشبوب.

إن كانت بمثل هذه الوطنية، لماذا لا يصيبها الضنك وتسير مثل الجميع في طريق البطولة، وتحرم نفسها مثل الجميع من الطعام والمفاخر من أجل الوطن؟

من يعرفون الحقيقة، المجبرون على الصمت، كانوا يتحملون الظلم على مضض. تلك الحفلات لإلانة وإضعاف الضباط بالمآذب وليالي المجون، كانت تؤخر كل شيء. وكان النجاح يعتمد على هذا التأخير.

كان سوء الظن يزداد مع الصمت. ونقص الرصاص، الذي عقده حادث المدفع الآخر، تعزز الحقد بسبب الفشل.

حينئذ كتبوا إلى المرأة الوطنية، معربين بصراحة عن الإشاعات والافتراءات. هؤلاء الجياع الساخطون أطلقوا عليها لقب العاهرة، السوداء، ويحطون من شأنها مثل كلبة. كانوا يرون أن الوقت قد حان للعمل.

كان المساء الصيفي يحتضر باختناق كهربائي بسبب الحر، ويراكم سحباً في الجنوب كمقدمة لعاصفة. كانت كتلة من الغيوم الغارقة في الضوء تنفرط فوق الحرير الأخضر في الغرب. كان الدخان يتصاعد من معسكر القوات الملكية الهادئ. كان الدفاع الوطني مستغرقاً في نوبة الحراسة الحزينة وسط غمغمات حوارات خافتة.

في أثناء ذلك قعقع الحصى تحت خطوات حسان خلف جدار يشكل جزءاً من الدشمة. كان يسير ببطء شديد لدرجة أنه لم يقلقهم إلا عندما أصبح فوق رؤوسهم وصهل. ذهلت المرأة من السكان الأصليين، التي كانت تعد مشروب الماتيه، وقالت:

... السيدة!

بالفعل، كانت هناك، أجمل من أي وقت مضى، فوق حصانها الأسود، مستريحة على مقعد سرجها المبطن بالقطيفة القرمزية، وتسحرهم بمفاخرها كفارسة.

قضت على الصخب بإشارة رادعة. أخبرتهم بكلمتين عن الوضع.

هل كانوا غاضبين لأنها تأخرت في المجيء؟ هل وصفوها بالسوداء وبالخائنة؟ على الرغم من هذا، ماذا يمكن أن يقارن بوطنها وإخلاصها؟ هؤلاء الملكيون؟ هؤلاء النبلاء؟

ها هم الإسبان يلهون، سكارى وغائبون عن الوعي. لقد خدعتهم كما شاءت، وسكبت له الخمر دون توقف في تبادل أنخاب خادع. وخاطرت بنفسها بالموافقة، بغثيان، على جرأتهم في اشتهاها. مقرزون! ملاعين! كم يجب عليها أن تتحمل لكيلا تبصق في وجوههم بيساق الاحتقار مقابل حنقهم عليها!

كان الحرير البرتقالي لردائها يلفها بما يشبه اللهب القاتم. كان سيف قصير عريض مرصع بالعاج يزين خصرها. كانت ما زالت تلهث قليلاً وسط غضبها لكبرياتها. وكان الكحول الذي شربته في حفلات اللهو، بالإضافة لانعكاسات المساء، يضيفان على وجنتيها حمرة دافئة. وعيناها الكبيرتان المائلتان قليلاً، وأنفها الحسي، وفمها الشهواني لدرجة القسوة، كانت كلها بازرة وسط ذلك الألق الذي يحيط بشعرها الأسود بغزارة حيوانية تقريباً، كأنثى وكبطله. كل هل هذا يولد شغفاً، مزيجاً من الشبق والشجاعة، وكان يأسر الرجال والنساء على حد سواء.

وكان هناك أسود على بغلة قوية خلفها. كان يحمل طبله معلقة على كتفه. وكانت تلقي كلمة الآن حول دورها وحول الوطن.

ما إن عرفت بإفراطهم في اتهامها، حتى جاءت لتثبت براءتها، وتبقى معهم. لينفجر الفرسان الإسبان غضباً الآن! ليتقدم نبلاء المنطقة البخلاء! ليموتوا جميعاً إن كان ضرورياً من أجل شرف جيش الوطن..

لديها حدس قوي بالنصر. ولكيلا يصدعونها بسبب نقص الرصاص، ها هي تحمله لهم من أجل الذخيرة.

قام اثنان من المدافعين بإنزال الحمولة عن البغل، وحينئذ رأوا شيئاً رائعاً. كانت كل فضيات المرأة الوطنية في تلك الصناديق: الأباريق، الأحواض، أباريق الماتيه، أوانٍ ضخمة -بل ومبولات

أيضاً- في كومة براءة.

كانوا منتشين بتلك الهدية التي سقطت عليهم بشكل غير منتظر، لكن شيئاً من الخوف كبهم. كان الجشع يزداد بسبب الجوع والبؤس والألم. لكن القائد، الذي كان أحد نبلاء القرية، فتح ذراعيه ليخفف من غضب المرأة السمراء، وصاح على مرأى من الكنز:

- ذخيرة، ذخيرة، يا فرج الله!

تلك الصرخة وحدت الإيرادات في هذيان باسم الوطن. تجمع أهل القرية على دقات طبلة الأسود. استخدم المدفعية وعاء لإعداد الصابون كبوتقة لتحضير المقذوفات. في أثناء ذلك كانت النساء يمدحن المدفع أمام القائدة الجميلة. أخضر مثل الضفدع، الفوهة مثيرة للربح، به قطعة من العظام كمنظار للتصويب ليلاً، مثبت إلى الشجرة العجوز، يحطم كل ما يجد في طريقه، وهو جاهز للهجوم المنتظر مع طلوع النهار.

كانت غممة الحوارات تزداد معبرة عن الامتنان. هذه هي الوطنية، وحب أبناء الوطن، ومعرفة كسب حبهم حتى الموت!

- ازدرء كل هؤلاء الضباط -يا للنبيل! ماذا يمكن أن يقال؟- ومن المؤكد أنها ستحصل على زوج، بعدما كانوا يحتقرونها بسبب عائلتها. لم تتمسك بالعناد والكبرياء، وفضلتهم هم، وتنفق كل أموالها على فرقتهم بمثل هذا اللامبالاة! والإسبان، ما أن يستعيدوا

وعيهم... من المؤكد أنهم سيحرقون بيتها بالكامل.

قرر أربعة فتیان السير في نفس الطريق لقتل الضيوف المغمورين بعد سماعها. قبلت الكثير من النساء يديها. كانت تسند قدمًا إلى جذع الشجرة، وتدير زهرتها بين أصابعها من دون اكتراث. حينئذ قام القائد بقطع زهرتين، ناحيتين من الرصاصات، من نبتة أوركيديا والتي كانت ملتفة حول الشجرة كالحبار. وقدمهما لها برقة خشنة، بينما تلمع دمعة في عينيه، اللتين ربما تكونا قد تأثرتا بدخان النار التي أشعلوها على التو.

كان توهج الشفق يشحب في نشوة لعالم غير حقيقي. وبعيدًا، في الغابة، كانت يمامة تغني... أصبح الكنز عديم الفائدة لسد جوع هؤلاء الجياع في الصناديق المفتوحة، في انتظار إهداره بعد التحول لكريات تحمل الموت للقاتل الإسبانية بعد ساعات. كان الفتیان يقلبون في القطع بدافع الفضول، بفرحة وعدم اكتراث. جاء كل السكان على دق الطبل، ليعملوا بجوار الإناء، حيث كانت أول صهارة تتحول إلى سائل شيئًا فشيئًا.

غمرت فرحة انتصارية تلك المجموعة المحتشدة التي اختلطت ملابسها الممزقة في الليل الوليد؛ كانوا ينسبون لها الكرم الذي يرفع من شأن بشارات الموت الوشيك؛ وضعت قدميها بثبات على الجذع الذي يقوم مقام عربة المدفع. كان صدرها يعلو الرؤوس بجمالها السامي. ليتشكل نهدها على هيئة قوس سخي تحت الحرير البرتقالي الذي يؤكسده المساء بانعكاساته، حتى تحول جمالها المرتبط بمأساوية الموت إلى تمثال ذهبي.

## احتفالات

كان هناك ديكان شهيران يتعاركان: أحدهما بلشون الليل أعور، والآخر أسود مهجن من شاشالاكا الشاكو. كان الحفل بمناسبة لقاء رفاق قدامى، وشارك به اثنان من الأزواج من أهل القرية. رجال الميليشيات الريفية كانوا يروحون عن أنفسهم بهذه الطريقة أثناء الحرب، حيث تتجمع الفرق في احتفالات كبيرة بعد معركة أو بعد مغادرة العدو المنطقة. بالإضافة إلى هذا، كان لديهم عجل سمين في ذلك الصباح.

أتى الناس بالأدوات في أيديهم لذبح العجل تحت أشجار الجوز العتيقة. وثبتوا رأسه على الأرض جهة الشرق، حسب التقاليد.

كانت البنطلونات مشمرة، والأذرع العارية تسلخ، بينما يصدر صرير من السكاكين عندما تمر على قرني الحيوان الذي أصبحت عيناه زجاجيتين بلمعة معتمة. اكنسى الدم المتخثر بلمحة زيتية كالكطيفة في ظل الشمس، وبجواره امتد الجلد مقلوبًا وكاشفًا عن بياض لبني. وأخذت طبقة اللحم الموجودة بين الجلد والضلوع في الظهور وسط فقاعات ذات رغوة لزجة. بعض الضربات كانت

تطرد الكلاب التي تلتق الجلد، وترفع الخطم بأسراب من الذباب.

أعدت امرأة قدوراً لإذابة الدهن بجانب الموقد، في السقيفة. وبالقرب منها كانت امرأتان أخريان تتبادلان الدق في هاون لطحن الذرة الفاخرة التي يتم التقاطها وتجفيفها في الفرن لتحليته. فقد كانت وجبة اليوم هي "لوكرو" بالإضافة مع الخضروات باللحم والكعكة.

لحم دسم من عنق هذا الثور. ثور وحشي ماكر. ما إن ربطوه في المشرب، حتى كسر السور وانطلق محطماً كل شيء في طريقه. كأنما يريد للناس أن تموت من العطش بدلاً من السقوط في الحوض. والبعض الآخر، الأكثر حكمة، احتموا بالقرب منه فقط لا غير. بعد صدمة الخوف الأولى، واجهوه بشجاعة، ورفعوا رؤوسهم، و نصبوا آذانهم، العين ثابتة مثل المسمار، على استعداد لرمي الأنشودة، الفك على الأرض، وجلد العنق يتأرجح بين أيديهم.

لقد خدعهم ذلك العجل. وفر، وسيفقدونه لا محالة إن لم يكن أحد الحاضرين قد بادر بالتصرف. لم يكن معه أنشودة، وكان جالساً على الحصان دون سرج، وفوق كل ذلك تعثر بالأشجار وأخطأ في تصويب الكريات المعقودة على قوائم الحيوان. لكن ما إن وصل إليه، حتى أخرج سكينه، تمدد على الفخذ الأمامية اليمنى للحصان، وأمسك العرف بيده اليسرى، ثم قطع مفصلاً خلفياً للعجل.

سقط العجل بينما يعوي. كانت عيناه تتخثران بالدم. وزع الضربات بالقرون، بينما الناس يسبونه ويذكرونه بجرائمه. ابن عاهرة، شرير، محطم للحقول. ذات مرة حرقوا قرنيه لكي يتوقف عن هذه العادة، ومنذئذ أصبح وحشيًّا.

كان تحت الأشجار في هذه اللحظة. كانت الكلاب تتنازع على أحشائه على مبعدة خطوات قليلة. وبعيدًا، كانت النساء يفصلن المساريق الثخينة أو ينظفن المعدة الشبيهة بنسيج صوفي أصفّر.

كانت مفاصل اللحم والضلع تشكل وعاءً دمويًّا تخرج الضلع من أعماقه. كانت القناة الهضمية بعقدها في رطوبة أرجوانية ومياه غزيرة؛ الرثتان بلون وردي صارخ كالبطيخ. الكبد كالمربى الداكنة، الطحال كلوح حجري رمادي...

ظهرت الفخدان ملفوفتين في دهون صفراء وأرجوانية لامعة؛ وكشفت بعض القطوع عن اللون الأحمر الغامق للكتلة العضلية، التي تتخللها عروق ذات لون عاجي أرجواني أو غضاريف ذات بياض دهني.

أغصان الأشجار المتمالية كسقيفة معلقة كانت تظلل المجموعة، وبذرت الأرض بأشعة ذهبية، بينما كانت الحرارة في الخارج تلهب الهواء بشدة، وتحرق الأعشاب؛ وتنتشر بقعًا ملونة في

الطرقات، وتزيد من حدة اللون الأزرق السماوي بلهيبه الوردى، وتسد جزءاً من الأفق بعتمة كالزنك.

كانت هناك لحظة من الانقباض؛ لأنهم عندما وضعوا سكيناً في لحم الفخدين، تلقوا رائحة نفاذة فيروسية وسط رائحة الدهون المالحة للحوم. ثور قذر! أرهقهم بمطاردته والآن يفسد عليهم الحفل. سيقربون شريحة لحم من الجمر لقطع الشك باليقين. وإذا لم يذب الملح في اللحم، فسيؤكد ظنهم. وإذا كان الأمر هكذا، سيأكلون الساقين واللسان، وهي الأجزاء الوحيدة التي لا تفسد.

انتهى العمل. ووفقاً للاحتفال التقليدي، رسموا صليماً بالدم على باب البيت، ودفنوا البقايا عديمة القيمة في أركانه لكي تأكل الأم القديمة للتلال. علقوا الأجزاء الكبيرة من حبال قوية، وغرسوا الأجزاء الصغيرة على جوانب عربة العائلة لتهويتها.

ساد صمت كئيب في المكان. كان بعض من شاركوا في الذبح والتقطيع ينامون في الظل بسبب الإرهاق. لم يتبق بجوار النار سوى النساء، بوجوههن النحاسية المحترقة بالجمر والشمس. وفي أثناء ذلك، في البيت كانت نساء أخريات يجهزن مائدة الوليمة. كانت حشرة زيز تتر مثل طقطقة القلي فوق قمم أشجار الجوز.

كان الكرنفال سيحل يوم الخميس بعد أسبوعين، ولهذا كان

الأصدقاء يعقدون حفل توطيد الصداقة في ذلك اليوم. لن يتأخر أولئك القادمون من البلدة المجاورة، حيث كانت الشمس في كبد السماء. وبالفعل، بعد قليل سمعوا هتافات وضربات رصاص خلف التل. تغيرت الحال على الفور.

ركع فتیان في الأرض الخلاء المجاورة، كانا يقودان قوس نصر مزيناً بأشكال من المشمش المجفف وكعكعات مدورة. جرت النساء إلى البيت وربط الرجال الأحزمة.

كان موكب الأصدقاء المحتفل بهم يتوقف من حين لآخر، ويلوحون بمناديل براقه، كرايات تنفتح مثل الجروح في ضوء الظهيرة. هبطوا المنحدر في سباق بينما يصدرون الأصوات بالربت على أفواههم، وكانوا محاطين بالرايات ودوي رصاصات البنادق. كبحوا مطياتهم بمراوغات ودورات وسط زوابع الغبار. تحولت الانفجارات المتداخلة إلى عواء، وكانت قفزات ذلك الحشد تهز الأرض كالزلازل تحت سحابة من الغبار. سقط البريق الداكن على مؤخرات المطيات والصراعات، وتحركت الذبول المزينة، المليئة باللون الأحمر المائل للبرتقالي، محترقاً بالشمس التي تؤذي العيون بعد الضربات بالرأس.

وردوا من المنزل بأداء مماثل. اشتعلت الخراطيش الممثلة بالبارود، والتي كانت مربوطة إلى قوائم الحصان واندفنت في السهل. عضو صغير في تنانين الجحيم، في العاشرة من عمره، أصيب قبل فترة وجيزة ويتعافى هناك، كان يحرس تلك المقذوفات

الريفية التي كان دويها يتردد بصدى كارثة فوق التلال.

توقفت المجموعات، وأخذت تدور بالقرب من القوس بينما تحرك أذرعها كأنما ترفرف. جاء صاحب المنزل، كل منهما يحمل كعكة ضخمة، متأنقين للغاية كمضيفين؛ وعلى الرغم من أن الزوج قد أفرط في الكوكا حتى وصل لدرجة البله، إلا أنه كان متماسكاً بشكل كبير، وابتسم عشوائياً بشفتين غليظتين.

كانت الزوجة تثير الإعجاب بتنورتها من الحرير الثخين والحلية من الصدف في شعرها، وصدرها الوفير وسط فتحة الصدر المدورة.

كان الزوجان الآخرا قادمين على حسان ذي بقع بيضاء وسوداء غير منتظمة، متزيّناً بشرائط معقودة في اللجام وأحزمة السرج، وغلالة حمراء أنيقة تقوم مقام حشية السرج. كانا بهجة للنظر بينما يرتديان أفضل ملابسهما حسب التقاليد.

كان يحمل قبعته المصنوعة من القش في يده، وبهذا يكشف عن قبعة أرجوانية. بونشو مخطط، حتى الخصر؛ على ظهره نطاق حريري باللونين الأخضر والأحمر، ومخيط به بذور ملونة كتيمية؛ وفي الضفيرة عقدتان خضراوان. كانت سترته زرقاء. كيس حريري للكوكا. بنطلون من قماش خشن، والجزء السفلي من البنطلونات منقط، وجواربه بإصبع لعروة الشبشب.

كان البنطلون والأكمام وفتحة البونشو والقبعة تلمع بخيوط وتطريزات فضية.

أما مبالغة الزوجة في الأناقة فكانت أكثر. بالإضافة إلى هذا كانت قبعتها تحمل ريشاً مربوطاً بالحريير وحواف مدببة. كان عقدها والقرط والخواتم من الذهب. كانت ترتدي عباءة ومئزرًا من الحرير المقصب متعدد الألوان، وتنورة أنسكوت صوفية وشالاً من الساتان القرمزي بغطاء للرأس في الخلف، وكلها مزينة بالترتر والشرائط. ظهرت ساقها الشاحبة الرفيعة كالحمام تحت التنورة الدانتيل رباعية الطبقات، وانتهت ملابسها بصندل، بنعل تاڤيليت أحمر ودعامات من القماش من نفس اللون، مع ترصيع مزركش.

ذهب كلا الزوجين إلى المكان الذي يحمل فيه الشابان القوس، وسجدا مثلهما. بدأت السباقات من جديد، وارتفعت الرايات، ودوت الصيحات والانفجارات مرة أخرى، فيما تراشق الرفاق المحتفلون بعضهم بعضاً بالكعك، وعفا بعضهم عن بعض على شكاوى العام. أعقب هذا الحفل تبادل للقبل. وعندما نهض أولئك الذين كانوا راكعين، أمسك الحشد بالقوس، ونزعوا عنه الزينة والحلوى المعلقة بسرعة البرق.

كان المكان يعج بالصهيل وقعقعة الحوافر. الوافدون الجدد كانوا يحكون الأخبار. لم يكن هناك أي قتال تقريباً، وانحصرت المهام في حراسة الماشية، وتبادل إطلاق النار مع الفرق

الاستطلاعية، وحراسة الطرق. آه... كما وقعت مأساة.

- هل يتذكرون تلك السيدة -وكيف لا يمكن تذكرها- التي كانت تقود خدمها الذين ضمتهم للميليشيات الريفية؟.. لقد وجودها مثخنة بالطعنات، وقد التهمت الغربان بطنها، والعينان ممتلئتان بالديدان، وبلغت الوحشية مداها بشنقها بصفائرها، التي كان طولها استثنائياً. لكنهم أمسكوا باثنين من الجنود الإسبان في الليلة التالية، وقرروا تغطيتهما بالجلود انتقاماً لها. قاموا بتثبيتهما معاً على هيئة حرف s، ثم خيطوهما معاً، وبعد ذلك جلسوا للاستمتاع. لم تظهر على وجوههم أي رحمة؛ لأن الموافقة المسبقة على أكثر عمليات القمع وحشية جعلت قلوبهم قاسية. وهكذا كانوا ينتقمون لرجال حرب العصابات. لكن المسكينة عانت أكثر؛ لأنها امرأة.

كما لم يكن الإسبان يرحمون أبناء البلد. وعانى هذان الحقيران من الاختناق الشديد، بينما كانت الجلود، الملتصقة بجسديهما، تضغط على العمودي الفقري كأنما تربطهما عقدة تزداد ضيقاً.

عندما انتهى التعذيب، دحرجوا هاتين الحزمتين إلى النهر. وعندما أصبحتا على الحافة، أرسلتهما ركلة إلى الماء، غاصتا لبرهة بعد السقوط، ثم طفتا قليلاً، لتغرقا تماماً بعد ذلك. واستأنفت الأمواج مسارها مع شيء من الفقاقيع الكريستالية

التي تظهر على السطح. ولم يظهر أي أثر لعظامهما.

في الداخل، لمعت الأطباق الفضية وصينية زجاجية أرجوانية من مدينة كوتشابامبا على مفرش المائدة الذي يفوح برائحة بالشعير، هذه الرائحة التي كانت توحى بالرفاهية. وتحت الأشجار، كان ضجيج القلي يعلو على الحوارات. كانت أباريق العرقي تزيد من حدة الحوارات، حيث كانوا يتناقشون صارخين حول الديوك.

- الأسود، هائل عندما يسير على ساقيه، وكشعاع النور عندما يطير.

نعم، لكن بلشون الليل لا يقل عنه. لم يكن سريعاً مثله، لكنه أكثر جرأة. وكانت مناوراته تجعل هناك تكافؤاً في الفرص بينهما. وبالنسبة للمظهر، فكانا متعادلين. لا يمكن ترجيح كفة أحدهما على الآخر. كما كانا متساويين في الوزن أيضاً. وإن كان مالكة يحمل تعويذة ما...

وابتسم هذا. دائماً ما كانوا يتحدثون عن هذه الأمور، عن الحسد. ألم يتهموه مراراً بكسر ضلوع الديوك بينما يتظاهر بتقدير وزنها؟ لكنه لم يكن يلجأ لهذه الحيل. كان يخسر ويكسب بشرف، استناداً إلى ثقته بديكته، وليس بسبب عرف مزيت أو مثل الحيل، بل لاعتماده على تربية الطائر وتدريبه. لكل هذا، عندما حانت الساعة، توقفوا تقريباً عن تبادل الآراء.

تجمعوا في صمت، وأخذوا يتحلقون بفضول حول الطائرين. وارتجلوا ميزاناً بعد كلمات قليلة. استخدموا عصا كذراع أفقي، تتدلى كتلة وزن الطحين من أحد طرفيه، ومن الطرف الآخر حبل متقاطع من دائرتين، حيث علقوا الديك في الهواء على تقاطعهما. جاءت المقارنة حسب المتوقع، بضعة جرامات أكثر أو أقل. وذات الأمر فيما يتعلق بالشكل.

كانت المؤخرة والفخذان بلا ريش تحت الذيل المدب. كان اللحم أحمر صارخ اللون بسبب النظام الغذائي والتدريبات. كانت ارتعاشات السيقان مليئة بالقوة، والمخالب مثالية. عندما حان وقت العراك، كان الدم يغلي في عريفهما المقصوين. كان مالكا الديكين يربطانها بالماء البارد تحت الأجنحة لأنهما كانا متوترين بسبب الحر وضجيج الحوارات.

كانت حلبة الصراع محاطة بسور. وقاموا بتسوية أرض حلبة الصراع بالبونشو. جلس حكم العركة في الصف الأول مع المراهنين، كان عجوزاً أمرد، بديناً، بعينين صغيرتين وشعر مضفر. وفي ذلك اليوم كان يرتدي سترة بشكل استثنائي، على الرغم من أنها كانت مفتوحة، ويظهر القميص فوق عنقها الممتلئ بالتجعدات. وكان قد وضع عملة بيزيتا في تحويف أذنه تحسباً للمشاركة في الرهان، وهو ما لا يخالف وضعه كحكم.

حانت لحظة البدء وأعطى الحكم الأمر.

لعقة للمخالب، بصقة على العرف، ثم سقط الطائران في الحلبة.

في البداية تبادلًا النظرات من بعيد، وعيونهما ممتلئة بالشجاعة، ونقرا الأرض، وبالغاً في إظهار الشجاعة أثناء المشي، حتى تواجهها واتخذوا وضع التحفز فجأة، بالحلقين منتفخين والعنقين منتصبين مثل بريابوس.

قفزة، اثنتان، ثلاث، وبدأ العراك. كان الخصمان يتناوشان. مر كل منهما فوق الآخر كشعلتين من اللهب. بعد ذلك تجلت مهارة كل منهما.

كان الأسود يقاتل في الهواء كما تدرب، بينما يحلق قليلاً. كان بلشون الليل يناور بهجمات من اليسار، بينما لا يغيب خصمه عن مجال بصره بعينه الوحيدة. لم يصدر أي تعليق أو هتاف. فقط القليل من الحماس الخافت:

- آه، أيها الديك العجوز!

- أيها الأسود الجميل!..

-.. لنحملك إلى وعاء الطهي!

لكن، في أثناء ذلك، كان المتصارعان يتبادلان النقر في الوقت ذاته، ويجذب كل منهما الآخر دون أن يطلقه وسط زوبعة من الريش. انفجرت الهتافات. أصبح الطائران المصابان أكثر

شراسة. كانت الشمس تنحسر. وتحت الأشجار، كانت الأصوات والارتعاشات تنبئان بحدوث أزمة. تزايدت ضربات المخالب.

- أربعة رياللات للأسود!

- سأراهن على ضربة أخرى.

- بيزو!

- سأراهن على ضربة أخرى.

أراهن باثني عشر مقابل عشرة لصالح الأسود، اثنا عشر مقابل عشرة، اثنا عشر... ضربة أخرى.

- ...مقابل ستة!

كان الرهان بالضعف. بدت الهزيمة قريبة من ديك بلشون الليل، الذي كان مالكة ما زال واثقاً في ضربة مخلبه في الحلق، ضربته التي لا راد لها. لم يكن الطائر يهاجم تقريباً، وكان رأسه المثخن بالجراح تحت جناح خصمه، وريشه منزوع في أماكن كثيرة. كان الرهان على الضعف، لكن الصراع لم ينته به. ضربة أخرى.

- اثنا عشر مقابل أربعة!... أقرض المال! لا تترددوا!

لم يراهن أي شخص على ديك بلشون الليل. وصاح مالكة بمخاطرة كبيرة:

- أوقية على ديكي!

من يمكنه المراهنة بهذا الجنون!... امتععت الوجوه. والأكثر من هذا، الفتى عضو تنانين الجحيم، الذي ما زال شاحباً في فترة النقاهة، رفع صوته بالرد:

- انظر، سأدفع ريالين.

انفجرت القهقهات. منذ متى يراهن المسكين بالمال... ليس من العدل أن يأخذوا أمواله في الرهان. لكن الفتى شعر بالغضب وأصر.

حينئذ، لاحظ البعض أن العملة اختفت من أذن الحكم، وانفجرت الضحكات مرة أخرى. دعاهم بوقار للصمت، لكن دون نجاح، وحينئذ تزعزع الهدوء بسبب ركض حصان، وهو ما أوقفهم عن التراشق.

تحدث الناجي دون النزول عن الحصان؛ لأنه كان قادماً بخبر هام. كان قلبه، الموجود في مكان قريب للغاية، قد أوقف نمراً لتوه. وكتوكيد على كلماته، جاءت النعاج، في حشد مغطى بالغبار، لتحتمي بالفناء ذاته.

بالإضافة لاعتراضات الحكم، سادت الفوضى في المباراة. وفي ثانية واحدة كانوا قد جاؤوا بخيولهم وبنادقهم. لكن الرسول أخبرهم بإنجاز جديد.

بما أنه قد أزعجهم، سيكفر عن خطئه، حيث سيخرج الوحش المفترس من مخبئه مربوطاً في ذيل حصانه. لكن، عليهم أن يلقوا عليه الأنشطةات ليمسكوا به فور أن يخرج للطريق. كانت ضربات رماح الإسبان مملة. إذن ما هذا بحق الجحيم! يوم أكثر أو أقل، ينتهي الأمر بالمرء في القبر. نمر؟ باه! إن كان هذا هو قدره، فسيلتهمه نمر في نهاية الأمر.

كان وجهه نحيفاً، ويبدو كالمثلث بسبب لحيته، وعيناه مليئتان بالحزن. ويبدو شبابه متناقضاً مع ذلك الحزن.

انطلقوا بخطى واسعة، بينما يعلقون على الواقعة. الكلاب المربوطة في البيوت كانت تزوم طلباً للدم.

عندما أصبحوا قرييين من المكان، بدأ بعض الفرسان في التراجع وسط انتفاضات الخيول. طرقت ضربات السياط في الصمت الذي كان يتزايد. نزل الصياد عن حصانه لبرهة، عقد ذيل مطيته، وامتهاها مرة ثانية بقفزة واحدة، وتابع السير خلف الموكب. لم يتخلف سوى حكم الحركة ومالكي الديكين والعضو الشاب في التناين. كانوا قد بقوا لأن المباراة بلغت أقصى درجات الإثارة.

وفي أثناء ذلك، وصل الآخرون إلى المخبأ المرتجل. وصدر زئير مكتوم من وسط الشجيرات، ودفع الفتى بحصانه ذي الشعر الأبيض القصير في ذلك الاتجاه.

اهتزت الأعشاب، وما إن صدر صوت شبيه بشخير قوي، امتلأ الهواء برائحة النمر العفنة.

كان يحاصره الآن، بظهره إلى بعض الصخور الضخمة. كان شعر الظهر منتصبًا، وجهه يلامس الأرض، جانبا حدقتيه مبتلان والعينان منطفئتان، كان ممعناً في تمويهات الترصّد.

وضع الفارس مؤخرة حصانه جهة الوحش المفترس، واستدار لينظر في عينيه. كانت ستون قدمًا تفصل بينهما بالكاد.

نخزة بالمهماز، ضربة، وتراجع الحصان خطوة واسعة.

كان خطمه لصق كتفه، والعينان متقدتان، كانت مفاصله ملتوية قليلاً، وأذناه منتصبتان وعرفه ساقط بسبب الرعب. وكان يتراجع مع كل تحفيز. وكان الوقت بين خطوة وأخرى يبدو أبدياً.

كان زئير النمر يختنق مع اقتراب الرجل الذي كان يوقف مطيته دون أن ترمش عيناه. لم يكن الحاضرون معجبين بفروسيته فوق هذا الحصان ذي الشعر الأبيض، وإنما بنظرته المتحدية للنمر. هكذا سيمنعه من رفع ظهره، لم يكن النمر سينتبه لمن يقتربون لتقييده من الخلف.

كانت المسافة الخطرة تتضاءل. لاحظوا تراجع الحيوان أكثر فأكثر، وتعب المغامر، وجبهته المعروقة. مع كل نخزة من المهماز، كان شعاع من شمس الغروب يلمع على حلقات رباط السرج.

أصبحت المسافة بينهما أكثر بقليل من جسم حصان. تضاءلت المسافة أكثر، وكان الصمت هائلاً لدرجة سماع صوت الحكم بوضوح:

- لتصف شعرك ديكك!

يمكن تخمين اللحظة، حيث كانا يحفزان الديكين بقرص مؤخرة العنق. في تلك اللحظة أصبح الفتى في متناول الوحش. جذب اللجام.

أخفض عينيه...

شق النمر الهواء بضربة المخلب المعهودة. لكن، في تلك اللحظة، أطلق الفتى اللجام، وصاح بالحصان الذي انطلق بقفزة مدروسة لدرجة أن المخلب قد اشتبك بالذيل المعقود عندما لامس مؤخرة الحصان.

وانطلق الفارس في الحقول المفتوحة نحو الأرض الخلاء بالحزمة خلفه. لكن الدهشة أنستهم الإمساك بالنمر بالأنشوبات حسب الاتفاق.

- ارموا بالأنشوفة! ارموا بالأنشوفة! صاح الصياد وسط سحابة من الغبار.

- ارموا بالأنشوفة!

لم يتحرك أي شخص!... وحينئذ، خرج حصان بكل عنفوانه من أحد البيوت. دخل المشهد بحركتين سريعتين بينما يطوح

بأنشوطته. وعندما انقشع ستار الغبار، كان النمر يحتضر بالفعل، ويتلوى مثل شريحة لحم أثناء الشّيء..

وكان الصياد وعضو التنانين بجواره مبتسمين. أخذ الآخرون في التوافد بخطى سريعة.

كان ذلك الفتى أكثرهم رجولة، على الرغم من إصابة كتفه. شكره الصياد، بينما كان مضطرباً للغاية، وينبش الأرض بقدمه، ويتلمس جرحه الذي عاد لإيلامه بسبب المجهود. أطالت الشمس الظلال على الأرض كأنها أعمدة. من بين مجموعة من النساء تساءل أصحاب البيت بصوت عال...

بالطبع، لم يتذكر أحد المباراة، حتى إن أصحابها قد تركوها عندما بدأت المطاردة. لم يتبق في مكانه سوى الحكم، وكان الأخير في الوصول بجوار النمر.

اعتبروا أن المعركة قد انتهت بالتعادل دون انتظار حكمه؛ لأنهم كانوا يشكون في حياده.

نوبة غضب بسبب الجشع. انهمر سيل من السباب من فمه.

حذره الفتى، وعندما أصبحت قدمه على الركاب:

- معذرة يا عجوز، كان هذا أمراً طارئاً. شمله المذكور بوجه مليء بالتعبيرات:

- جاوتشو أحمق... - بيزيتا مقابل نمر!...

## تكتيك

- الشمال.

- الغروب...

- الجنوب..

انتهى ذلك الحوار عن الأفق بحزن.

لخصت لفتة المشهد بالتوكيد على بعض الكلمات في بعض الأحيان: آلاف الفراسخ، البلد الثائر، الحرائق. الحرب تشغل الطرق. مشهد من الدخان وركض الخيول. تبادل لإطلاق النار، صرخات، أبواق. لا ينامون مطلقاً. يفهم الجميع الأمرين الوحيديين: الهجوم والتفرق.

فرقة تهجم فجأة، وتتوغل وسط العدو. دقيقتان من ضربات الفؤوس والفضوى وسط تطويح الأنشوطات والسيوف. تمايل من جانب لآخر، طعنات... وفي النهاية دفقة من الطلقات. وتحت الدخان تنفرط حفنة من الفرسان في ركض سريع.

من ينسى أمراً، يهرش مؤخرة رقبته قليلاً، ويرسم رمز الصليب،

ثم يهاجم دون خوف. ويموت إن كان الحظ حليفه. وإلا فإنه يسقط أسيراً  
ويعدمونه.

كانوا يفتقرون في كثير من الأحيان إلى المؤن والتبغ والشراب. كانوا  
يقتسمون تدخين سيجارة بين ثلاثة أشخاص، ويمررون الدخان على التوالي  
من فم إلى فم. عندما ينقصهم كل شيء، يتجولون بمطياتهم، يقذفون السهام،  
يرعون خيولهم. وكان القائد مثلاً، رصيناً أكثر من أي شخص آخر، يربط أحزمة  
السرّج أو يجلي الجلد. كان البعض يجهز عجينة من رماد حبيبات الكينوا  
لتتبيل الكوكا. هذا يشرح حيل اللعب. ذلك يفرك قميصه بالثمار السوداء  
للأشجار الباكارا...

في بعض الأحيان يرون رجلاً ماكرًا، يقضم سرّاً قطعة لحم مجففة خبأها في  
صدره أثناء المسيرة. ويعترف الرجل، ويرد على المزح بتعليقات لاذعة. كانت  
فكوكهم تنهال بنهم على ذلك الطعام الذي تفوح رائحته من صدره. وبالطبع  
سيظهر جيتار، وعلى الرغم من تفوق دوي الطلقات عليه وأنه غير مضبوط  
لأن أحداً لم يعزف عليه منذ أيام، ستكون الحلوى هي الأغاني التلميحية  
"سما من اللحوم المجففة" أو "انتصار أهل كوتشامبا"...

وكثيراً ما ينتهي هذا اللهو بشكل سيئ. كانت إحدى الفرق الإسبانية تعثر على  
المعسكر. كانوا يسعون للإمساك بسجناء للعثور على الماشية. وإن أمسكوا بأسير،  
لم تكن الوعود أو العذابات تلين صمته، ويضطرون إلى إطلاق النار عليهم في

صمت. وعندما يحتضر شخص ما، يشنقونه توفيراً للبارود.

وكانت الميليشيات الريفية ترد بدورها. يصيح ضابط إسباني من مقاعد المتهمين: "إنكم متوحشون!... لا تحترمون الأسرى"، ويرد عليه قائد الجاوتشوس ببساطة: "لا نحترمهم".

ينامون في كهوف أو وسط الشجيرات، هذا إن لم يناموا على مطياتهم أثناء السير. تزايدت الأراضي البور. كان الصحراء تلتهم الأرض الخصبة مثل مادة كاوية. وهم أنفسهم كانوا يقضون عليها بالحرائق. كانت الأراضي المحروقة الكئيبة تبتلع خطوات الغزاة في الرماد. كانت بقايا الأعشاب تصبح برية. لم تكن هناك بقرة واحدة أو حصان واحد في الجوار، والهواء معبق برائحة البارود. اليأس يسود الأرواح، ويشعرون أنهم كالوحوش بسبب الوحدة.

من جانبه، أهمل قائد الجاوتشوس تلك النقاط، لانهماكه في استعدادات المقاومة ضد الغزو الذي كان يقضي على طليعة الميليشيات الريفية أثناء تقدمها. لم يكن معهم بارود أو حجر صوان أو مال. لكن لم يستسلم أي شخص، على العكس، تزايدت الجسارة والابتكار.

الجيش الإسباني، المرهق أيضاً بهذا الهجوم متعدد الأدرع، والذي كان يتقدم من كل الأركان مثل شبكة العنكبوت، دون مقاومة حاسمة، تمسك بالانضباط بيأس. الغابة التي تفتتح بطلقات مفاجئة من كل الاتجاهات، كانت تبدو كصندوق غير

آمن. والليل كان محملاً بالخطر بدلاً من كونه وقتاً للراحة والأمان. كانت حشود مفاجئة تركض على حين غرة بجوار القوات. كان الإنذار يطفئ النار. وهكذا كانوا ينتظرون النهار، متدثرين بمعاطفهم بينما تصطك أسنانهم بسبب البرد.

وكما ازداد توغلهم، يتضاعف هجوم الميليشيات الريفية، بالإضافة لقيامهم بحملات صامتة أيضاً. كانت بنادق قليلة للغاية تستخدم وسط هذه الفوضى. ذات ليلة توقف أيضاً هذا الضجيج المتناقص. لم يعد هناك بارود.

في اليوم التالي، طلع الصباح على القوات الإسبانية بجوار نهر بين القمم. واستيقظت هذه القمم تحت الرعشة الملحة للنداءات، حيث لم يجد الغزاة طريقة أفضل لنفض النعاس سوى النفخ بيأس في أبواقهم. بالإضافة إلى هذا، كانت الموسيقى تنشز عمداً. لكن لم تكن هناك بوادر على الحياة في الغابة أو الجبل.

كانت القوة تتكون من عضوين من تنانين الجحيم، وواحد من الفرسان. وكانت فرقتان تحرسان البغال بينما تلتهم العشب. ومهما تفحصوا المكان، لا يرون أي شيء مقلق. لكن على الرغم من هذا، كانوا يرصدونهم، بل وكانوا يتحدثون عنهم في مكان قريب للغاية في مخبأ بالجبل.

صوتان. همهمتان. كلمات قليلة.

صوت يعترض، والآخر يلح، بينما يغمغم بلعنات. طوال اليوم

في نقاشات. على مبعدة خطوتين من العدو. قوى واهنة...

قليلة؟... خمسمئة رجل! أسلحة؟... اثنتان وعشرون بندقية!

لذا كانت الفرصة مغرية. احتشد الإسبان هناك، دون وجهة محددة وسط الحقول المدمرة. من السهل التحصن بالصخور وجذوع الأشجار إذا انتصر الآخرون، ثم كان هناك الليل كمأوى. بعض الخراطيش، التي تم الاستيلاء عليها في إحدى القرى، كانت تسمح بإطلاق طلقتين من البنادق القصيرة. دفقتان... ما يكفي للمساهمة في المعركة.

صبغ المساء هواءه الخفيف باللون الوردى. كان لون بنفسجي عميق يضيف لمحة مخملية على سلاسل الجبال التي غرقت تضاريسها في شلالات من الظلال. وما زالت تكسر الشمس أشعتها على القمة. كان هدوء مثير للإعجاب يملأ المكان بالنشوة. بعض طيور الجبل كانت تصفر. والضباب ينساب تحت بياض السماء العالية في ناحية التلال. لم تكن هناك سحابة واحدة. كان السكون يزداد حول المعسكر. بدأ الشفق خلف ظهر المتحاورين.

كان المنظر بسيطاً. وادٍ دائري تقريباً، محاط بالصخور. وكان النهر مغموساً في المساء كأنه شريط من المغنيسيوم. بعد ذلك المعسكر بنيارانه الشاحبة، على مسافات متباعدة تظهر آذان البغال التي تنهق نداءً لحب بعيد. وحوله أسوار من الغابة والأحجار، التي تمتزج مع ظلال الشفق في شفافية زرقاء كئيبة

تملاً السماء. كانت رائحة البرسيم تعبق الجو. كانت أرجوانية غروب الشمس تتحول إلى ليمفاوية شقراء؛ ثم تتدهور إلى لون القش، وانسالت تماماً، واكتسى بياض المساء بثبات بركة مجمدة.

في تلك اللحظة كانت الأصوات تنقل مفاجأة، وتخبر باتجاهات. زادت الغمغمة؛ لأن شخصاً ثالثاً قد انضم لهم.

- لدي خطة.

سقطت تلك الجملة كحجر وسط الظلال المتزايدة. تباعدت الفروع قليلاً وسقط النور على الوجوه الثلاثة.

وجه أمرد، والثاني بشارب رمادي؛ والثالث بلحية سوداء محيطة بالوجه. والقبعات الكبيرة ساقطة على الحواجب.

كان الرجل ذو اللحية طويلاً ونحيفاً للغاية؛ وذو الشارب قوي، والأمرد يبدو كحقل معشب نبتت فيه أعضاء. كانت هيئته غامضة، وتبدو كمخطط أولى لرسم. ويبدو قزماً بجوار الرجل الملتحي.

كان الأولان يقودان فرقاً، لكن الأمرد يقود لواءً، وكلفه هذا الشرف ثمناً غالياً، حيث لم تتبقي له نعجة واحدة من عشرة آلاف نعجة من ممتلكاته. كان إقطاعياً، ويذهب بأفضل أتباعه للقتال منذ خمس سنوات، دون أن يروا سلاحاً نارياً خلال تلك الفترة.

وصلوا سيراً على الأقدام، في مجموعات صغيرة، مع الجاوتشوس

تقريباً، دون ضجة على الإطلاق. كانت الميليشيات الريفية ماهرة في تلك المسيرات التي تشبه الزحف.

وهكذا لم يكتشف الإسبان وجودهم في الصباح، في الاستكشاف الذي قاموا به قبل إطلاق الخيول لالتهام العشب. لكن بعد قليل، تسلل المتمردون بين الصخور وفي الوديان والانهيارات. كانوا يتحركون في صفوف وكتل، ويبتكرون في اتخاذ الاحتياطات حتى أحاطوا بالقوات الإسبانية. ظلوا جاثمين خلف تل؛ حيث كان أغلبهم ناعسين، وآخرون يتحدثون، وأحدهم متمدد فوق العشب، بوجهه إلى أسفل بين يديه، وكان ينتهي من أغنية عن الكوكا:

.....

لا أمضغ الكوكا إدماناً

كما لا أمضغها ليصبح عقلي أكثر بصيرة،

وإنما لمنافعها...

كان القادة يتناقشون على مبعده. يتحدث الإقطاعي شارحاً، وزميله منتبهان للقمم التي يرسمها بأصابعه أمام فروع الأشجار. وتوقف مشيراً لشق في الوداي، طريق ضيق معروف بالطبع؛ لأن الرجال الثلاثة تشاوروا، وبعد ذلك أحنوا رؤوسهم بجدية موافقة.

بعد ذلك، شملوا كل تلك القمم بنظراتهم، وابتسموا بينما يتوقعون النهاية، ثم اختفوا مرة أخرى بين الأعشاب. صعد طوفان الظل على جانبي الجبل. عبر خيط من البرد في الشفق. كان الليل يطبق على الأرض الخلاء شيئاً فشيئاً. كان الظلمات تبدو تمهيداً، كانت حصاراً.

فجأة، بعد الشفق، وقعت حركة وسط الشجيرات المسودة، على الجانب الأيسر من القوات. نهضت مجموعات من الرجال بينما يصرخون ويلوحون بالعصي. صدر صوت إطلاق نار، وتردد الدوي على التلال ليصدر أزيز المقاليع بعد ذلك. سادت الفوضى بين الأفراد تحت الدخان وسحابة الغبار. أفاق الإسبان من صدمة الهجوم الأول، ونظموا صفوفهم وصوبوا بنادقهم. لكن كانت الكثير من الأجساد ساقطة على الأرض؛ لأن العصي والحرايب لم تتوقف عن الهجوم.

استولت مجموعة من مئة فارس بقيادة الرجل ذي الشارب على كل البغال تقريباً في هجوم سريع، ودخلت بها في الغابة. لكن المهاجمين استسلموا في النهاية أمام القوات النظامية. أطبقت القوات النظامية الإسبانية بأفواجها الثلاثة كرمح ثلاثي الرؤوس على القوات الوطنية. كانت القوات الإسبانية مبهتة بنجاتها وتشعر بزغزة النصر الوشيك، وأيضاً بهذه النهاية للمفاجأة التي تعرضوا لها. لم يهتموا تقريباً بفقدان مطايتهم، وارتجلوا سرباً بما تبقى منها، واستمر القتال في الظلال الأولى، محولاً

الوادي إلى بركان.

انسحب خط الجاوتشوس دون أن ينكسر. بالأحرى كان تراجعًا. حينئذ قامت قوات الإسبان بقصف المقدمة بالمدافع. تفوق دوي كالرعد على قعقعة تبادل الرصاص؛ وبعد قليل، احتفلت صرخات زاعقة باختراق الرصاص لكتلة المتمردين.

توقف المتمردون إزاء هذه النهاية المأساوية التي تحسم المعركة. انتظم حملة البنادق الاثنان والعشرون بقيادة الرجل ذي اللحية، ليوفروا الحماية. دوي مدفع آخر. اضرب! صاح الرجل؛ واشتعل البارود، وانشق الظلام باثنين وعشرين شعاعًا من اللهب.

حينئذ تراجعت الميليشيات، انكسرت كعارضة في سقف. كأنما جدار يسقط كاملاً؛ وتعرضت لضربات السيوف وطلقات الرصاص بلا رحمة في الثغرة التي خطط لها القائد. كانت صحيان الانتصار تدفعهم للهرب. كانت السيوف تشق طريقها بين الأشجار على راحتها، وتصدر صيحات البهجة كالرعد. ثم وصلوا إلى الكهف الذي كان مدخله مسننًا بالأحجار كأنه فك وحشي. ودخلوه متدافعين ومتزاحمين بسبب ضيقه. تحولت المعركة إلى مذبح؛ ولهذا كان إطلاق النداء بتعمير البنادق وتوصيها هو أفضل قرار لإنهائها.

لكن لم يسعفهم الوقت. سرى صرير في الصخور الناتئة العلوية. تحركت كل تلك القمم بشكل مخيف تحت نضوع الليل

المرصع بالنجوم. تدرجت قمم الجبال المنزوعة تحت ضغط الأذرع غير المرئية التي كانت تدفعها في قلب العتمة.

وحيث صدر عواء النصر من أعلى بصخب هائل. انهارت الكتلة الصخرية كالشلال في الحفرة المليئة بالأجساد، لتثير الاختناق بغبارها المعبق برائحة النيترات، لتساهم بهذه الطريقة في عمل حفاري القبور للكاتب.

وفي الأسفل ساد يأس المحتضرين وسط آلام وتكسرات عظام هائلة وتشابك الأعضاء والحطام. مزيج من التلال ومن الكنائس.

أصبح الموقف أكثر تعقيداً بأجساد هاربة فزعة كالأشباح. كان فرسان الجاوتشوس قد تدخلوا لتوهم، وغطوا المخرج الصعب بستارة من النار؛ ورفع الحريق السنة اللهب فوق الكارثة.

وعلى هذا الضوء ظهرت الأطراف المتناثرة في القبر. أثارت النيران الغضب في وجوه الجثث، وأحالت تأوهات المحتضرين إلى عوآات؛ وامتلاً الهواء بهذيان الغزو المدفون.

ظهر وجه فوق حطام الصخرة النائنة، وتشمم الكارثة عميقاً...

صدر أمر في العتمة. وللمرة الثانية تناثرت الصخور. انزلق انهيار آخر على المنحدرات، وكان تكسر الصخور المتهاوية كانتفاضة نهائية. تردد الصدى بعيداً. ثم تلاشى...

ولم يتبق سوى القليل من الدخان الكئيب الطاغي في الخلاء.

## خلف الأثر

كان فارس متأمل يعبر المنحدر الحاد مع حلول المساء. أصبح رجاله على مستوى التل شيئاً فشيئاً أثناء الهبوط، وكانت حواف القبعات تغطيهم. هكذا كان يراهم من الخلف. لكن، ظهر جاوتشو في الأمام، بلا شك كان عائداً من كرنفال قريب. كانت قبعته ملوثة بلون النشا الأبيض بنكهة الريحان، الذي قذفته الفتيات عليه، والمنديل الأحمر المحيط بعنقه ملوث بقشور البيض المحملة بماء معطر.

ترددت في أذنه أصداء الطبول التي كان المغنون يصحبون بها أغانيهم الحزينة وأصوات الأبواق التي ترد عليها. وكانت هذه النغمات تنساب وسط شعيرات شاربه كصفير يتحول شيئاً فشيئاً إلى أغنية.

ما زال يشعر في خصره بذراعي الفتاة اللدنتين، والتي ركبت خلفه على الحصان، ليقفز قفزة فنية، أفضل من أي شخص، على أعمدة السور. حفل لطيف، بالعرقى وملامسات كما يشاء المرء.

بالإضافة إلى تبلل البونشو في الكرنفال، والذي ما زالت آثاره

موجودة، أخره تدفق الأمطار الغزيرة التي فاجأته على المنحدرات؛ فاضطر للسير البطيء لأن السحب لم تتوقف عن المطر، وكان الركض السريع يجذب حراس الطرق.

لكنه استمر في الهبوط ببطء على الرغم من عدم وجود ما يعوقه. كانت نظرتة تتبع منحنيات الطريق، ملتصقة بالأرض كطابور من النمل. وكان يضاعف من انتباهه مع كل خطوة. كانت السحابة تغطي الشمس خلف ظهره، وتلف التلال في ظل مائل للزرقة. وعلى اليمين يوجد طريق جبلي ممتلئ بالبرد، محاكيًا عاطفة ثلجية عابرة.

كان الرجل مائلاً دائماً على السرج، ويتفحص المنحدر. لم تصله الأمطار، وربما ما زالت صخوره تحتفظ بشيء ما ليفعله.

انتهت تلك التأملات بابتسامة تجلي، كاشفة عن فخر بمهارته. كانت آثار بغال تفتح طريقاً في الاتجاه المعاكس له، كانت بغالاً مركوبة كما يظهر من الآثار العميقة للحوافر.

اتسعت ابتسامته بينما يتقدم بعدما حسب عدد وإيقاع البغال؛ لأنه إن كان قد عثر على الآثار من قبل، فإنه الآن يخرج باحتمال من هذا. واختفى لبرهة خلف التل، في الوادي الذي يفصله عن التل التالي. كان يخرج باستنتاجاته من هذا. عشرة آثار مختلفة تعني عشرة بغال مختلفة. لا يوجد من يمتلك هذا العدد في هذه المنطقة؛ ولهذا فإن الأمر لا يتعلق بعمال. كما لم يكونوا من

رفاقه؛ لأن هذا الطريق كان بعيداً عن طريقهم، ولم يكن عددهم يتجاوز الستة. ستة رجال، والبغال عشرة...

من العبث التفكير في قافلة تجرها البغال؛ لأنها تفضل الطريق المستوي. كما أنه لم يكن يرى أنها بغال حمل، وإنما كانت بغالاً مركوبة بالنظر إلى استقامة آثارها والمسافات المتساوية بينها.

كان رأس الحصان يتمايل يمنة ويساراً بالهيئة الناعسة للخيل المروضة عندما تسير في الشفق. كان لعبه يتساقط في خيوط فوق آثار السائرين الغامضين.

يسيرون في أزواج متجاورة... كان مقتفي الأثر يهمس بصوت مكتوم، متحدثاً بزمناً الفعل المضارع كأنه يراهم مارين أمامه. يتوقفون هنا... يسيرون بخطى متوسطة هنا...

كانت ارتعاشات رعد تنتشر في الأرض من حين لآخر، بصوت مكتوم، كأنها كلمة ضخمة.

- هذه البغال ليست من المنطقة؛ لأنني كنت سأتعرف عليها على مبعدة مئة فرسخ.

خرجت فكرة من رأسه، وتحولت إلى شك لتعكر المساء. بدأ يشعر بالقلق من هؤلاء الفرسان المختفين في الجبال السامقة خلفه.

لا بد أنهم قد فكوا السروج في أرض خلاء. كان مكان تمرغ بغلة

على الأرض واضحًا؛ كانت الأرض كأنها مستوية مكوية. والأكثر من هذا، كانت هناك آثار بارزة لأقدام عارية، ولم تكن للسكان الأصليين؛ لأن باطن القدم كان بارزًا بين الأصابع والكعب...

كان بعض الشعيرات تتطاوح على فرع شجرة على مبعده؛ وهو ما يعني أن المسافرين لا يرتدون واقيات السيقان. البغل الذي تركها كان أصهب داكنًا، والبغل الموجود في المقدمة كان ذكرًا؛ لأن الجزء الداخلي من آثار الحوافر كان على هيئة هلال وليس بزاوية حادة.

لم يكن هذا يضيف أي شيء للبحث، لكنه يؤكد على دقته.

كان السائر يصعد التل مواجه وقد أصبح أكثر انتباهًا، بينما يجسد شكوكه في جملة:

- الإسبان!

كانت سلسلة الجبال تنهض خلف تأملاته، وأدار حصانه تجاهها عندما أصبح في القمة.

شكلت السحابة ستارة من الحرير البنفسجي خلف التلال المكسوة بالضباب الأبيض، حيث يبعث الضوء رذاذًا بلون الزعفران. وفي الأعلى، كانت ندف من الذهب الفاتح تزين طيات صغيرة. كانت صفرة كبريتية تضيء الدفء على هذا اللون. بدت مصطبة جبلية مخملية بلون أخضر رقيق تحت أشعة الضوء الرمادية.

تصاعد المزيد من الأبخرة، وبدأت كبرق بطيء بينما تتغير أشكالها باستمرار. اللون الذي كان بنفسجياً في البداية، اصطبغ باللون الأزرق، ثم أصبح ذا بياض مضاء بلون بنفسجي خافت، وفجأة بالأرجواني. ثم تخرت قلب العاصفة، ليشبه نسيجاً زجاجياً لثمرة عنب، وتركزت أطراف قرمزية خافتة في لون أرجواني داكن في الأعالي. تناثرت أشعة شمس مائلة فوق الوادي. تحولت تلك النار المحتضرة إلى اللون الأرجواني مرة أخرى، واحترقت السحابة الكبيرة بحمرة حارة. وفي الخلفية كانت الأشجار الكثيفة تضيء الحياة على الجو الملون. كان التل بلون نيلى أزرق متلألئ كحوصلة حمامة، والأفق يبدو كنهج وردى عميق.

تفحص مقتفي الأثر القمم بيد على حاجبيه. كانت مجموعة من حيوان اللاما تهرب بعيداً، تقفز من صخرة لصخرة، ولفتت هذه الواقعة انتباهه. كان هناك أناس يتحركون هناك. من دون شك، هم من تركوا آثاراً على العشب. فجأة، تغلغل هذا اليقين داخله. هذه الفرقة تسير منذ وقت طويل، وسيمنعهم من الوصول لهدفهم إن أمكنه الاتصال بالميليشيات الريفية. وهكذا، يجب أن يذهب بمفرده بالطبع. إن تصرف بمهارة وذكاء، يمكن لفرد واحد أن يتغلب على عشرة...

واتخذ قراره على الفور. أمسك باللجام، ثبت كعبيه، وبعدها حسب المسافة، وجد أن أفضل طريق للتقدم عليهم هو عبور الحقول. بدأ مظهره هائلاً في الشفق.

بدا وجهه كالجمجمة بعدما انتفخ أنفه. ابتلت عيناه الزرقاوان المتباعدتان  
للغاية كعيني حسان صغير. كانت القبعة تخفي وجهه. عُقد شريط القبعة  
-الذي يمر تحت أنفه- كانت ترفع شاربه الناصع.

نظرة أخيرة اخترقت سلاسل الجبال التي كان سوادها الياقوتي يتحول إلى  
شفافية زجاج سميك. كان مطر غزير يسقط من السحابة بعيداً، كأنه ستارة  
داكنة. تردد الرجل للحظة، وهمز حصانه، وضبط مضغة الكوكا في جانب  
فمه، وبدأ في السير على الآثار. استمرت الأغاني العاطفية في الكرنفال:

كم هو لطيف رؤية فتاة

-القمر والشمس-

عندما يتوددون إليها

-ابتهجي يا قلبي-

تميل وتكسر عصياً صغيرة

-القمر والشمس-

في إشارة إلى أن هناك من تحب.

-ابتهجي يا قلبي-

كانت الأشعار تصف الشكوى، وتوحي بأوهام الحرية المطلقة من ذل  
العبودية التي لا نهاية لها؛ وتوسلات بشيء من الحب للتعافي من مصائب  
كبيرة، وأحزان الغياب، ويأس الحنين...  
شفت السماء، الرقيقة مثل بشرة الوجه، لوناً وردياً شفافاً، وكانت مزينة  
بالخفقان الخفيف لضوء القمر.

انظروا ها هي امرأة جميلة قادمة

-الحقيقة الخالصة-

تتوسل على الرمال،

-هيا يا حياتي، تحت شجرة الجوز-

هكذا يجب أن يتوسلوا من أجلي

-الحقيقة الخالصة-

عندما يصفدونني بالسلاسل.

-هيا يا حياتي، تحت شجرة الجوز-

سار الحصان بخطى متمهلة في المساء.

ازداد عدد المفرزة الإسبانية بانضمام خمسة جنود آخرين،  
ووصلوا إلى معسكر كتائبهم مع نهاية المساء. ضلل المرشد  
الفرقة، وفر فور دخولهم إلى قلب الجبل. عادت الفرقة بعد أن

أعدمته بإطلاق النار، ولم يعثروا على المؤن التي كانوا يبحثون عنها بشكل عشوائي.

عانى الباقون من نفس المصير، باستثناء واحد كان يحمل نصف حيوان لاما. لم يعثر أي منهم على أعداء أو على قرى. لم تكثر الميليشيات الريفية برؤية هؤلاء الفرسان الذين يسيرون في أزواج، ربما لأنهم كانوا يضعون كل تركيزهم في الجزء الأكبر من القوات. كانوا سينامون في هدوء، إن أمكنهم، لتخفيف شعورهم بالفشل.

استمروا مستيقظين أربع ليال متواصلة رغم التعب. كانت بغالهم المرهقة بحاجة لهذا أيضاً. جاءت من الهضبة، وتحملت في وداعتها الصلدة، لكنها نحفت بسبب الضنك، وتنزف بسبب الخفافيش في الغابة، وترفع آذانها الحزينة فوق الغضب الكئيب للجيش الغارق في ممرات التلال التي لا نهاية لها. لم يكن لديهم سوى طعام قليل للغاية، وأكلوه بمجرد تعبهم. كانوا قد تناولوا الغداء فقط منذ سفرهم، وأخافهم هذا الوضع بشدة. على الرغم من هذا، ناموا دون أي قلق في تلك الليلة لأنهم كانوا متأكدين من وحدتهم.

كان مقتني الأثر ينتظر مستلقياً على بطنه بجوار صخرة تخفيها النباتات الشائكة. كان هناك أربعة رجال في ذات الوضع بجواره، وكانوا يتبادلون كلمات غير مفهومة من حين لآخر.

كان الغزاة يقضون ليلتهم على مسافة قريبة، حول البنادق المتراكمة، والتي كانت تعكس ضوء القمر الذي ما زال نحيفاً وأصبح قريباً من الأفق. كانت البغال تتحرك أمامهم بشكل عشوائي، وكانت هناك كتلة ثابتة وسط القوات النائمة، كانت العربة الوحيدة لديهم. الحراس، الذين غلبهم النوم بالطبع، لم يطلوا بظلالهم التي يجب أن تكون منتبهة.

اتجه أحد المتمردين إلى حصانه الذي بدأ في التشمم، وأحاط رأسه بالبونشو ليمنعه من الصهيل المفاجئ، وارتجل آخر لجاماً من مقبض سوطه لحصانه المتوتر أيضاً. تمددا مرة أخرى، وأضافا المزيد لمضغات الكوكا، ووضعا خناجرهما في أعمدتها، بالنصل إلى أسفل، بحيث تقطع عندما تخرج. قلدهما الآخرون، كل على طريقته، وسرعان ما ساد السكون مرة أخرى. كانت الحملة تنام تحت أقدامهم.

مرت ساعة. ظهر القمر في النهاية، ودغدغت نسمة هواء أفقية المحاربين. كانوا ينتظرونها. كانت الريح التي تهب عندما يظهر القمر، كأنما يأتي على التو مستجيباً لتصفيرهم.

تبعث هبة أكثر قوة الهبة الأولى، وتلتها أخريات وأخريات. غمغمت الأشجار وسط الأحلام. وتزايدت الاهتزازات بسرعة في الجو، لتستطيل الهمهمات وسط الشجيرات. كان النسيم ينثر شريطه الصوتي كاملاً؛ ويتسارع غمز النجوم، وينتشر كلام سريع السريان في الحقول...

انسابت خمسة ظلال نحو معسكر الإسبان، وكانت متخفية على نحو مزدوج، بالمعاطف والنعاس الذي يغط فيه الإسبان. وبعد قليل كانوا يحومون حول أعمدة الدخان التي يطيح بها الهواء على مستوى الأرض. سرى بعض الشرر بين الأعشاب؛ واندلعت ألسنة لهب صغيرة مهتزة، لتتفرع شبراً فوق الأرض، وتنتشر بعيداً. وكأنما انتفخت الرياح في تلك اللحظة، انفجر وابل من النيران في الليل.

وهجم المتمردون مع الوهج، بكل حمية بغالهم، بينما يصرون أصواتاً بالربت على أفواههم، والسياط تسقط على الجلود الواهنة للبالغ التي كانت ترفس النار بشكل عشوائي.

تقدم الحريق نحو عربة المعسكر، لتهدد خشب العربة، الذي كان وقوداً مثاليًا، بكريات الشرر المنبعثة من الأرض. اتحدت الحرائق الياقوتية -الثمانية أو العشرة- المحيطة بالإسبان في حلقة واحدة. تقافزت أجساد يعتم عليها الدخان خوفاً من الحريق، وأسندت ركبها إلى الأرض ثم أخذت في إطلاق الرصاص من دون هدى.

توغلت مجموعة صغيرة بشجاعة وسط صفوف رجال حرب العصابات. جرجر رجال شبه عراة البارود. ارتفعت صيحات أمرة، وقسم غاضب يائس، ومناشدة وسباب. انفجر بوق مجنون بالنداءات.

تساقطت جمرات شقراء على سطح العربة كالأمطار. التهمت النار الشجيرات من جذورها، ورفرفت بقعقة في مظلة ملتهبة، وعصفت رائحتها النتنة بالوجوه، وأدمع دخانها الكاوي العيون. ردت الأشجار بصفير وضربات على إطلاق النار الصادر من القوات المحترقة. اشتعلت سيقان نباتات جافة بألسنة زرقاء، لتنتقل في الهواء كأعمدة ملتوية، كجدائل مقصوصة. خرجت طيور خائفة من الجبل، جرت حيوانات على الأرض ككريات متناثرة.

تكسرت الشبكة النارية تحت ضربات من الهواء على فترات متقطعة وأسقطت الدخان، لتكشف عن خفقان أرض مفروشة بالجمر. تراجعت القوات أمام اندلاع كتائب النار التي يطلقها المتمردون أثناء مرورهم. كانت تتراجع على هيئة نصف دائرة في الجانب المحترق، لكن ألسنة اللهب كانت تتطاير باستمرار فوق رؤوس المرتعشة، وتجلدهم الأغصان المتقدمة لدرجة أنها بدت وكأنها زجاجية، بينما ينفثون شهقات رئاتهم في الليل. رفعت القوات الإسبانية الحراب والسيوف، والتي كانت سوداء فوق الإضاءة التي تضيء اللون الأحمر في المكان، في اندفاعات مفاجئة مثل الصفعات، وتحرق رتبًا ذاوية ونطاقات باهتة.

ناور هؤلاء الجنود على نحو تكتيكي تحت مظلة من النيران، ببطولة تصل لدرجة التهور، والتي كانت التلال البعيدة تهتف لها، تحت أطرافها المغطاة بالجليد: رائع!

كانت النيران تشوي أفخادهم، وتلصق شرارات نارية بملابسهم؛ وبينما كان البعض يجر العربة، كان آخرون يتصدون للنار في الأمام لإزالة الوقود من طريق اللهب. ربما كانت النجاة تعتمد على هذا السور المانع الذي نجحوا في إقامته في النهاية؛ لكن الرياح كانت عصية على التحكم. تدرجت النيران نحو ذلك المانع بعدما جذبها الفرن الذي يحفره الاحتراق. تمدد اللهب كالأذرع، واشتعل في الجانب المقابل، وبدأ القتال مرة أخرى.

غزت أفواج اللهب المتموجة الظلمات، لتغمرها في حشرات سائلة.

أولاً: جيش من العفاريت التي كانتها العناكب القافزة، وخلفها تلمع السيوف الوردية مرفرفة والرايات المشتعلة لجيش الغزاة.

بعد ذلك، انفجرت عيدان الذرة وسط شرارات هائلة، وفي الأعلى، على ارتفاع هائل، ظهر الجنود مغطون بريش كثيف، وفي النهاية، كانت الأشجار تطلق جمراً ضعفاً ارتفاعها في الظلام. وأعلى من كل هذا كان الجنود من رماة القنابل اليدوية، بصدرياتهم المدرعة اللامعة.

كان ذباب هائل العدد يطقطق في الأجزاء الخضراء. رسمت الصواريخ مساراتها في الهواء. تفتت لحاء الأشجار إلى شظايا متقدة. وبرز شخير ألسنة اللهب فوق هذا الشجار من الضوء والدخان الذي كان مرور القوات يزيد كثافة بسحابة الغبار التي يثيرها.

تحول التراجع إلى فرار. كانوا يتجهون إلى المجهول، يجرعون أذيال الهزيمة وسط الوحدة، مسحوقين تحت سقف منخفض للغاية من الدخان، لدرجة أن رؤوسهم كانت تدخل فيه أحياناً. وظهر عائق جديد في الوحدة. جدار حجري سد طريقهم، وأمام هذا المانع غير المتوقع انهارت عزائمهم. مثل هذه المصادفات المتزامنة كانت تنطوي على نبوءات غامضة.

دفعتهم الكوارث المتتالية إلى الجنون. ثبت البعض بنادقهم تحت ذقونهم بعزم كبير. بدأت المُدَى في فتح الطريق. سعد أحدهم فوق الجدار الحجري، ووقف بذراعيه مفتوحتين؛ وانهالت عليه الصيحات من كل مكان: "نذل"...

لكن حينئذ قال البوق كلمته بالطاعة والموت. قفزوا جميعاً لتسلق ذلك الجدار، وعبروا واحداً تلو الآخر. وما إن أصبحوا في أمان خلف ذلك العائق الذي يحميهم، هجمت عليهم ذكري: العربة!

ما إن نطقوا بهذا حتى وقع الانفجار. كانوا مدفونين داخل سحابة الدخان التي سقطت عليهم، عندما مر شيء هائل بينهم بأذراً الموت. عبر ذلك الشيء الدخان، واختفى بعيداً بينما يعوي. شعروا أنه يتحرك من جديد في العتمة، وينطلق في هجوم جديد...

وأمكنهم رؤيته. فارس واحد، بسيف في يده، يتقدم نحوهم.

قام الكثيرون بتركيب السونكي في البنادق، لكنهم لم يستطيعوا تفادي الهجوم لعجزهم عن الرؤية. مر المتهور في دوامة من ضربات السيوف والعواء.

صيحة...

... صمت...

... ضربة أخرى...

ظهرت الثغرة التي فتحها الانفجار في الجدار مرة أخرى. واجه الجنود. ارتطم بأطراف الحراب. أسقطت الضربات حصانه، لكنه خرج سليمًا، جالسًا على الأرض، أمام النظرة الذاهلة للجنود. وجرى نحو السور بينما يوجه الضربات لتفادي شبكة التصويبات الموجهة عليه، وانتظر محتميًا به.

هجم عليه جنود المملكة، وارتفعت حزمة من السيوف فوقه. كانت شجيرة تحترق بالقرب منهم، بحيث تركز القتال في هذه البؤرة. سقطت السيوف المرفوعة، وعندما ارتفعت مرة أخرى، ظهر المقاتل الوطني مغطى تمامًا باللون الأرجواني.

لكنه هاجم أيضًا، وقام بمضاعفة حركاته وخدعه، سواء بليّ كاحله فجأة، أو الاستلقاء على الأرض للحظة ليفرد مفاصل أصابعه. كانوا قريبين منه للغاية في إحاطتهم به، بحيث يستحيل إطلاق النار عليه دون أن يصيب بعضهم بعضًا.

كانوا نهمين لتلك الفريسة الشجاعة، ويزأرون بلعنات، ويضغطون على أفكاكهم حنقًا. كان ذلك الجاوتشو يمثل في شخصه الحريق الذي يجسد هزيمتهم، ولا يبدو منه في النهاية سوى جسد متمرد. كانوا واثقين من أنهم سيقتلونه، لدرجة أنهم لم يطلبوا منه الاستسلام.

كان سيفه يتحدث دائمًا. كان ينسج سياجًا حول جسده العاري القرمزي. كان رأسه يبدو ككرة من اللحم المفروم النيء. لم تعد هناك ملامح في وجهه، فقد انمحت في لونه القرمزي مثل قرص شمس خريفي.

سكن لبرهة، لكنه عادة لمحاولة الهجوم مرة أخرى. لم يسمحوا له. انغرس عشرون نصلًا في جسده، وألقيت بندقية من خلف السياج لترتطم برأسه... لكنه أطاح بيده... وصرخ... وساد الصمت بعد ذلك. في تلك اللحظة، صدر أمر من العتمة:

- لا تقتلوه!

كان الكولونيل محاطًا بضباطه تحت بعض الأشجار ويراقب الرجل الجريح بحاجبين مقضبين متحدين. كانت بندقية الحارس تحمل فتيلًا يقوم مقام شعلة مضيئة. تأرجح النور على الوجوه كأنه خفقات أجنحة فراشة. كان الأسير الجالس على حجر ينزف خيوطًا من الدم.

كان عارياً من الخصر إلى أعلى، وصدرة ممتلئ بدوائر من الدم المتخثر على الشعر، وكانت أنفاسه كالشخير. كانت هناك ضربة سيف، وتبدو كشق عروءة، على كتفه الأيمن، وحاجباه مغطيان بالدم. وخصلات شعر دامية تسقط على جبهته. كانت ذراعه اليسرى لحماً مفروماً، وفي نهايتها اليد المقطوعة من الخلف وتسكب الدم على الركبة التي تتكئ عليها. كانت كتفاه مفتولتين كفخذي الحصان، ويبدو عنقه البرونزي العارق وسط خصلات شعر مشعثة. بدت خطوط السخام التي تغطيه كجراح أخرى.

لا يمكنهم إسعافه دون طبيب أو أدوات. كما أنه لم يرغب بالاستلقاء على المعطف الذي عرضه عليه. وأخذوا ينظرون له بينما يحتضر، وقد تملك منهم ذهول يشبه الخوف.

ذلك الجريح كان يعبر بوضوح عن الأجساد القوية التي يتجذر فيها ذلك التمرد، حيث كانت التلال تخفي رجالاً هائلين كسلاسل الجبال. بالفعل لم يكن سوى رجل واحد، لكن على الرغم من هذا كانوا يبدون صغاراً في إحاطتهم به. وعلى الأخص لأنه يبدو منتصراً، وصلابته كشجرة تبدو متباهية بهذا أمام الموت.

كان نور الحريق يتوج تلاً على مسافة بعيدة. انحجبت السماء خلف سحابة وردية تماماً، مثل جناح طائر الفلامنجو، والتي وعمقت الظلام المحيط بهم. ساد الصمت بعد ضجيج الفرار. كان

الظلام معبِّقاً بأبخرة من الأرض المحترقة أثناء القتال.

أخذوا يشعرون بالإعجاب شيئاً فشيئاً أمام الجسد المواجه لهم. استمر الجاوتشو في النزيف. أصبح محاطاً ببركة. القائد، الذي شعر بالتوتر في هذا الموقف الغريب أمام الرجل المرعب الذي يثير الغضب والشفقة في الوقت ذاته، أفصح عن أفكاره، بينما ينظر نحو العتمة:

- ... إنكم لا تعرفون ماذا تفعلون. تضعون على رأسكم أمراء الحرب الذين يسرقونكم ويزعجون بكم السلطة، ثم يقتلون بعضهم بعضاً... لا تفكروا أن جيوش الملك ستنتصر...

بصق الرجل بصاقاً أحمر إلى جانب.

- ... ستنتصر في النهاية... وحينئذ لن نعفو عنكم...

- سيدي الكولونيل، متى ستأمر بإطلاق الرصاص عليّ؟ قاطعه الجريح.

تبادل المحيطون به النظرات بأطراف أعينهم، وتظاهر القائد أنه لم يلحظ أي شيء، وسأل المتمرد:

- كم كان عددكم؟

- خمسة. كما ترى، كنت ذاهباً إلى بيتي، ورأيت الآثار. قلت لنفسي إن الإسبان يسيرون في هذا الطريق. مروا منذ فترة. وأخذت ذات الاتجاه. التقيت بأربعة فتیان من أصدقائي،

وصحبوني. وهبط الليل. ولم نعد نرى... وكنت أجد الآثار اعتماداً على الرائحة القوية لبقايا النار والدوس على الأرض. كنت أعتقد أنهم عشرة فرسان... عندما رأيت أن العدد أكثر من هذا قليلاً، لم أرغب في التراجع...  
"أكثر من هذا قليلاً"، كانوا أكثر من مئة، لكن قدرة الرجل على العد كانت محدودة بأصابعه.

- شعرت برغبة في القتال! قلت للآخرين أن يذهبوا ببغالهم. وإنني سأظل لمشاهدة الحريق ثم أحكي لهم. خلعت القميص وحفظته. هذه هي حالنا نحن الفقراء يا سيدي الكولونيل. الجلد مناسب لنا، لكن النسيج...  
بصق مرة أخرى، وأدخل أصبعاً من يده السليمة في أنفه، بينما كان يستكمل حكاية هجومه.

- حسناً، انتظرنا مستلقين على بطوننا فوق الأعشاب حتى طلع القمر في السماء. وفجأة... أشعلنا النيران في تلك الحقول... وأنت تعرف نهاية الحكاية يا سيدي الكولونيل!

وأطلق أمام القائد ضحكته المجلجلة في الوجه ذي العظام البارزة، المغطى بالدم. التباهي بتلك البطولة شوه وجهه، لدرجة أن القائد ارتجف بشكل غامض.

- أنت بمفردك، إذن...

- بمفردي يا سيدي الكولونيل.

- ألا تكذب؟

تحولت الخيوط الحمراء المتساقطة من جبهته إلى شلالين؛ انحنى صدره إلى الأمام وأخفض رأسه دون العثور على إجابة، وزمجر وسط الدم "يحيا الوطن".

لم يرفع أي شخص آخر رأسه أيضاً. كان الأسير يحرك قدميه شارد الذهن، وكان وحل دام يبزغ بين أصابع قدميه. شعر بالغثيان قليلاً، وهزت قشعريرة غامضة فكاه. سأله القائد بصوت خفيض، ولم يكن قد لحظ أنه لم يعد يتوجه إليه بصيغة المخاطب دون ألقاب:

- ماذا تعرف حضرتك عن الوطن؟...

نظر له الجريح في صمت. مد ذارعه نحو الأفق، وأصبح إصبعه فوق الجبال والحقول والأنهار، البلد الذي يدافع عنه الميليشيات الريفية بصدورها، ربما كان يشير أيضاً إلى البحر وجزء من الليل... رفع إصبعه في الحال، وأشار إلى أعلى، ليظل هكذا، مستقيماً تحت نجمة...

اغتمت النظرات. سقطت اللحي في أعناق المعاطف.

تزايد الصمت لدرجة الضيق تقريباً. أوشكت الشعلة المرتجلة على الانتهاء.

طينين من الأفكار كان يملأ رأس القائد الذي أغمض عينيه. ذلك الوطن بغضبه القاتل كان يستعصي عليه. بم يتميز ليثير مثل هذه الشجاعة؟ تتطاير حيوات هؤلاء الرجال أمام ذلك الوطن مثل بخور جنائزي، ولم تستطع الأصنام العلمانية أن تتغلب عليه:

- الرب، إسبانيا، الملك...

اقترب أحد الضباط ببطء في تلك اللحظة:

- سيدي الكولونيل...

ارتعش القائد.

قال الضابط:

- يبدو أنه قد مات...

وأطفأ الشعلة.

## المبعوث

تبددت الرياح فوق السهب بعدما أسقطت مطراً خفيفاً على القمم. ولدت شمس نحيلة كالشمعة فوق الجليد الممتد كبحر؛ انفتح وادٍ وسط الرمال في الأسفل.

كان الطريق يتلوى نحو الوادي، حيث كان يهبط بين المنحدرات أو يصعد مثل المدرج فوق صخور رقيقة مستوية. لم تكن هناك زقزقة، ولا أثر للنباتات، باستثناء شجيرتين أو ثلاث تطرح نبقاً في منتصف الطريق، وسط الصخور، والتي بدت حباتها القرمزية مثل قطرات الدم على الشجيرة الخشنة.

كان الوادي محاطاً بجدران ضخمة، وكانت الظلال تسقط على قحوسته الشبيهة بقحولة فوهة بركانية، لتبدو هذه الظلال كتجاويف الجماجم والحفر والأخاديد. بقيت آثار ثلج الليل على المنحدر الشرقي المعتم للغاية. كانت هذه الآثار كبقع جييرية فوق ياقوت قاتم. على الجانب المقابل، سلخت الشمس الصخور لتتركها متعددة الألوان مثل لحم البقر.

كانت الطبقات متداخلة كأنها سقف، به صفوف من القرميد

وطحالب خضراء. كانت الصخور الرملية معروقة بالأصفر الجيري ولون أرجواني كالزئبق. كانت الطحالب تخرق الصخور وتترك مجالاً لتقشرات الأرجنت. وطبقات كثيفة من الأملاح تغطي الصخور، فتلمع من بعيد ببريق كالماء المتترق. كان الكوارتز ييزغ في نتوءات على حافة الشقوق التي صبغتها النار القديمة بالسخام لتصبح كالندوب الكثيبة؛ وكانت هناك بضع سَحَالٍ تجري بأمان في الشمس.

كانت هناك مجموعة صغيرة من الإسبان في الأعلى، حيث كانت تطل على المكان بصرامة شديدة. فرض جمود الريح هدوءاً شديداً على وجوه المجموعة، بدا أنه مع الضوء النفطي للشمس النحيلة، يؤخر الليل على وجوه الجنود الإسبان.

ما زالت أجفانهم محتقنة بسبب السهاد في ظل الخطر في الليلة السابقة؛ حيث كانت هذه الجفون مغطاة بالصقيع وفحيح العاصفة الأبدية يعذبهم طوال الساعات اللانهائية من العجز والوحدة.

مر عليهم نصف أسبوع بينما يصعدون المنحدرات، حرقتهم الشمس في النهار. جمدهم الصقيع ليلاً. ودائماً، دائماً، كانت رياح الجبل الوحشية تضربهم بخشونة سكين يخرق جلودهم

أو بمرارة دواء لاذع، أحياناً تلهث كالكلاب، أحياناً تثير ضجة كآلة خارجة عن التحكم، وتعود للعمل بشكل صحيح بعد ضربات العصي أو بصفعات وحشية. أحياناً تصبح عاصفة تلفهم بدوامات رملية غاضبة، وأحياناً ريح باردة تضرب كأنما ضربات سيوف، صلبة وشفافة مثل الزجاج، قاتمة كالضباب. كانت مثل خرقة لا تتوقف عن الحركة؛ تندفع نحو نفس النقطة خلال يوم كامل، لتبدأ فجأة باندفاع مجنون وتنفجر على الجبل وتجعله يرتجف بذعر مخيف، أو تنخرط فجأة في تغطية مساحات هائلة بالجليد القاتل الذي يمنع الحركة، كأنما انفتح قبو في الهاوية؛ لتعود التشنجات سريعاً، مع نوبات متقطعة من الصفير واندفاع نهائية إلى القاع مرة أخرى، لتعوي برعب صرعي على حافة الهاوية، لتتزع جليد المنحدرات وتحوله إلى زوابع، مثل شخص أفلت ونشب مخالفه على ذلك الجدار. ودائماً مستيقظة، وتجلد أجسادهم بسوط الرمل.

كان هؤلاء الجنود الإسبان يشكلون مجموعة كئيبة للغاية وسط صمت الثلوج غير المبهج على الإطلاق. كانوا ملتحفين بمعاطفهم التي كانت الرياح تتجاذبها بقوة، كأنما لتخلعها عنهم. كانت الوجوه جامدة مثل اللحم المجفف، وشفاههم رمادية مثل الجرانيت، وعجزهم الكئيب متماهٍ مع وهن بغالهم.

على الرغم من كل هذه المصاعب، فقد استمتعوا بشيء من التراخي وسط هذا الهدوء. لن يستمر كثيراً، لكن على أي حال...

لم يعد بإمكانهم العودة بعدما توغلوا كثيراً في الجبل، وعلى الأرجح فقدوا الاتصال بفرقتهم؛ كان الأمل الوحيد المتبقي لهم هو اللقاء بفرقة استطلاعية، والتي تلقوا أخبارها عند مغادرتهم.

تناولوا حصة الطعام الأخيرة في الليلة السابقة، لحمًا مجففًا بئسًا، والآن يسرون في رحمة الرب بين الوحشة والجليد.

كانت عيون البعض دامية بسبب الصداع، ويحدقون بوحشية الحيوانات البرية، وشبه مجانين تحت لدغات تلك الرياح التي تبدو وكأنها محور للتعذيب، تدور جماجمهم حوله مثل أشخاص حمقى في الفراغ.

كانوا يتبادلون النظر كأنما في مجلس حرب غير معن، ولم يجرؤوا على النزول، خوفًا من وجود كمين من إحدى الفرق في ذلك الوادي، وفجأة اندلع عمود من الدخان خلف صخرة في منتصف الطريق. تماوج لبرهة، ملتصقًا بالصخرة، وانقطع فجأة، وكأن شعلته قد انطفأت في الأسفل، ثم سعد مرة أخرى كأنما يدور في دوامات كثيفة.

في الوقت نفسه تقريبًا، خرج فارس من تلك النقطة، واتخذ الطريق الهابط، وكان غير منتهب تمامًا للمراقبة التي يخضع لها.

أخذ الجنود الإسبان السير في ذات الاتجاه، وصفروا له من أعلى دون أن يسمعونهم في البداية. عندما سمعهم، كانت حركته الأولى هي همز الحصان، ولكن، عندما أمطرته البنادق بالرصاص،

ظل بلا حراك، بينما نزل الآخرون وسط أنين البغال التي كانت خشونة الحصى  
تخترق حوافرها حتى العظم.

تحدثت الأساطير الوطنية عن إحدى السيدات، التي قادها الحب والحماس  
لحمل رسائل كل شهرين أو ثلاثة أشهر من القائد إلى أبعد الميليشيات  
الريفية فوق أبعد قمم الإنديز، وسط خطر الموت. بفضل امتيازاتها كأنتى،  
عبرت الخطوط الإسبانية عدة مرات. لكن تم الإمساك بها في المرتين  
الأخيرتين، وعلى الرغم من عفو الإسبان عنها كمجاملة بالنظر إلى تهورها،  
فقد تم إنقاذها في المرة الأخيرة بوزنها ذهبًا، مع التأكيد على سجنها نهائيًا  
إذا عادت لسيرتها الأولى.

لقد كانت من أشد الناس عزماً. وكدليل على وطنيتها، ذهبت إلى حفل  
إسباني في محافظة "سالتا" وقد ارتدت حذاء معبراً عن الوطن، بفردة زرقاء  
والأخرى بيضاء. وصدرها مزين بعقد من اللؤلؤ والفيروز، بينما تتوج رأسها  
بشعار الوطن المثبت في قاعدة مشطها.

كانت عاشقة كبيرة لزوجها الذي كان يحارب بعيداً، وكانت تبحث عنه  
في أرجاء البلاد أثناء الحرب، حيث تحرقها نار الحب عندما تغيب كثيراً  
عن ذراعيه. كانا يمارسان الحب مثل الأسود الجميلة على الأرض الصلبة،  
ويستخدمان ملابس المحارب الخشنة كوسادة. كانا يغوصان بقلبيهما في  
الليل المرصع بالنجوم والنسيم الحر، ليزداد خفقان قلبيهما أثناء تلك الغزوات،

آمنين في تلك اللحظة من العزلة بجوار السيوف التي تلمع.

كان الخطر كبيراً في المرة الأخيرة، لدرجة أنهما اتفقا على عدم مقابلة بعضهما بعضاً بعد ذلك، لكن ليالي الوحدة أصبحت حزينة جداً تدريجياً. الحب، الذي كانت معاناته تنتهي إلى تنهدات في البداية، سرعان ما زأر عطشه في حزن المرأة المتهورة، واستبق المصائب، ملمحاً بتردد خجل إلى جريمة الخيانة الزوجية، وهو ما أزعجها للغاية، لدرجة أنها ذات يوم، بعد لقاء القائد، اختفت بمفردها على متن أفضل خيوله.

لم يعرف أحد سواه وجهتها أو طبيعة الرسالة التي تحملها. لكن هذه الرسالة كانت خطرة للغاية بقدر ما كان عزمها، وبعد الوقت المناسب، كانت تعني لجيش الأعداء فقدان قاعدة عملياته.

كان الدخان يوسع حلقاته الكثيفة فوق جرف الثلج، عندما وصل الجنود الإسبان إلى المكان حيث كان المسافر ينتظر. كانت الأرض تكشف عن بقايا الفروع التي غدت النار، ويمكن رؤية جمرات الياريتا الذاوية والدخان الذي يفوح برائحة العنبر. بالطبع كانت تلك النار موقدة بنية خبيثة؛ لأن بعض الحطب كان كافياً للإفطار أو إعداد الماتيه. أطاحت ركلتان بالنار دون اعتراض من المسافر، الذي لا زال راكباً، وغارقاً في خوف لا واعي، بينما يمضغ فص ثوم بدأ فيه لدى بدء المسيرة لكيلا يشعر بالإعياء. كان فتى يتمتع بجمال بادٍ، على الرغم من الغبار الذي يلوث ملامحه، كأنما فعل هذا عمداً، وقميصه وبنطلونه من النسيج الخشن القديم،

وحذائه المهترئ. كانت وجنتاه بلون وردي مخملي مثل الفاكهة على الرغم من الغبار الذي غطى وجهه بسبب العاصفة. وكان عنقه أبيض كالحليب رغم أنه كان محمصاً للغاية.

بدا مستحيلاً أن يكون هذا الصبي جاسوساً. لكن الثوار كانوا قادرين على كل شيء. ولدراية الإسبان بحيلهم، بدؤوا في استجوابه:

- ما اسمه؟ ما هي وجهته؟

التزم الفتى بالصمت، وأخفض رأسه حتى أخفى عينيه تحت القبعة، ولم يكن القائد قد انتبه لجمال هاتين العينين.

- لكن، ماذا كان يفعل! هل كان يتنزه في ذلك البلد الجميل؟ وذلك الدخان؟... هل كان للميليشيات الريفية؟ ألم يكن يخشى أن يطلقوا عليه الرصاص؟...

استمر المسافر في عناده، وكان القائد ينتبه شيئاً فشيئاً إلى مظهره غير الريفى، وأصابه الرقيقة النبيلة وخصلات الشعر المتطايرة خلف عنقه. كان به شيء مميز، دون أن يمكنه تحديده.

كان الطريق الجبلي يبدو قحلاً، بشكل مربع تقريباً، تحت الشمس الساطعة. كانت القمم ترتفع واحدة تلو الأخرى في الأعالي، حتى بدا الأفق حجرياً، وأوحت بيقين هائل أنها جامدة منذ قرون. بدا أنها تجمد الصمت ذاته بجليدها.

كانت الألوان المعدنية تبدو أكثر قوة في منحدرات الوادي، حيث اصطبغ الأصفر الداكن بالحمرة، ولمعت الصخور البركانية السوداء باللون الرمادي للبرموت. كانت زرقة السماء داكنة. أصبح الهواء هشا كجلد منتفخ جاف، وتضاعف السكون حتى درجة المهابة، عندما هبطت الريح بخوار مفاجئ، وأخذت تدور مثل نحلة مجنونة، وترمي الرمال على الوجوه وتحفز مرة أخرى جحافلها الجامحة.

لم يكن بإمكانهم البقاء في ذلك الطريق الذي كانت الرياح تجتاحه دون توقف، وعزم القائد على إنهاء صمت الصبي الذي كانت ملاحظته تثير فضوله، ورفع وجهه بحركة مفاجئة:

- انزل يا ماكر.

كان تأثير هذه الكلمات عليه غريباً، كما كانت مقاومته وشجاعته. شحبت بشرته، وضغط بركبتيه بتشنج على حشية السرج البائسة المصنوعة من جلد الشياه، وتوسل بصوته منتحباً:

- لا يا سيدي، لا يا سيدي. أستحلفك بحياتك.

كان بريق عينيه رائع الجمال وسط الدموع؛ وأصبح مظهره أكثر أنثوية بسبب عينيه، بالإضافة لصوته والوضع الذي اتخذته للتوسل، لدرجة أن أحد الرجال تهور بتعليق بذئ بصوت خفيض.

انتبه القائد لهذا أيضاً، لكنه لم يتأثر بهذه المظاهر، ومسد شاربه المتبلور بالبرد:

- انزل إذن.

لكنه لم يستجب أيضاً. وأنزله رجلان بالقوة، وحينئذ ظهرت بقعة دم حديثة على حشية السرج كبرهان كاشف. كشفت العلامة التي لا راد لها عن جنسها، بعدما تجاوزت كل المخاطر والصحاري والجبال في مغامرة سامية من أجل الوطن والحب.

## نوبة صحيان

الأبراج المطلية بالجير؛ تلك الأبراج حيث يوجد الجرس الصغير، الذي دق مرات كثيرة بالنصر بصوته الخشن ليتجاوز مدينة خوخوي الصغيرة في بهجة الفجر.

والأبراج الأخرى البعيدة، ناحية الغرب تستحم بالشمس. وهناك كان الجرس ذو الصوت القوي الذي كان يضيء حزنًا عذبًا على الأمسية.

"اصعدي أيتها الأبراج!"، هكذا كان الجرسان يصدحان في الجو حيث كانت طيور السنونو تطير مندفعة في الفراغ، وتخاطر بأجسادها بينما تلامس الجرسين.

"اصعدي نحو السماء الزرقاء"، هكذا كانا يدعوان بصوتيهما النحاسيين في أيام الأعياد، والشمس تنثر الكثير من الذهب فوق المدينة والحقول، الكثير من الذهب الذي يشبه مجدًا إمبراطوريًا في الهواء الكريستالي.

لم يصدح الجرسان بنغمات حربية قط، كانت أصواتهما تصدح فقط في عيد "كواسيمودو"، الذي كان عيد تأسيس المدينة؛ لكن

عندما قامت قوات الملك بالغزو، عبر الجرسان عن استيائهما بأصوات حزينة. لم تكن الأجراس حربية قط. كان الجرس في الأبراج البيضاء مثل العرائس، المطلية بالجير، يشدو بالترانيم أو بالنعلمات التي تدعو الناس للتعهد وحفلات الزفاف.

وفي الأبراج السامقة نحو السماء، المستحمة بالشمس، يصح الجرس بالتضرعات في الشفق الشتوي، على يد أحد الجيران أو قاضي الصلح أو خادم الدير.

وتشاركاً في إذاعة المراسيم وقرارات الملك، البعيد، مثل الرب.

يتحدث المعدن القديم، بلكنة أرجنتينية، في كل من الأبراج المطلية بالجير والأبراج المستحمة بالشمس، قائلاً: "اصعدي أيتها الأبراج".

كانت تصاحب أنشطة الأساقفة. كانت شجاعة رغم شيخوختها، وتدعو نغماتها الأبراج: "اصعدي أيتها الأبراج! اصعدي إلى السماء الزرقاء!".

كانت نغماتها مختلفة، بحيث إن الكلمات كانت تتسق مع إيقاعها: "مطلية بالجير، مستحمة بالشمس...".

ثم حوار معدني. نغمات مبهجة مع إيقاع الدقات الخشنة في الكأس الرنان؛ تألق قصير من الموسيقى، غمغمات برونزية

ومقاطع صوتية تكرارية من صلاة الملائكة، لتترف فجأة بألحان رشيقة،  
لتلقي الأنشودة كأغنية دون كلمات:

مغسولة بالجير،

مستحمة بالشمس،

اصعدي أيتها الأبراج،

اصعدي إلى السماء الزرقاء...

لكن هذا كان يحدث فقط في أيام الأعياد أو للإعلان عن المراسيم والقرارات  
الكنسية. عادة ما تكون عبارة واحدة فقط لتهنئة طيور السنونو بعودتها.  
وكانت طيور السنونو ترد في الهواء بصفيها على وتر الرياح المرتعش.

تتوجه الأجراس بالدعوة: "أخي، طائر السنونو!". وتنضم طيور السنونو  
بصوت مخلص لتزقزق بصلواتها الرقراقة عبر السماء الزرقاء، لتريق الضوء  
الناعم وتشق الفضاء باندفاع طفولي تحت ثمل شمسي. لم يتوافق  
المعدن قط مع نغمات أكثر بهجة من هذه. أحبت البلاد تلك الأغنية مع  
بزوغ ضوء الصباح القرمزي. كانت تتوق إليها في قيظ الصيف كسيل من  
الطراوة. سمعتها البلاد في غبطة الشفق مع الخجل المرح لأغنية طفولية،  
وعلى ذات القدر بالتأثر القاتل للوداع. وبينما تنتهد الأجراس بالأغنية

في المساء الرمادي، شعرت البلاد أنها تقول باهتزاز الصوت الأخير في  
ارتعاشة لا تنتهي:

طائر السنونو...

السنونو...

سنونو...

نونو...

نونو...

نو...

نو....

ن...

لكن الأجراس لم تعد تمتلك صوت الأزمان الغابرة. الرجل البسيط الذي  
كان يخدم في الكنسية هُرم بدوره، أو أنه أصبح منزعجًا من هؤلاء الثوار  
الملاعين. أحيانًا يطلقون من الأبراج نوبات صحيان في غير موعدها. وفي  
أحيان أخرى يدقون الأجراس دون سبب، أو نداءات في غير موعدها، أو  
يعلنون عن منتصف الليل ثلاث مرات في ليلة واحدة... واستمر الوضع على  
هذه الحال لعدم وجود شخص آخر في الدير بخلاف الخادم.

رحل الرهبان مع أهل المنطقة الذين خرجوا في حشود مع اقتراب الإسبان. لم يبق سوى ذلك الخادم العجوز، الذي كان يقوم بمهام دينية من حين لآخر.

هجران الدير في مثل هذه الحالة الطارئة؟... لم يبق سوى هذا والقبر المخصص لشقيقه سان فرانسيكو. رحل الآخرون عندما أرادوا. لكنه مكث، بردائه من صوف الماعز، وعمره المتقدم، ليحاول توجيه الجنود دينياً.

ووافقوا. لكن مثل هذا التكريس المفاجئ لحياة العزلة في الدير أثار قلق الرهبان. لم يتميز هذا الأخ مطلقاً بالالتزام. كانوا يتهامسون عنه.

كانت له أكثر من مغامرة. بل يقال إن هناك صبيّاً شبيهاً به بين العاملين الملحقين بالدير.

تنسب له الضواحي أكثر من قصيدة علمانية صريحة، بعض الشجارات الهائلة في صخب منتصف الليل. وشهرة كشارب بلا نظير، عندما يمسك بإبريق، يأتي عليه في رشفتين.

ومع ذلك، فقد أوهنته السنوات شيئاً فشيئاً، لتقتصر كل تلك الانحرافات على رحلاته خارج الدير. نظراً لوضعه كمقيم غير

دائم في الدير، عادة ما كانوا يرسلونه لجمع الصدقات بالخروج على كتفه، وقبعة من القش على رأسه، بينما يردد صلوات قصيرة بأداء سيئ.

كان مكرراً للغاية في جمعه للصدقات، ولهذا كثيراً ما لجأ إلى الوسائل البطولية وإخافة الجبناء لإثارة القلوب وفتح الجيوب. الغاية تبرر الوسيلة. وبالإضافة إلى هذا يعود بشطائر جيدة، وجرايه ممتلئ بالشمع والشراب والبيض المسلوق الملون بالبنفسجي والأحمر...

كان يزرع بعض الأعشاب الطبية. ذات مرة، كان الأمر يتعلق بالتيفوس. وصفت مداوية المنطقة ثلاث جرعات من الماء المخلوط وصلابة بجوار الفراش. لكن حالة المريض ساءت. حينئذ جاء خادم الكنيسة؛ وسأل عن الوصفة. بعد ذلك نصحهم بالاستمرار في الماء، لكن مع استبدال الصلاة بمرهم، ونجح العلاج.

في الولايم الريفية، كان يتناول أول قطعة من الخبز وبيارك المائدة. ويتذكرون أيضاً بعرفان تنظيمه لمسيرة دينية في إحدى القرى في أسبوع الآلام.

كانت فتيات ريفيات على هيئة مريم المجدلية يتقدمن الموكب، وكن يحملن شموعاً في أيديهن ويرتدين تاجات من الصبار، والتي كانت توخزنهن وتجرحهن. كانت الكلاب تشير الرعب بعوائها أمام

ذلك المشهد الذي تغلفه الأضواء الصفراء في تناقض بين الجلاء والعتمة. كانت تلك الفرقة متبوعة بفرقة أخرى من جالدي الذات، بقمصانهم ممزقة بسبب الجلادات التي يتلقونها من أكواخ من الخوص المنصوبة على الطريق. بعد ذلك يسوع الناصري في صندوقه الزجاجي، بلون زلالي شاحب ذي زرقة مفرطة، وركبته أرجونيتان، ونقطه دمه الثلاثية على جبهته. وحوله صخب الرعية؛ وأخيراً، في مجموعة أخرى مثل الخفافيش الضخمة، يسير التائبون بأذرعهم المفتوحة وقضبان خشبية على أكتافهم، ورؤوسهم المغطاة بأغطية سوداء. كان اهتزاز الأخشاب يجعلهم يتمايلون أثناء سيرهم، وهو ما كان أحد المساعدين يصوبه بضربات سوط. وكان أحدهم يخبو على أربع، بلجام بين أسنانه، ويجر الزمام الذي يدوس عليه رفيقه أحياناً، وتنزف وجنتاه مع كل كبحه. وهكذا كانت العظة تثير نوبات إغماء وتدفع لاعتراقات صارخة. لم تكن السعادة تسع خادم الكنيسة، وينتهي الطقس بحفل صاخب.

كانت المسيرات هي نقطة قوته؛ لأنه تحول في إحداها. كانت ميزة للمدينة، تجلياً مليئاً بالضوء والرنين. كان الموكب عائداً، عندما ظهر فارس من السكان الأصليين على بغل مفعم بالحيوية في إحدى النواصي القريبة. نزل أمام الموكب، وركع احتراماً على إحدى ركبتيه، لكن البغل أخذ في الصهيل أمام ذلك الحشد. سمع الغريب غمغمة عتاب. على الرغم من أوامره له بالصمت، تزايد تمللم البغل. حينئذ لطمه على إحدى أذنيه تحت ضغط

النظرات اللاذعة. وضع ذراعه على صدره ببطء، وثنى ركبته مرة أخرى. استمر البغل في المقاومة، وظل يحرك قوائمه، لتنعقد كل أعضائه في عقدة واحدة قوية.

طفا صمت لم يعكره بالكاد سوى همس بكلمات غير مفهومة. كانت المجموعة المكونة من الفارس ومطيته تبدو فجأة كتمثال برونزي. صنعت سحابة شاحبة على وجه الغريب. أثار النسيم بضع خصلات شعر على جبهته. ظلت الذراع ثابتة لبرهة.

انتفخ أنف البغل بارتعاشات رنانة، واهتزت مفاصله. انسال خيط من اللعاب من الخطم الأملس. في النهاية، بحركة خفيفة، استسلم عنقه؛ انتثنت قوائمه واستندت إلى الأرض فجأة. صفيق، جلجلة أخرى، واستمر الموكب، بينما كان يمسك بغله وعيناه تتألقان بالنصر، وجبينه متوج بشعر متطاوح. ظل على هذا النحو، دون أن ترمش عيناه، حتى مر الجميع؛ ومنذ اليوم التالي اكتشف ميوله الرهبانية في تلك الحادثة، وأصبح للرهبان أخ آخر.

كان سلوكه ووقاحته عائقين أمام الحصول على النذور الكنسية، ليساهما أيضاً في حصوله على مهام خادم كنسي، وهو المنصب الوحيد الذي اعتبر قادراً عليه. على الرغم من كل هذا، كان مؤمناً حقيقياً، بل كان متعصباً أحياناً. سخاؤه نابع من بدائيته، كان يميل للأطفال والسذج. لم يكن جيبه يخلو من الحلوى مطلقاً، كما لم تغب كلمات المواساة عن شفثيه. إن لم يتلق الاعترافات، كان يقدم نصائح روحية. ولكيلا ينسى خطايا بعض المعترفين

الكسولين، كان يعقد عقدًا في جبل ليعدها، عقدة لكل خطيئة، كبيرة أو صغيرة حسب الخطورة...

لا يمكن الشك في حياته السابقة عندما يراه المرء بالكماشة بين أصابعه ليربط عقد سلسلة، أو عندما يكون في صومعته ويزوم قط عجوز مثله بالتحيات للقادمين. كانت التجاعيد ترسم العبوس على ملامحه، والغموض على وجهه، وكان حاجباه خفيفين. وغزا الشيب شعره، وعظام وجنتيه بارزة، وتقوس ظهره. ولا تظهر قوته القديمة سوى في معصميه فقط، حيث ينبت الإبهامان الغليظان. كانت النساء الورعات يحتقرنه، والضالون يحبونه. إن كان كمتلق للاعترافات يفقد للتائبين، فإنه كرجل مدني كان يمتلك الكثير من الأصدقاء.

قضى الغزو الإسباني على السكينة. خوف الناس، ورائحة الحرب، والبلاد المقفرة، ترجمت في روحه إلى قلق شبيه تمامًا بالحب. كان عالمه يتغير. اتخذت الأشجار والحجارة والجداول نوعًا من الشخصية المرتبطة بشخصيته. انتابته رغبات شريرة، والتي كانت تجهض من تلقاء نفسها وتخلف نكدًا كبيرًا. في غضون ذلك، كانت المدينة تفرغ من سكانها. كل عرباتها المتاحة حملت العائلات والأمتعة، بينما تجرها البغال أو الثيران. رحل آخر المغادرين بعد ظهر أحد الأيام، ثم احتل الإسبان المدينة، وبعد حوار بين خادم الكنيسة وقائد الجاوتشوس، غيرت أجراس الوطن أصواتها.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى لاحظ الإسبان هذه الدقات، التي كان لها دلالات أكبر بالنظر للمصادفات التي تصحبها. كلما حملوا البغال لالتهام الأعشاب تنشب معركة، وكل طلعة استكشافية تنتهي بمفاجأة، دون أن يخطئ الجاوتشوس مطلقاً. قرر قائد القوات الملكية شن هجوم مضاد.

ذات صباح بدأ فوجان من عدة كتائب في التحرك، وكما كان منتظراً، بدأت الأجراس في الدق بعد ذلك مباشرة.

كانت السحب متراكمة فوق التلال المحيطة ويسقط المطر بشكل متقطع. كان خادم الكنيسة يجلس في موقعه فيحيط بنظره كل المنازل المهجورة، والجدران الطينية للضاحية التي يتواجد فيها رجال العصابات: كامل مخطط المدينة، الذي ترسمه القوة بخطها الأسود أثناء تحركها.

وفي البريق الرمادي تظهر الأسطح المغطاة بالطحالب، والجدران الطينية المتآكلة، والحواجز والخوص على بعض الأسطح المزينة بالتبغ الأزرق أو مغطاة بنبات الرجلة باللون الأخضر المائل للحمرة. وتتألق بمثل هذا البريق ثمار أشجار البرتقال الغزيرة، التي تشبه أبراجاً داكنة من نبات الفربيون الشمعي.

وبعيداً، كانت درجات الألوان الغزيرة على التلال تضيئ تناعماً على الطبيعة. كان ذلك التناغم مكوناً من الأخضر الذهبي

للأعشاب، الأخضر الفاتح في أشجار الحميرية، والأخضر الداكن في أشجار الآس، وكان يلف القرية في مخمل زمردى. أوراق الشجر كثيفة كالشعر على التلال، ويظهر الحطب مثل عروق مومياء فوق تلك الخلفية. في بعض الأماكن تكون فروع الأشجار منتفخة كريش النعام، وبعد ذلك تلمع بقع من العشب القصير، مع عباد الشمس، وفي الأعلى، تستعيد أوراق الشجر عمقها، لكنها تختلط بتورقات السحب فيما يشبه التطريز. تحت ذلك الرمادي الممطر، الذي كان مثل حوار بين الألوان، ارتفع ضباب بنفسجي من الجبل. كان السكون أكثر مهابة بسبب الصمت الذي لا يقطعه سوى صفير الطيور الذي يرن بقوة غير معهودة. وشعر العجوز أن صدره يمتلئ بالحنان أمام تلك الأشجار الكثيفة وتلك القمم التي جعلها الخطر تبدو كعائلة، وربما يعتمد تماسكها على دقات أجراسه.

هذه الطبيعة، بالجبل الهائل العاري في الخلفية، كان يعني بذل جهد، كانت السماء تعتم. والقطرات الساقطة من أسقف البيوت كبكائه خوفاً على الوطن.

كانت رياح باردة تزيد من حدة الجو الرمادي. كانت الكتلة في الخلفية تصبح أكثر زرقة مع تلك الومضات الطفيفة من الظل. بعد ذلك انهال الماء، وزأر رعد بين سلاسل الجبال. كان الجبل يزداد ضخامة مع ازدياد عتمته. وكان يقرب موجته من الأحجار والأشجار إلى المدينة. وفي أثناء ذلك صاح ديك على مسافة

بعيدة، وفي الوقت ذاته دق الجرس.

بعد قليل حدثت حركة بين الأشجار الكثيفة. سار الجنود الإسبان في الاتجاه المعاكس. صمت الجرس وتوقف تسلسل القوات.

تحرك آخر للخلف. دقة جديدة...

عادت القوات الإسبانية كلها، واتجه القائد مسرعاً نحو الكنيسة.

رآه خادم الكنيسة، وفهم كل شيء. ربما تنقذه دقة جديدة، لكنه سيكون إنذاراً زائفاً للميليشيات الريفية، وبما أن أمره قد انتهى على أي حال، فإنه لن يضرهم. جلس منتظراً في هدوء.

سمع الأصوات واضحة من الأسفل، تطالبه بسخرية أن يستمر في دق الجرس. وضع يده على أذنه متظاهراً بالصمم...

بعد قليل سمع وقع خطوات في البرج. كان خادم الكنيسة ينظر مقرصاً على الدرجة الأخيرة. كان الجندي يختفي على فترات متقطعة في تجاويف الحلزون. وفي النهاية، ظهرت عينان وشارب كثيف أمام الدرجة الأخيرة.

في تلك العزلة، على حافة الثقب المثير للدوار، خطرت فكرة فظيعة على بال هذين الرجلين، لكن الجندي أحجم أمام الزي الديني، وتراجع الآخر أمام الجريمة. هبطا في صمت، ولم يكن لديهما أي كلمات؛ لأن الجرس الفاضح أكد كل شيء بشعار وطني محفور حديثاً على ساقه، في مقابل الشعار الملكي المتآكل في

جزئه العلوي.

وارتدى خادم الكنيسة معطفه أمام الباب، ثم اتجها معاً إلى المعسكر.  
وبدأ الاستجواب فور وصولهما.

وكان رد العجوز بالنفي مؤشراً واضحاً. الجاوتشوس؟... الإشارات؟...  
المتورطين؟... ولا كلمة واحدة!

كذب بشكل مفضوح، متنازلاً عن فرصته الوحيدة في الجنة من أجل  
ذلك البلد الذي يعيش حبه في قلبه؛ من أجل إخوته ذوي اللون النحاسي،  
وعائلته من الحجارة والأشجار، وأقاربه المهددين من الأنهار. كانت الحرية  
تمنحه الصلابة بعدما صبغته بالبطولة. الكلام؟... لا، ولا ولا - حتى إن طحنت  
كل هذه الجبال عظامه.

سيتهجه الجيش الإسباني إلى محافظة "سالتا" بعد ثلاثة أيام. يسير في  
طريقه، محاطاً بالخراب، بينما يتنفس رياح النصر الذي تلوح به راياته. كان  
مهزوماً بالفعل، لكنه يتمسك بعناد بالوصول لهدفه. ولافتقاده للماشية، تم  
استخدام الهنود بدلاً من البغال لجر العربات.

الانضباط كان يوجد الإرادات، كأنه عارضة قوية؛ لقد انتصروا، انتصروا دائماً،  
لكن الميليشيات الريفية كانت تولد من جديد، وتتشظى في شرارات كحلقة  
من الفولاذ ترتطم بذلك الحجر الصوان الذي لا يمحي. أخذوا يفقدون الأمل  
شيئاً فشيئاً بين الأمتعة المهجورة. لم تكن انتصاراتهم تعني نجاحات: كانت

طريقة للموت.

لهذا كانوا يغادرون المدينة بهذه الهيئة الكثيبة. بينما كانت الأرض العدائية تهتز، كانت الشمس تتألق. كانت النيران التحذيرية تشتعل في التلال. كانت الفرق تتجمع طوال الطريق. سمعوا تبادلًا لإطلاق النار في مقدمة الجيش.

في الساعة ذاتها، صعد شخص ما برج الجرس بصعوبة كبيرة؛ لأن غمغمة القوات وصفير الرياح بين التجاويف كانا مسموعين بين كل خطوة وأخرى. استمرت الخطى، وانقطعت من جديد، واستمرت مرة أخرى...

في النهاية ظهر وجه مرعب في التجويف الموجود تحت الأجراس. كان وجهه يجمع بين خضرة مصفرة، وتخللها خطوط دامية متساقطة من أذنيه على وجنتيه المتورمتين، ولا يمكن التعرف في تلك الهيئة الغريبة على خادم الكنيسة إلا من خلال الزي الديني فقط.

كان الجيش والميليشيات الريفية مرئيين من تجاويف البرج، لكن العجوز لم يعد ينظر بتلك البهجة القديمة. كان الهذيان يشوه ملامحه. ذكرى التعذيب الذي تعرض له حديثاً ما زالت تثير ارتجافه.

شعر بالبندقيتين اللتين ثبتت إحداهما مؤخرة العنق، والأخرى مرت عبر حفرة الركبة والأوتار، وقد ضغط رجلان معاً حتى

تلامست البندقيتان؛ الألم الحاد في بطنه المطوي. الألم الهائل كالوخزات في الخصر. خفقات القلب التي دقت رأسه وسدت أنفه فجأة بالدم؛ الجرح الحارق الذي اخترق صدره كالنار. انهيار الكتفين. نظرة الهذيان، عندما لمس ذقنه الركبتين، وخلقت رؤية أبدية للأحذية القذرة؛ تأرجح جسده المشوه، الظلام الأخضر في الغيبوبة...

عندما عاد لوعيه، كان كله مجرد ألم واحد. عذبه بالعطش؛ حيث قربوا منه زمزمية، سمع غمغمة أصوات وفقد وعيه للمرة الثانية. لكن لم تخرج منه كلمة. واستفاد من الارتباك الذي أحدثته المسيرة في صفوف القوات، فر في ذلك اليوم دون أن ينتبه أحد.

استعاد القوة، وجرجر أطرافه حتى أمكنه الوصول للبرج دون أن يعرف كيف.

استمر الجيش في طريقه، وقد أعاقته المناوشات التي قام بها رجاله، ولكنه كان ينتصر دائماً تحت راياته التي تحمل الصلبان القطرية. نظر العجوز إلى أجراسه، وامتلاً وجهه بالحياة.

أرسل في الريح إشارات تحذيرية في صوت دقات الأجراس، والتي كانت تنفجر في أنبوب البرج! استبدال الفرق الموسيقية بهذه الآلة، وبدلاً من العزف، الدق بالمطارق لخلق الموسيقى!

تزامن بين الفكرة والتنفيذ. أمسكت يده بالحبال، وكانت اليدان مشدودتين كقطعة جلد جافة ومرتعشتين بسبب التعذيب. وسرى

اللحن فوق المدينة المهجورة؛ حيث انطلقت الدقات متسارعة، مرتعشة، بانفجارات غير متناغمة.

وحياه الوطنيون بالهتافات. لقد فهموا الأمر.

اشتد الهجوم مع تلك اللهجة المألوفة التي تملأ الهواء بنباح البرونز. انتشر الفرسان بينما يتطاوح البونشو على أكتافهم، وانطلقت الرماح نحو القوات الإسبانية. كأن رنين الأجراس يملأ الميليشيات الريفية بالحماس.

كان الدخان هو خلفية المشهد المليء بالحركة. توقف الجيش لبرهة بنصال السونكي مشهورة وكل اثنين منها متقاطعين على هيئة مقص. هبطت قوات أخرى من الأعلى، وازدادت حدة المعركة مع الضربات الجديدة.

وبينما كان البرونز يرن بندائه الهائل، كان الصخب الجامح يصنع خلفية من الموت والمجد وروعة النصر. من حين لآخر كان يعود لإيقاعه البهيج، ويحتفل بهزائم الأعداء وفرارهم بينما ينهبون الأرض نهباً؛ كان يهدر بدقات عنيفة، والتي كانت تسقط في أرض المعركة بينما تدور حول نفسها كالصواريخ؛ وكان يضيف على الجبال والأشجار والأنهار ألحناً مجيداً، ويزرع الشقاق ويضحك مقهقهاً، ويجرح بصفعات الصنوج غضب ذلك الجيش الذي يتحلل.

كان البرج بأكمله يهتز. كان لهيب موسيقي يندلع من نوافذه.

كان هذيان خادم الكنيسة قد وصل إلى حد الجنون، وكان يدق الجرس بغيظ،  
ليهدر بعنف متزايد، محاطاً بإعصار أوركسترالي.

كان المتحاربون يسمعون أثناء القتال.

كانت تلك الدقات تملأ السماء وتغطي الغابات بخفقات موجاتها، كما  
يغطي طائر فراسخ من الهواء والحقول أثناء تحليقه.

وكان النأي يطفئه شيئاً فشيئاً. والدخان يتلاشى. وطلقات الرصاص تختفي.  
والدق يواصل هتافه "عاش الوطن". عاش. عاش الوطن!

عاش.... وعندما انقطعت حبال المطارق، ظل خادم الكنيسة يدق بها  
بصيحته "عاش الوطن". عاش. عاش. عاش.... كان التعذيب قد شوّهه، وبدا  
أن الإلهام قد ضخمه، بينما يصرخ بتلك الصيحات كأسراب نسور مغنية. عاش!  
عاش. عاش... نحو الجبال والطرق، حيث كان جيش الغزاة يهرب مثل فريسة  
تحت الأجنحة المعدنية لدقاته.

## أنشطة

خرجوا من محافظة "سالتا" واتجهوا إلى الجنوب الشرقي، ليسيروا نحو منحدر سان برناردو.

تلك الفرق من كتيبة "جيرونا" والتي كانت تحمل البغال للبحث عن الطعام، أخذت طريقاً مختصراً لأن الميليشيات الريفية كان تضيق حصارها حولها. لا يزال هناك عشب في ذلك المكان ودافعوا عنه بالدم والنار، خاصة أنهم بحاجة إلى الحيوانات أكثر من أي وقت مضى. يوماً بعد يوم، كانت الميليشيات الريفية تسلبهم بعضها، حتى إن الميليشيات كانت تهاجمهم في الشوارع، ووفقاً لما قالته فرق الاستطلاع فإن رحلة العودة تنضوي على مصاعب لا نهاية لها. ولهذا فإن أي احتمال لرحلة سيراً على الأقدام كان مزعجاً.

السماء المضطربة قليلاً مثل جوف لؤلؤة، كانت تخفت ضوء الفجر. كانت الظروف تدعو للإحجام. كانت القمم تظهر شيئاً فشيئاً، ويدخل النهار في حالة سبات وردي. بدت الأغصان المبللة بالندى كأنما تبكي دموعاً بلورية كمالك الحزين. والأرض

المجاورة تفوح برائحة الرطوبة.

لجأ الباحثون عن العشب إلى سفح الجبل، واحتموا بصخرة كبيرة تبرز فوق المدينة مثل الركبة الهائلة. كانت تستند إلى التل ذاته من جهة اليسار. وتميل يميناً نحو الوادي، وكان المرج حيث ترعى الحيوانات ممتداً بين الوادي والقمة. كان بعض الجنود يتمشون في أزواج بالأيدي على الأكتاف، وترتطم السيوف بأحذيتهم. كان آخرون يراقبون من فوق البغال. كانت البغال ترعى بينما تتحرك ببطء وتتفرق شيئاً فشيئاً. سكون وصمت.

كانت فرقتان تترصدان خلف شجيرات كثيفة. أحجمتا عن الهجوم طوال عدة أيام حتى لا تفزعا الفريسة، ومنذ الليلة السابقة كانتا تنتظران دون أي حركة. بالإضافة للهجوم الذي سيتم، سيقوم آخرون بمحاصرة المدينة لمنع وصول الدعم.

وحينئذ لن يمكن للإسبان أن يفعلوا أي شيء. سيظلون محاصرين في الساحة، من هناك، ومن الأماكن القريبة، ستخرج مفارزهم عديمة النفع، وسيقضي عليهم العجز. كانوا يشعرون بالنهاية بوضوح. تراجع الإسبان. وكانوا يدفعونهم بأطراف السيوف، وكانوا هم أيضاً محطمين بعد خمس سنوات من القتال.

كانوا يرونهم من مكانهم. سفح هذا الجبل، الذي كان يحميهم ظاهرياً، كان في الحقيقة فخاً كبيراً حيث سيدفعونهم.

كان واضحاً من ملابس هؤلاء الثوار أنهم فرقة من الصفوة.

كانوا يمتلكون بوقاً وسيوفاً وبنادق قصيرة نظامية. كانوا يرتدون البونشو بلون أسود أو أحمر متقد، والقمصان والقبعات زرقاء، وكان بعضهم يرتدي سترات جلدية. كانت لجامات خيولهم مزينة بصوف قرمزي. كانوا جميعاً يرتدون أحذية، على الرغم من أن العديد منهم قد غطوا أحذيتهم المصنوعة من الجلد الخام.

كانوا "تنانين الجحيم". كانوا على دراية بالمفاهيم التكتيكية. كانوا يحاربون على صوت البوق. كان المؤهلون منهم يقودون ميليشيات ريفية بعيدة. كان بينهم العديد من الجنود النظاميين، ويرتدون مزق السترة الزرقاء والبيضاء من مدينة توكومان. مرت عليهم ست سنوات من النضال من أجل الوطن، وكانوا قادمين من أماكن مختلفة.

كان هناك قرطبي، والذي اشتبك في معارك عديدة بالخناجر بسبب لكتته، وآخر من سانتياجو والذي كان يدعي أنه ساحر، وعجوز خبير بالبحر من بوينوس أيرس...

كان الوطن مديناً لهم بخمس سنوات من تلك الست، لكنهم لم يكونوا يهابون الموت بسبب هذا. نعم، كانوا يفتقدون للمرأة، لكن تلك الحرب لم تكن تسمح بأي متعة. عذاب حزاني بسبب الحرب، ولم تجلب لهم المعارك لحظة متعة واحدة كغنيمة.

وفي النهاية، في المعارك الأخيرة، حصل بعضهم على رفيقة. والمسكينات! يا لتحملهن للمخاطر والضنك. أثناء المسيرات

التي تستمر لعشرة أو اثني عشر فرسخًا، وتحت الشمس التي كانت تسوي حقويهم وتكوي ظهورهم مثل لوح ساخن، لم يكن الجندي يحمل سوى بندقيته وأغراضه؛ لكنهن يتحملن دون شكوى حملتهن من الأواني، والطفل الجالس على أفخاذهن أو يلتهم حلمة الثدي. عندما كانوا يخيمون، كن يضطلعن بإعداد الماتيه وشي اللحم المنغرس في الحراب، بينما يصرخ الأطفال بالقرب منهن... كان بعضهن يجهض بسبب الإرهاق، لكن في اليوم التالي، يمتطين أي حصان عجوز ضعيف، ويأخذن في الحركة. في الليالي الباردة، عندما يتم طردهن من المعسكر، كن يتجمعن مع صغارهن وكلابهن بجوار جمر خيامهن.

لم يكن يغتسلن كثيرًا، لكنهن كن شهيات. بدأ بعضهن مع الضباط، كن مرهفات للغاية؛ لأن عددًا كبيرًا منهن هرب من الأديرة، فيما بعد أخذن يقبلن بالعريفيين، وهبطن درجات حتى قبول الجنود، واعتدن على القتال، وعلى القذارة... لكن في أيام القتال، لا يتوقفن عن حمل أباريقهن إلى النار، بينما يحبو الصغار بين عربات المدافع. وتلك الفتاة المجنونة، التي فقدت عشيقها في إحدى المعارك، وكانت تنتقل بين المعسكرات، وتقاتل مثل لبؤة في أيام المعارك، فقط للاستمتاع بتلطيف جسدها بالدم ثم الذهاب لتهنئة القادة بهجة هذا الغنج الوحشي!

لكن لم يكن هناك أي شيء من هذا في الفرق. وحشة في كل مكان. الناس في عجالة دائمًا، ظهر الحصان كخيمة،

والموت يلاحقهم. ولكن في نهاية الأمر كانت متعتهم مفيدة، حيث يسقطون هنا، وينهضون هناك. أشجار طقسوس ذهبية في مدينة بوتوسي وفقر في مدينة ماتشا. تتابع الابتهاجات واللعنات. سقط بعضهم في الطريق. كان آخرون منغمسين في معارك إقليم "تشاكو"، بين القبائل البدائية والإسبان، حيث كانوا يستخدمون النبال لعدم وجود البنادق، ويستعيضون بجذوع الأشجار عن القبائل في المدافع. بل إنهم ربخوا بعض المعارك، لكنه هزائمهم كانت قاسية.

تم إعدام أكثر من ثمانين قائداً، مثل الكلاب. لم تكن هناك ناصية تخلو من رأس معلق لأحد الوطنيين. وشابت لحي بعضهم...

انقشعت الغيوم وساد الفجر بألوان زاهية. أصبح الجو الدافئ ثقيلًا. كان الرجل من سانتياجو يبوح لمجموعة بأفكاره.

- ستكون هذه هي المرة الأخيرة! تترز ذبابة في أذنه منذ ثلاثة أيام. ذبابة الموت. لكنه لم يكن سيتقاعس من أجل هذا فقط. لكنه سيترك لهم هدية وداع.

كان مشهوراً بأنه خبير في الحيوانات، وكان متعدد المواهب بالفعل في جميع أنواع الطب البيطري الريفي. في حالة مرض كف القدم الخشبية، يجب فتح شق في الأنف لينزف. وللتبول غير الإرادي، يجب الركض بالحصان وبعد ذلك سيصبح كفارسه. عدم وضع السرج في يوم غائم على حصان غير مروض تمامًا؛

لأن اللعاب سيتساقط من فمه. والعديد من المراهم ومنقوعات الأعشاب لأغراض مختلفة.

كان كل شخص على شيء من الدراية بهذا. حضوره كان يمنح الشعور بالجدية. كان يريد تعليمهم علاج توطن الديدان بكلمات.

اقترب الرجال بفضول، وقد أدركوا أن شهرة الرجل تأتي من هذا... سألوه مرات عديدة عن السر، ولم يخرجوه منه بأي شيء؛ لأن مجرد البوح بالطريقة يعني فقدانه لهذه الهبة تمامًا.

حسنًا، بعد التقصي عن مرض الحيوان وجنسه وجلده، سيقف المعالج بجانبه، بغض النظر عن المسافة، وإذا كان، على سبيل المثال، حصانًا أصهب داكنًا؛ سيقول:

"أيها الحصان الأصهب، توجد تسع ديدان في جسدك - يجب البدء بتسع دائمًا- توجد تسع ديدان؛ سأخرج دودة، فتبقى ثماني ديدان. أيها الحصان الأصهب، توجد ثماني ديدان في جسدك... والتكرار هكذا حتى لا تبقى أي دودة".

شكروه كثيرًا، وسألوه عن رسائله للعائلة، بل ووعدوه بحمل الردود. لم يفكر أي منهم في السؤال عن نبوءاته لتبديد مخاوفهم أو لدحضها. كان هذا طبيعيًا للغاية. كانوا قد اعتبروه ميتًا، وسيحين دور كل منهم إن عاجلاً أو آجلاً في يوم ما. عندما يشعرون بدغدغة الموت، كانوا يلقون بأنفسهم في النار دون

خوف، وكان هناك الكثير من الورثة لبنادقهم وسيوفهم.

في تلك اللحظة، وصل شاب قوي، وكان يبدو في الثلاثين من عمره. كان الرقيب. كان طويل القامة، جاداً، لغده ممتلئ، عيناه تشعان بالحياة، وجهه أمرد، ناعم، مثل العجين المتخمّر. كانوا يحبونه كثيراً. كان ماهراً في الغناء، وممتلئ بالحيوية.

-يجب أن يستعدوا؛ لأن اللحظة قد حانت. سيهجمون معه من اليمين ومن اليسار. طلقة واحدة فقط. وبعد ذلك بالخناجر والسيوف، تحت الدخان. قبل كل شيء، لا يجب أن يبتهجوا قبل الأوان إذا صدوا الإسبان. لا يجب أن يفعلوا أكثر من هذا. هو ذاته سيكون على رأس الهجوم.

لم يكن هناك من يفوقه في الجسارة والمهارة. لا يتوقف عن النخر بالمهاميز حتى يؤلم الحصان، ضرباته رهيبه، يثير الإعجاب في حملاته. شارك في معركة عام 1812 كأحد حاملي الطبول، وأصبح جندياً في معركة مدينة "سيبي سيبي"... بالإضافة إلى هذا، كان مروصاً وماهراً في استخدام اليدين، كما كان غشاشاً لا يرمش له جفن أثناء اللعب بالورق...

ذات مرة هجم عليه خمسة من تنانين الجحيم؛ وانكسر خنجره ولم يكن يحمل بونشو. قدر الأمر بسرعة، ثم جلس في هدوء، ووضع ساقاً فوق الأخرى. لم يكونوا سيضربونه بعدما أصبح أعزل، فقد كان يعرفهم جيداً. ولم يخيب الآخرون ظنه، وتراجعوا

بينما يطلقون اللعنات.

كان يمتلك خنجرًا، مكتوبًا على نصله هذا المقطع:

من يتعرض لمالكي،

لينتظر انتقامي.

كان يمتلك لجامًا من الجلد الإسباني. منذ كان صغيرًا كان يجول في القمم، وهكذا ولد لديه حب الحياة في الجبال، والتحق بأول جيش وطني.

اشتهر بنظرة حسد للصابون، فما إن ينظر إليه فقط، حتى يفسد المزيج في الإناء. وكانت هذه مشكلة كبيرة للنساء، وإن لم يسعفهن الوقت لتغطية الصابون، يطلبن منه ألا يدخل لكيلا يفسده. كان يعدهم بألا يفعل ما يؤدي، ويمر كأنه شارد لكيلا يترك لهن هديته الضارة. كان ينظر فجأة مع أول سهو، وينتهي الأمر. تتسارع الطقطقة في قاع الإناء، وتنطلق ضحكته الخبيثة وسط وابل من اللعنات. كان مشهورًا بأنه زهرة تنانين الجحيم.

كان الرجال يتلقون تعليماته بأيديهم اليسرى على مقدمات السروج. إن لم يتراجع الإسبان، يجب أن ينزلوا عن الخيول ويتقدموا في أزواج، حيث يكون ظهر كل منهما للآخر؛ بينما تقوم المجموعة الأخرى بإفزاز البغال. وستقترب البغال في هدوء؛

ووسط هذا السكون، سيقترب حراسها أيضاً دون أن ينتبهوا لهذا.

أوصى الرقيب كثيراً باستخدام نداءات البوق بذكاء وخداع. نداء وضع السروج يعني الهجوم، ونداء تعمير البنادق يعني التفرق. وهكذا قاموا بتعديل نداءاتهم بشكل مريح، وقام بالتحقق من هذا بمنتهى الحرص، حتى إنه كان يغني كلمات كل نداء بصوت خفيض:

من تحب أكثر،

من تحب أكثر،

فاوستينو الأسود

أو توماس الأشقر...

وتتذكرون نداءات التجمع والتراجع، أليس كذلك؟

دون خوان دي آرانا،

لديه أخت...

يا له من تأخير! في أثناء ذلك أصبحت الشمس حامية، ولم يحدث أي شيء بعد. ظهرت بقع كبيرة بيضاء مخضرة وفيروزية على الجبال، وتمددت الخضرة المحيطة كبساط داكن. كان شعاع

شمس يكتسح الألوان من حين لآخر، ليمحوها في طفو أثيري. كان الأفق  
مرصعًا ببقع زرقاء كبيرة، وترتعث الحدبات الحجرية وسط الطبيعة المليئة  
بالأراضي الواطئة. حينئذ تعود الغيوم، تصارع لبرهة، لكن الأراضي الخلاء  
تتمدد، وفي النهاية ينتصر اللون السماوي.

شعر رجال الميليشيات الريفية بالغضب من الانتظار. شدوا الأربطة عشر  
مرات، وفحصوا السروج ومسحوا المقابض والزناد. وضع البعض القبعات على  
الصخور، وشمر آخرون عن سواعدهم. كان الرقيب مستلقيًا، وعيناه تلتهمان  
جزءًا ناصعًا من السماء.

ظهر رجل قادمًا على قدميه فجأة بين الأغصان وتبادل معه بضع كلمات.  
الآن ستصبح الحركة أسرع مع مرور كل دقيقة. أصبح نبض القلوب سريعًا  
كركض الخيول، وشعر أحدهم بمذاق الدم الذي سيسيل، فزأر:

- أشم رائحة النصال!

رفعت بغلتان آذانها... استدارتا لبرهة... صدر دوي طلقة...

هيا.

أطلقوا النار من أسلحتهم، نخزوا البغال بالمهاميز، وعندما أصبحوا محاطين  
بالدخان صرخوا بينما يصفقون براحتهم على أفواههم، وخرجوا للسهل.

كان الجنود الإسبان متفرقين، وقف كل منهم حيثما استطاع، بينما كانت أبواق نداءاتهم تصدر. اتحد السربان الوطنيان في نصف دائرة أثناء حركتهما؛ وتقدمت تلك الموجة، مثل لهيب صادر من البونشو الحمراء، وتطفو بجانب الخيول. لاحقوهم، أصبحوا على مبعدة مئة خطوة، خمسين خطوة. -عاش الوطن!- وفي ومضة عين، خرج ثمانون سيفاً من أغمادها.

اندلع إطلاق النار وسط الفوضى. كانوا يتجمعون ثلاث ورباع في الاشتباكات. كانت السيوف تقطع بينما تشق الهواء كأنها تحلق. صرخ أفراد السرب الثاني، وفي الوقت نفسه قلدوا نعيق طيور مشؤومة. استبدلوا السيوف بالمُدَى وانطلقت بضع أنشوبات ذات الكريات المعقودة بها لصيد الحيوانات.

وتزامنت قعقعة الهجوم في الميدان. أدت الميليشيات الريفية مهمتها هناك، حيث كانت تصد قوات الدعم.

احتدم القتال في الساحة الصغيرة. ابتعد اثنان لبرهة في صراع فردي وجهًا لوجه. كان الإسباني مزينًا بالرتب. وكان الثوري يحمل خوذة مصنوعة من جمجمة حمار بأذنيه منتصبتين.

اشتبك السيفان لبعض الوقت، وتبادل الفرسان المناورة، وأخطأ رجل الميليشيات الريفية مرتين أو ثلاثاً في نزع سلاح عدوه.

وارتطم البغلان في إحدى الهجمات. تصارع الإسباني والوطني في الهواء. هجم الأول، وتراجع الثاني لتفاديه بينما يرفع حصانه

قائمتيه الأماميتين، ثم هجم وقطع رأس الإسباني.

كان القائد الإسباني يقف بعيدًا عنهما، ويشير بيديه. كان الرقيب قد هجم عليه أكثر من مرة دون جدوى. وحينئذ، وسط حركة الجنود المستمرة، والضجيج وضربات السيوف والقفزات والهجمات بالسيوف والبلطات التي كانت ترتفع مع وقوف الخيول على قوائمها الخلفية، أطلق الثوري أنشطته ليحاول مرة أخرى.

عبرت الأنشطة المطعمة بالكريات فوق الرؤوس في حركة ثعبانية، وأمسكت بالإسباني، الذي سقط متألمًا بينما يتدحرج مثل لفة من النسيج. أعلنت صيحة عن الواقعة التي كانت تعني انتصار الميليشيات الريفية. لم يستسلم أي من الإسبان الذين كانوا يرافقون البغال في بحثها عن الطعام. وفي أثناء ذلك كان بعض المتنصرين يستولون على البغال، وآخرون يجمعون السيوف، كانت البنادق لا تتوقف عن إطلاق النار في المطاردة لكيلا يختفي الإسبان في الأراضي العشبية. بعد ذلك ستفصل الغابة بينهم. تلاشت النداءات والهتافات مع ازدياد المسافة.

لم يتبق في ساحة المعركة الصغيرة سوى الأجساد العارية، ذات اللحي المسودة بفعل بارود الخراطيش التي كانوا يفضونها بأسنانهم. كانت لحية أحدهم تطفو فوق صدره، وبدا ذلك الرجل على قيد الحياة وسط سكون الموت.

انتهى يوم الوطنيين بغنيمة كبيرة. كانت ضلوع بعضهم ظاهرة بسبب الجراح، ورؤوس بعضهم محاطة بالضمادات، لكنهم جميعًا كانوا يتبادلون التهئات. بل كان هناك خصر تتدلى منه الأحشاء.

كان القرطبي يحمل في جيبه إحدى أذنيه لكي يدفنها في المقبرة: كانت لحمًا بشريًا في نهاية الأمر. الرقيب فقط لم يعد. تذكروا أنه انطلق في الركض خلف الإسباني الذي أوقعه، لكنهم لم يروا أي شيء وسط الفوضى، وفكروا في النهاية أنه سبقهم في الطريق وسينتظرهم هناك.

شي مؤسف... فتى قدير! وقال القائد إنه يستحق السمعة التي حصل عليها.

وينتهي أمره عندما جعلته بطولته جديرًا بالالتحاق بتنانين الجحيم... في نهاية الأمر، إن لم يصل حتى الليل، سيبحثون عنه منذ طلوع الشمس.

أطفأت تلك الواقعة بهجتهم؛ لكنهم ارتجلوا الحوارات عندما تحلقوا حول النار.

وساهم لعب الورق في هذا أيضًا، لكن الأوراق كانت قذرة للغاية لدرجة أنهم ألقوا رماذًا بينها لكي يمكنهم خلطها. راهنوا على ملابس الموتى، ولم يتقاعس الجرحى، فقد شارك معظمهم في المراهنات.

أحدهم، بوجه مشقوق، فقد كل ماله تقريباً في أول مرة، وبعد ذلك سعى لتعويض خسارته في مقامرة عقيمة بعدما قاىض ممتلكاته مقابل بيزيتا واحدة. لكنه لم يترك مكانه، فذكروه بالقواعد: من يخسر، يخرج من اللعب. كان ذلك هو من قطع عنق أحد الضباط الإسبان أثناء المعركة.

كانت هناك مجموعة أخرى، حيث كان اثنان من العازفين يتبارزان بالنغمات، وكانت الأوتار تلمع كالشرائط البراقة فوق جلدیهما، حيث كانت صدور المجموعة عارية حول النار. وطنيون غارقون في الرذيلة! كانوا يراهنون على العزف بملايس الموتى.

وانطلقت التعليقات بشأن هذا. الإسبان مقاتلون أشداء! أصبحت الساحة كأنها محروثة، وقد تطايرت جذور الأعشاب في الهواء. ويا لهم من أعداء! أثنا على أحدهم، كان بطنه مشقوقاً، واستمر واقفاً على قدميه، ثم استند إلى اثنين من فرقة تنانين الجحيم، وكان يدوس على أحشائه، حتى فتح ذراعيه فجأة وسقطت ميتاً دون آهة واحدة.

كانوا على هذه الحال، حتى نهض كلب نائم فجأة وأخذ في التشمم.

- قوات!...

وضع أربعة رجال آذانهم على الأرض لقطع الشك باليقين. حسب إيقاع سيره، كان حيواناً واحداً، ويحمل راكباً. بالكاد كانوا

يرونه، لكن أحدهم قال متردداً:

- الحصان الأسمر!...

حصان الرقيب!

أصبح صوته مسموعاً بوضوح. سهيل، هتاف صاحب، وبعد قليل، دخل الفارس في دائرة النور. وفشل الفضول في التغلب على الهتافات خلال بعض الوقت. صمتوا في النهاية وبدأ الرجل في حكي مغامرته.

كان قد عبر الساحة الصغيرة بينما يجرجر ذلك الجسد، الذي عندما كان يتعثر بالأشجار، يملأ أنشطوته بارتعاشات هائلة. انقطعت الأنشطة بسبب الثقل، وضربه على رأسه ليسقطه...

استعاد قوته مع حلول المساء، واستطاع الوصول للحصان والجنّة بمشقة كبيرة. لم تعد الجنّة سوى كومة من العظام، وكانت إحدى الساقين ما زالت عالقة بالركاب. وقرر قطع رأسه كتذكّار.

حينئذ رأوها. معلقة من الشعر في المطية وتتمايل.

كانت كثيفة اللحية، مزقتها الأعشاب الخشنة، بشعر غزير يتكتل فيه الدم. كانت إحدى عينيه فارغة وتنساب على وجنته كدودة.

كان العنق المذبوح قد أصبح كتلة متخثرة من الدم، التي يظهر منها حلقتان من القصبّة الهوائية. ويا له من عنق غليظ! لا يمكن

أن توجد مهارة أفضل من هذه لقطع أعناق الإسبان.

مر الرأس الإسباني من يد ليد. لحظوا برودة أذنيه اللتين بدوتا من الخزف،  
وأنفه المتشقق بسبب الموت.

كان سكون جفنيه يثير الانفعال. وكم كان ثقيلاً!...

كانت انعكاسات النار تصبغه بألوان مرتعشة؛ وكانت شفنا كل منهم  
تمتعضان مع لمس الرأس.

قال أحدهم:

- إن أمكنه أن يصرخ الآن!

وسرت القشعريرة في ظهورهم. وفتح آخر فمه بالإبهام ليرى أسنانه. كانت  
برودة الرأس وثقله هما أكثر ما يثير انقباضهم. بشعور خرافي، كان القفا  
الثلجي يثير رعبهم عبر الشعر.

وفي أثناء ذلك كان الفتى يحكي لهم. عندما انتشرت المجموعات المتحاربة  
وبدت الملامح أكثر وضوحاً، تعرف على القائد الإسباني كأحد من أدوا القسم  
من أجل الوطن في محافظة "سالتا" في عام 1812. هكذا اضطهد الحقراء  
الوطن. لا يستحقون الشفقة. وكان هذا هو سبب اهتمامهم بالرأس الذي  
سيرفعونه على حربة، أمام المدينة، باللافتة المناسبة.

لم يعد أي منهم يلمسه. حانث بالقسم! وعلى الرغم من توقف  
الحوار، ازداد عدد المجموعة برجال جدد. أتوا بعد معرفة الخبر.

تفحصوا الغنيمة بحنق شديد. أجهضت بضع نكات وسط الهمهمة.

في أثناء ذلك، كان أحد رجال الميليشيات الريفية قد اتخذ موقعاً في  
النور وأخذ يكتب على قطعة جلد من واقيات السيقان. استخدم مزيجاً من  
الشحوم والفحم ليكتب بحروف ثخينة. كان إصبعه يتحرك ببطء كبير، وشيئاً  
فشيئاً، تشكلت الحروف في كلمات

حانث.....بالقسم!

## العين بالعين

كان موقف الكاهن المحلي سيئاً مع الوطنيين. كان يتأمر عليهم، ويساعده في هذا ابن أخيه خريج الدير. وبالمناسبة، لم يكن هناك الكثير من القسس المتمردين. إذا تجرأ بعضهم، فإن الأساقفة تحرمهم كنسياً، وحينئذ يتمردون مع الثوار الوطنيين من عامة الناس، دون أن يتوقف أتباع الملك عن ملاحقتهم. كانوا يقترضون الزاد والذخيرة من المحلات. كانوا يحاربون بينما يهتفون بشعاراتهم أو يصلون من أجل المحرضين. إن أمسكوا بأسرى، يقتلونهم بعد إهانتهم. لكن عدد الأسرى لم يكن يتجاوز الدسته. القسس الآخرون، مثل ذلك، كانوا يدعون لطاعة الإسبان، ويعدون المخالفين بالجحيم. لم يكونوا يقترون في لعناتهم ضد المهراطيين، لكنهم لم يكونوا يذكرون الوطن بالسوء مطلقاً. هكذا كان قس تلك المنطقة، وابن أخيه خريج الدير.

هذا الأخير كان بعيداً عن كل شك بتدينه الاحتفالي، وعينيه الخجولتين، وسعة صدره وتواضعه البادي. كل هذا كان كزي تنكري لذئب. كان الورع يتساقط من أنفه كمخاط الديك الرومي. كانت عفته تخفي وقاحة راسخة. كانت روحه كأعزب

تملاً رأسه الخالي من الشعر. وأينما رأوه، كان يتفوق في الكلام باللاتينية على أي شخص في أي مكان. وعند تخرجه من الدير القرطبي الشهير، لم يفشل في أي نقطة في امتحاناته، حتى في الاستنتاجات الاثني عشر، حيث تفوق في اختبارات الروح، وفي الروحانية. وكان بارعاً في العظات وكلمات المديح ذات الصغبة الدينية. وكان ماهراً في قص أطراف الريش لاستخدامه في الكتابة، ويصنع الحبر من كبريتات الحديد.

وكلما مر جيش الإسبان بالقرية، واضطر للبقاء فيها بسبب الاضطرابات الثورية، كان يحظى بتقدير كلا الجانبين، ويحترمه الحراس لانتقاله للقيام بالتعميد وتلقي الاعترافات. لكن سرعان من ظهرت العدوانية.

تراجعت القوات إلى محافظة "سالتا" بعدما ازدادت حدة الحصار. عانوا من الجوع، ولم يتوفروا على ماشية، فتفرقوا بحثاً عنها. ودون العثور على أدنى أثر في عزلة كل منهم، كانوا يعودون بينما تطاردهم الميليشيات الريفية بطلقات الرصاص والحرائق.

وفي إحدى هذه المرات، فرغ ابن الأخ بسبب مزحة فظيعة. كان يتجه مسرعاً إلى الكنيسة فوق حصان ذكر. كان الليل يخيم بسرعة على التلال المحيطة. كان الطريق يضيق ويحمل إلى ما يشبه ممرًا محاصرًا بالأشجار. كان يعبر ذلك المكان الضيق عندما انزلق الحصان كالماء من بين ساقيه؛ وما إن تجاوز مفاجأة العثرة، ظهرت أمامه صورة قاتمة. رأى جسدين بشريين

معلقين على فروع كلا الجذعين. الجثتان الملتويتان والرائحة الكريهة التي تنبعث منهما كانتا تكشفان أن الميليشيات الريفية أتت بمزحة مقززة وعلقتهما كدميتين. كان هناك زر لامع ويد جافة في العتمة. كان الرجل جباناً ويخاف من الأشباح؛ واضطر لأخذ طريق مختصر، لكنه ضل طريقه وسار في أكثر الطرق وعورة، ووصل في وقت متأخر من الليل إلى الكنيسة، وقد جرحته الأعشاب، ويعرج بإحدى قدميه.

توطد كرهه للميليشيات الريفية بسبب خوفه، وتحول إلى رعب. تضاعفت حيله من إجمل الإضرار بهم؛ ومع كل نجاح، كان يشعر بنشوة جسدية تقريباً، هياج مثل عض الأطفال عندما يسنون، كان يجمع بين الحقارة المتأصلة في روحه وأفكاره عن الإبادة الجماعية. كان سوطاً لهؤلاء المتمردين على القمع، لكي يهينهم. مبضع نهم لكي شيء، يقتلع الأرواح والأجساد. النساء والأطفال في الحظائر، دون طعام أو ماء. يتامى تائهون في الغابة، تفرغهم صرخات الوحوش. نساء تلاحقهن الكلاب. وآخريات، المهترقات، بصخور ساخنة في الأفواه. وطفل صغير صامت، لا يصرخ، وفمه مليء بالديدان بجوار أمه المقيدة. أما الثوار، فقد تعرضوا لخلع أطرافهم من تجاوزيف عظامها بواسطة المقطرة وشد الخيول، ودبغت جلدوهم بضربات السياط، أو كانت أجسادهم تتمايل من المشنقة. آه، تقطير تلك الأرواح، تقشير القلب طبقة طبقة مثل البصل، بمتعة التعذيب الوحشي! قطع المحاصيل والأشجار والحقول، ليخيم شبح جلالة الملك فوق الأنقاض، فوق المنطقة

التي دمرتها القسوة بالتزامن مع اللعنات.

ووسط تلك التأمّلات تبرز عظمة جحيمية. كان السيد لا يزال راغبًا في المزيد من الدمار بأدوات تعذيبه. كان يعيش في وهم القوة التي تثير خياله. ووقفت هذه الفكرة المنفردة على جبهته مثل شعار نبالة. كان ذلك الرجل المتدين المنافق الكئيب بلا حب ينير حياته، كان القدر قاسيًا عليه. كان مميّزًا بقبحه، ويحلم بمثل هذه السلطة الهائلة التي تقضي على الجميع، لتحيل كل الناس، وهو أيضًا، إلى تراب.

عاش الملك! حسنًا. كان عاليًا، عاليًا لدرجة أن قدميه تبدوان كقمة عالية، لكن في الأسفل، كان العار يلف الآخرين. لا يمكن أن يمتلك أي شخص أي شيء بخلاف النير.

بدا أن التقلبات السياسية في الجنوب تعمل على تسهيل خططه. يتحدثون عن ملك لأمريكا، ربما من عرق الإنكا من السكان الأصليين... لمح بريقًا من الأمل لدى الميليشيات الريفية من المنطقة عندما تحدث معهم عن هذه الفكرة. ملك من الإنكا يعني الخلاص. هكذا سيستمعون بحريتهم ونظامهم وحكومة من دمهم. أبدى البعض تأييدهم، وهكذا بدأت الخدعة في الازدهار. لكن نسي الشيء الرئيس، القائد الذي كان غائبًا حينها. بعد رشوة الأخير، ستشتعل النار، وستنتشر الردة بين الميليشيات الريفية والجمعية التأسيسية، التي تنهار بالفعل...

وفي النهاية، بعد عودة القائد، جس رجل الدين نبضه تلميحًا ليس بصراحة؛ لكن الآخر سارع بالرفض الحازم مع أول تلميح.

- ملوك؟... بلاط؟... كلام بلا أدنى معنى بالنسبة له. ملك هندي؟... مثل حمار يحمل بردعة من الفضة! ليتوقف عن التدخل في هذه الأمور، ولينشغل بنصومه اللاتينية. وسيتناقش في أمر هذا من يجب عليهم تناول الأمر.

كان القائد قد تزوج من فتاة شابة من أهل المنطقة، ويعيش معها في مكان قريب. ثنائي جميل: هو، أسمر، شارب نافر، شعر كثيف منسدل على كتفيه. وهي، طويلة للغاية على الرغم من أنها في الثامنة عشرة من عمرها، بيضاء بالكامل تقريبًا، عيناها مليئتان بدكنة مخدرة، وشعرها أسود ناعم، منتشر على جبهتها مثل جناحي طائر سنونو مرهق. كانوا ينسبونها لأصل نبيل بسبب جمالها الفائق. ينسبها البعض لمفتش من الخزانة الملكية، وينسبها آخرون لرجل كان يعيش حياة متحررة، سجين لمحاكم التفتيش، والذي كان يتمتع بحب كبير في القرية....

تغير جسدها منذ فترة بسبب الأمومة، حيث أصبحت شفاتها أكثر امتلاءً، وأصبح لون بشرتها أكثر حدة، مثل لب الفاكهة، ليجمع بين الخضوع الحيواني والروعة الملائكية. منذ أصبح الجنين في أحشائها، كشف وجهها عن اضطراب السر الكامن داخلها، وبدت أكثر أنوثة وأكثر جمالًا باتصالها مع الذكر، وأصبح ثدياها كعنقودي عنب ثقيلين مؤلمين، مليئين بالرحيق.

كانت الفتاة والقائد يستمتعان بزواجهما كما الطيور، دون شاغل آخر سوى تبادل القبل، واستغل رجل الدين هذا الظرف. فعل ما لم يفعل من قبل، حيث ذهب لزيارته ذات صباح، وألح مرة تلو الأخرى؛ محذراً بالحسنى ومتوعداً باللعنات...

وسرعان ما شعر الجاوتشو بالضيق. كان يمل من كل هذا اللغو الديني. وذات يوم، اقترب منه مرة أخرى، فأبعده بجمليتين. حينئذ كف رجل الدين عن الإلحاح. وبعد وقت قليل خرج الشاب في حملة.

ما إن خرج، حتى احتلت قوة إسبانية المكان. أقام القائد في البيت الملحق بالكنيسة واستدعى النساء لأخذ أقوالهن. وكالعادة: لا يعرفن أي شيء. كن يجبن بحدة، بجرأة تثير دهشة الإسبان. مثلت زوجة القائد أيضاً. مثلهن، لا تعرف أي شيء. تتذكر فقط أن خريج الدير شارك ذات مرة في الكلام عن ملك من الإنكا...

بدا الاضطراب على وجه الضابط. وزوجك؟ ماذا كان رأيه في هذا الأمر؟

- إشششش...! زوجها ضحك على هذه الحماقة. لم يكن لينخدع بهذه الأمور؛ كان القائد جويمس، ابن البلد، الذي يحظى باحترامهم، أبو الفقراء، كافيًا لحكمهم. أي ملوك وأي ترهات! تفاهات يأتي بها المتعلمون من العاصمة بوينوس آيرس. هذا هو رأي زوجها.

أطلقت هذه الكلمات دون مداراة، مثل شخص يفتق خراجًا. ألقوا القبض عليها بسبب هذا، وحبسوها في البيت الملحق بالكنيسة تحت مراقبة حارس بعدما عاد الإسبان إلى قواتهم. مرضت الفتاة التي كانت حبلى بسبب هذه المحنة.

ظل البيت الملحق بالكنيسة محاصرًا طوال اثني عشر يومًا، ولم يسمح بزيارة المقيمين به. في الليلة السابقة ذهب خريج الدير للبحث عن قابلة المنطقة، واصطحبها معه، ولم يجرؤ أي من أهل المنطقة المرعوبين على السؤال عن السبب.

هكذا بدأت الليلة السابقة، المغطاة بالسحب. كان باب البيت الملحق بالكنيسة يسرب شعاع ضوء القنديل، والذي يقطعه ظل الحارس أثناء سيره. كانت الغابة مثل مرجل متجدد الهواء، وتنتثر روائحها البلسمية، المختنقة أحيانًا برائحة القش. كان الخوف رازحًا في البيوت. وبينما كان معسكر الميليشيات الريفية يرتاح، رأى القائد في الكابوس أنه موجود في مكانين، وكان نبض قلبه يدق في عنقه، ورأى غرفة نوم البيت الملحق بالكنيسة بوضوح.

كان العم وابن أخيه ناعسين على مقعديهما، وكانت هناك امرأة ممتددة على أحد الفرش، وكانت ملامحها تهتز بفعل تأرجح الشمعة الموجودة في أحد الأركان على الأرض. ولمح بندقية بجوار الفراش الآخر، وصليب على الجدار الأخير. كان القس يرتدي قلنسوته، وخريج الدير يرتدي قبعته. كانت المرأة ميتة بالتأكيد... امرأة ميتة؟... هناك... هذا الأمر لا يبشر بالخير...

امرأة ميتة!

وفجأة، كأن هناك رعد يدق داخل رأسه، رأى كل شيء بوضوح. ميتة!

هناك! ميتة!

استنشق الهواء بحدة، واستيقظ بوجهه متجهًا إلى السحب، وشعر بضعف قواه، واختنق حلقه بالحب، كأنه يبكي إلى الداخل. كان نور غرفة النوم تلك ما زال يخنقه. وكان تيقنه مما رأى يقلق مضجعه، على الرغم من لامعقوليته. قاوم هذا اليقين، حاول النوم، ركز قواه. مستحيل. كانت تلك الرؤية تسيطر عليه. وأثارت توتره لدرجة أنه زحف حتى أحد النائمين وهزه.

تحدث معه همسًا. فوضه بالقيادة، وسيجتمع معهم بعد ذلك، حيث سيتتبع أثرهم إن اضطروا لمغادرة المكان.

صدر صوت ارتطام المعادن، ورنين المهاميز وقفزة بين الأشجار. وبعدما أصبح الفارس بعيدًا، في قلب الليل، دفع مطيته للركض.

نهب الفراسخ ركضًا، دون توقف. كان يحفز الحصان بصرخة من حين لآخر.

ظلال، صخور ناتئة، أشجار كثيفة، ونباح، غير واضح في البداية، واقترب، أكثر فأكثر... وصرخة مفاجئة في الظلام:

- قف مكانك!... من هناك؟...

طلقة رصاص... تأوه...

... انفتح باب البيت الملحق بالكنيسة، وسده الجاوتشو بجسده.

كان كل شيء كما رأى في رؤياه، باستثناء البندقية التي لم تكن موجودة وساكني البيت اللذين استقبلاه راكعين...

كان وجه ابن الأخ يشبه رقعة جلدية مهترئة. ووجه الآخر، ناعم ممتلئ كمؤخرة طفل. كانت العينان والفم والأنف تبرز كشقوق على سطح بطيخة. خلع الجاوتشو قبعته بعد تردد لم يدم كثيراً. وسار ببطء إلى فراش الميتة، وجلس فوق الصندوق الذي يسند رأس الفراش.

فكر الآخرا بسرعة البرق في الهرب، لكن الفكرة تلاشت بذات السرعة؛ لأن الصراع الذي قضى على الحارس وموته بأهة واحدة، كانا يفصحان عن النتيجة. هل يوجد من يراقب في الخارج؟ إن لم يكن الأمر هكذا، لماذا تخلى الرجل عن الحذر. وجلسا مرة أخرى بينما يشعران بالخوف.

كان الجاوتشو يفكر. اتسعت عيناه بالهذيان وغاصتا في الظلام الخارجي. كان الحصان يتعافى في الخارج باستنشاق الهواء بقوة. ووسط هذا الصمت، كانت همهمة الزوج غير المفهومة تخنق أي صوت آخر.

لم يكن الأرملة المكلوم يرمش. كان مرفقاه مستندين إلى

ركبتيه، وظهره متقوس، كان شعره يغطي رأسه، عيناه متأملتان، وشاربه ساقط على ذقنه. كان ضوء القنديل الموجود على الأرض يسقط عليه، ويرسم ظله كالراية على الجدار. كان الظل يرتعش قليلاً، لكنه كان ثابتاً.

ولم تصدر عنه آهة واحدة. كان ألم واحد فقط يعذبه في أعماقه. شيء ما بارد، كأن قمعاً ممتلئاً بالأشواك الحادة يخترق قلبه.

أنذر الصمت بكارثة. ولا بد أن كتل الغيوم الصامته المعتمة مستمرة في الانسياب في السماء. انطوى الجاوتشو على نفسه أكثر وأكثر. كان يمسد شعر الميتة من حين لآخر، ويتلاعب بالخرز المحيط بعنقها، ويغمغم كأنه يهددها:

- مسكينة! مسكينة!

انتصف الليل، وازدادت العتمة... في النهاية، همس القس:

- يا بني!

سكون، وصمت.

-... يا بني! - توسل العجوز مغمغماً في البداية، وبعد ذلك اعتذر بصوت يائس.

لا يجب أن يلومهما على المظلمة. يأسفون على هذا... لا أحد سواهما. لكن المسكينة اضطربت للغاية عندما توعدتها الضابط بمئة جلدة؛ لأنها كانت تتكلم بوقاحة. لم يضربوها بريشة، لم

يحدث هذا مطلقاً. عندما رأوا أن حالتها تسوء بعد اضطرابها، قاموا بتقديسها لكيلا تموت من دون إيمان.

مسد القس شعره بينما يأسف على هذه النهاية، وجلس مكتئباً بجسده الجيلاتيني على المقعد.

غمغم الابن الأخ محاولاً تقديم مبرراً، لكن القس أسكته، وبعد ذلك تكلم بسرعة:

- قديسة! كانت قديسة! أجهضت، هذا صحيح، لكن القابلة هي المسؤولة عن هذا. لم تأتِ الأدوية بفائدة. لحسن الحظ أسفعاها الوقت لتندم، ولا بد أن يسوع المسيح سيغفر لها. قديسة. قديسة. لا بد أنها في الأمجاد الآن وتدعو له...

عدالة الرب! لا يجب أن يلقي عليهم بذنب الجريمة التي اقترفها آخرون. سيهسرون عليها نادمين، وهو ذاته سيعقد لها قداسات مجاناً.

لم يثر فيه هذا العرض أي مشاعر بالقبول أو الرفض، حيث كان غارقاً في أعماق مأساته. ووسط كل هذا كانت فكرة تتقدم وتملأ رأسه تماماً:

ميتة!

كان الآخر يغمغم.

دم، الكثير من الدم. ربما كانت القابلة قد أنزفته كله. ذهبت

غارقة في الدم.

لكن، يا إلهي، ما هي جريمتها؟ ليشهد الرب المصلوب.

كان الليل ينتهي. همس الرجل، كأنه شخص نائم تزعجه حوارات غريبة:

- تششش!

في تلك اللحظة انطلق طائر في الغناء في مكان قريب.

في البداية كان طائر الحمام. ثم صفير طويل، وشيئاً فشيئاً أصبح متقطعاً، ثم أصوات قرقرة، صوت قرقرة الماء في الحوصلة، وصخب هائل يحاكي تعدد الأصوات في الغابة. ثم صفير مرة أخرى، وصوصة حزينة من جديد، ورفرفات تشق الهواء، وفجأة، في تشابك انسيابي، زقزقة واضحة للغاية تجسد كل درجات السلم الموسيقي.

غنى الطائر بأنشودته نحو السماء التي ابيضت لتخفت نجومها. صعدت روحه الغنائية إلى الفجر مثل اللهب الصغير. تهادى في الأعالي، وسط هذيان التأرجح في الفضاء عندما يأخذ الأفق في الظهور فيما وراء الزمن، وراء الحياة...

نطق بالقصائد الرقيقة على سيقان النباتات، الأمومة الشابة بين الشجيرات، الاهتمام بالبيض الذي يحميه الجناح، برقة مشبوبة، كما لو كان قلبه الصغير ينتقل بين النغمات على طرف

منقاره. كأنها صلاة ينشدها العالم للنهار، تطفو فوق الغيوم، ابنة الشمس،  
تراها أولاً، في نشوة موسيقية ذات ارتفاع هائل، في تحية للفضاء.

عبرت عن استيقاظ القمم، وتوتر الأشجار الكثيفة التي يصبغها الشفق،  
وإضاءة الثلوج، والسحر العابر للضباب ذي التبخرات البنفسجية مثل تجسيد  
للتنهيدات، تبتهج بأفراح الخصوبة في ظل نضارة الفجر، لتجتهد في التعبير  
عنها، والتي كانت مرنة ورقيقة للغاية، من الندى الذي يضيء عيون الزجاجة  
الصغيرة على العشب، حتى عطر الجبل الهائل.

وتألق مرة أخرى في عزف الأغنية. وتشكل تدفقه في جدول سائل، بينما  
تتشعب ضفائر رفيعة في الأسفل. كان يضيء العظمة على الأعمال الشاقة:  
الزراعة في درجات حرارة عالية، والركض عبر السهوب العارية حيث تشعر  
الأجساد بالبرد وتنغد القوى؛ نفس الحرب بجروحها التي تلفظ الأرواح مثل  
الجمر المتوج بالبخور...

كان الجاوتشو يسمع، ويشعر بالتأثر. كانت زوجته تمتلك عش طيور  
بالقرب من الكوخ، وكانت أفرانها تكبر هناك...

وهذه الأغنية، الشبيهة بزهور ناعمة عذبة الرائحة، كانت تعزیه في وحدته،  
بينما تختفي روح كنزه في نقاء الفجر.

الفجر يطلع. كان الحصان يرقى أمام الباب. بعيداً، كان تل

يحاصر المكان، ويكتسي باللون الأزرق ببطء، وفوق ذلك اللون الأزرق يطفو دخان بعض النيران. كانت طيور شاشالاكا الشاكو تصدح في الجدول، وتبدو صرخاتها كقرع الأجراس في قداس. أما في الداخل فلم تكن هناك تنهيدة واحدة تعكر السكون.

نهض الرجل مرتعشاً، واتجه إلى القس ثم دفعه دفعة قوية:

- امش!

بمجرد الخروج، أغلق الباب، وترك ابن الأخ بمفرده مع الجثة.

صدر في الفناء صوت كالنحيب، ولعنات، وشيء من الركل والمقاومة... بعد ذلك لا شيء.

انفتح الباب مرة أخرى، وقال الثائر أمراً:

- امش!

لم يرمش خريج الدير. انهار وجهه مثل قطعة من الخشب المسوس. بالكاد كانت أذناه منتصبين. لم يعد به أي شيء بشري، ويشبه دمية بأثة مقطوعة الحبال.

- امش!

على الرغم من أن الرعب كان يجمده، كان يرى أن رعشة تهزه في الداخل.

- امش! - كرر الجاوتشو، الذي أصبح في الداخل، بيد على قفا

البأس. أطاعه مرتشعًا، وبدأ في السير بركبتين ملتويتين...

كان الهاون في وسط الفناء، حيث كان متسخًا بالدم الطازج، وبجواره جسد الآخر مستلقيًا على بطنه. كانت بقعة داكنة آخذة في التمدد حتى فخذيته. كان نور الشمس الأول يملع على شعره الرمادي الممسخ بالشمع. وبعيدًا، بدت جثة الحارس في منطقة منخفضة من الأرض. أمر الجاوتشو:

- استلقِ... هنا، لكي أذبحك.

استلقى ابن الأخ، مدفوعًا بجلاده، ليتمدد بجوار الهاون. غرس خنجره، واستبق صرخة خشنة بقرقرة الدم الذي تدفق في خطوط رفيعة.

عاد القائد لغرفة النوم مرة أخرى. نظر للجدارن، وللمسيح المعلق على الحائط الأخير، ويديه الملوئتين بالدنس والموت. واستمر في السير في الغرفة طوال ساعة، حيث كان يقطعها من طرف لآخر بينما يردد بصوت حزين:

- حسنًا... حسنًا... حسنًا... حسنًا...

أطل الحصان برأسه فجأة، بتلكما العينين المليئتين بالطفولة والبراءة. عندما رآه يمد خطمه بفضول، كأنه يفهم الأمر؛ انفجر الحزن في صدره، وحينئذ فقط، ضم الجسد إلى وجهه وانخرط في إعصار من النحيب.

## جويمس

عندما انطلقت نوبة الرجوع، انشغلت عدسة نظارة مكبرة إسبانية في الساحة برصد التل الموجود أقصى جنوب سان برناردو.

كانت هناك سترة حمراء مثقلة بالذهب بجوار شجرة تين برية، ذات خضرة داكنة، وسط الأشجار التي كانت فروعها منتفضة كريش كثيف، ورؤوس الخيول، والقبعات، وصدور الفرسان المختفية خلف الفروع.

كان نور الفجر الرقيق يكشف كل شيء بوضوح؛ وهكذا كانت الأجساد تظهر بدقة عبر الهواء الشفاف.

كان الجبل ينهض فوق المنحدر الذي يشكل طريقًا صخريًا، وتظهر السترة ملتصقة بعنق حصان مزينة بألاف الحلى الفضية وغطاء أحمر قصير. وفي الأعلى توجد خوذة لامعة، حيث كان يبدو أنها تعلو الجبل وترتسم على السماء.

نطق شخص ما باسم وسط الضباط. استولت الدهشة على الوجوه.

انتقلت النظارة المكبرة من يد ليد.

رأوه في النهاية. بالفعل، كان هو.

أمضى الليلة مع حرسه، مستمتعًا بذلك الحدث الذي سيمثل نهاية للإنجاز الضخم. سيكتمل هذا الإنجاز في "شهر الاحتفال بالأمريكيين" و"شهر الاستقلال"؛ وهذه المصادفة كانت تثير فخره.

أولاً في استحضار الوطن في سهوب أقصى الشمال، ليتوج بالمجد في التاريخ، حيث ولد بفضل القدر الذي استمر في مسانده. سيبدأ الانتصار بروعة مع طلوع النهار: الفجر خلف ظهره وسالتا تحت قدميه.

كانوا قد سعدوا على المنحدر المقابل، دون أن تهز أنفاسهم غصناً، والليل لا يزال ممتلئاً بالنجوم، وخرير الينابيع عالي الصوت، مختلفاً عن بكاء الأعشاب التي تقطر نداها الفائص. بعد ذلك ضفروا الحلقات الحديدية في حزام، وعلقوه في كتفي العملاق. كان غناء تيارات الهواء يفرض الصمت. وبذلوا القليل من الجهد الإضافي حتى وصلوا إلى القمة، ليصلوا إلى الفضاء المظلم، كغرقى فوق صخرة.

والعتمة على الجانبين، أحياناً صافية، وأحياناً مشوهة بالأجساد. والمزيد من العتمة في الخلف. وفي الأمام حفرة من الظلام تبتلع القرية. كان الصمت يضيي السكون على الأشياء، كأنها في حالة

من الأبدية، على الرغم من صدور صدى بعض الأصوات أحياناً، كانت غامضة، مكتومة، شبيهة بالخطى الثقيلة للكثائب في الظلام. لكن، شيئاً فشيئاً، دخلت النجوم في حالة من الهستيريا وأصابت بعضها بعضاً بالشحوب. ولمع ضوء شاحب في الشرق، خلف ظهور الرجال. بدت التلال التي تحرس الوادي من ناحية الغرب بلون الضباب. أعتمت السماء قليلاً بسحب خفيفة بلون الزئبق. غرقت المدينة في عتمة شفق متحرك، فبدت كصندوق مليء بالدمى وسط الجبال هائلة الضخامة. تفرقت أفواج كبيرة في الشوارع. وانشق الهواء بنداات كثيبة من الأبواق. أخلى الإسبان مواقعهم. ارتفعت سحبات غبار ودخان في الشمال الغربي: كانت القوات التي بكرت بالاستيلاء بعدما أمضت الليلة في البساتين والممرات الجبلية، والرسل والمستطلعون وركض الميليشيات الريفية يلتقون في الأفق.

كان القائد ينظر. أخيراً، كانت لحظة الانتصار تحين، بعد تلك السنوات الأربع الرهيبة، دون ليلة كاملة من النوم، ودون يوم خالٍ من الدم. عاد الإسبان للهجوم مرة تلو الأخرى. لكن الدرس الشهير الذي دحرمهم في عام 1812 تكرر في عام 1814، على الرغم من وحشية الجنرال بيثويلا؛ ولم تعد "جحافل العبيد" لتهاجم الوطن.

أصبح الإقليم حرباً كأنما أتت عليه النار. أكلوا الماشية أو نفقت أثناء السفر. الرجال مشتتون في كل مكان، والناجون متوجون

بالبؤس والعظمة؛ أصبحت الأوسمة تعلق في الألجمة لعدم وجود سترات لتعليقها على الصدر.

في المزارع، في الغابات، من المتسول إلى المرأة العجوز، من المحارب إلى الطفل، من الحيوان إلى الجماد، تتجلى الشجاعة ذاتها كأنفجار بركاني، كأن إلهام قائدهم ينتقل إليهم عبرها... وكل هذا حباً فيه، كل هذا التكتيك بالفرق المنتشرة على مسافات تبلغ آلاف الفراسخ، والتي تنساق خلف إشارة من إصبغه، مفسرة أوامره بشكل غريزي، كما يفهم الحصان أفكار فارسه.

الخراب في كل مكان. توجد الذكرى الكئيبة للملك في كل مكان؛ في الجبال وفي القرى. كان الوطن الوليد ما زال يتذكر الألم بعدما تخلص من نير الملك. حطم آمالاً وقهر مشاعر، كأنما ليقصد صورته في ذهب خالص من الألم، الألوهية كانت تحصد الحيوانات. سواء خرج في طريقه الحب من هنا، والواجبات من هناك. على هذا الجانب كرب، وعلى الجانب الآخر بؤس، مثل الريح، التي تكتسح كل شيء ليدور في زوبعتها. جرف الأرض بركض فرسانه الناهبين. لكن هذا الدمار ذاته عزز بطولات المطاردين.

تساموا بقبول الموت دون شكوى، تطهروا حتى الاستشهاد من أجل المجد رغم المجهولية، ألقوا بأنفسهم للظل، لتأرجح أرواحهم مع همهمة الغابة. هذا الرجل العجوز الذي أصيب فجأة بجنون الرغبة في الموت،

وواجه العدو مستنفداً ما تبقى من قواه. ذلك الطفل الذي تنبه في صدره المرارة الرقيقة، مزيناً التضحية بأمجاد البراءة حيث كانت قطرة دمه زهرة صغيرة سعيدة في حضان الوطن. تلك المرأة، سواء كانت خطيبة أو أمّاً أو جدة، تحتفظ في أعماق أحشائها بذكريات أمواتها، ولا يخفف من كربها سوى بهجة النصر. هؤلاء الهنود بالذهول في حدقاتهم كمن بعث من الموت، بسيقانهم التي لا تتوقف عن سير الفراسخ في السهوب من شروق الشمس إلى غروبها، وبطولتهم التي تحول المعارك إلى متعة دائمة والموت إلى صبر مليء بالكبرياء: كلهم، العجوز والطفل والمرأة والهندي، كانوا يرون أنفسهم منعكسين في شخصه، كل منهم يجسد جزءاً. وترسخت كل مرارة في قلبه. وصعدت كل بطولة في صدره كلهب سام. ومنه انبثقت أفكاره لكل الاتجاهات على هيئة فرسان، حتى واجهوا الموت وفتنوا به، وسقطوا وسط البرق، وقد التوت أقدامهم من نخز المهاميز، وانكسرت اللجم، ليقفزوا بسرعة على نصال السونكي في جنون أعظم أشكال الهجوم.

كان البلد يغلي بالميليشيات الريفية لكن حماسه لم يتراجع. بعيداً عن ذلك، دارت الحرب في القمم والوديان الباردة ودمرت الغابات، وما زالت تنزف دماء إقليم تشاكو، وتثير قبائلها. هناك ينضم مقاتلون جلودهم نحاسية، بملابسهم من جلد الفهد، وهراواتهم وسهامهم ومدياتهم المصنوعة من أفكاك الأسماك. وهكذا قاتلوا لمدة أربع سنوات، وأيضاً دون أسلحة. كانوا يتسلحون بمخلفات القوات النظامية، بالبنادق القصيرة من دون

مفتاح الشرر، والأحزمة المتقطعة، والبارود المتعفن. السيوف التي أمضت ثماني سنوات في الخدمة، ومقابضها من أغصان خشنة، بها مئات الثلمات، وشحذت حتى أصبحت كالسكاكين. الكثير من النبال والعصي. ومدافع من القصدير أو الخشب دون تمييز. أنشوبات بسيطة وأنشوبات الحبال ذات الكريات المعقودة بها. كان الهنود يستخدمون الحجارة كذخيرة للمدفعية. ولم تكن هناك ماشية. نفقت قطعان بالآلاف. كانت الخيول شحيحة، وتدهور حالة البغال لدرجة مرعبة. طلبوا المزيد من هذه وتلك، لكن دون جدوى. قاموا بوضع السروج على الخيول الشابة حتى انتهت. كانت القيادة العامة تدعمهم بالقليل، لكن بعد وقت قصير كانوا يفقدونها في المعارك. في ذلك العام لم يكن يتم الدرس بسبب نقص الأفراس أو الحرث بسبب نقص الثيران.

لم تعد هناك رفاهية أخرى لهؤلاء الناس سوى صور القديسين، ورسالة الجنرال بيلجرانو في قاع الصناديق. ولم يكن هناك من ينهار على الرغم من عدم وجود موارد، لكن أي بؤس مرعب. كان ضباط ييدون كالمسولين يتقدمون القوات التي ترتدي ملابس مهلهلة ممزقة؛ قادة مفلسون، كولونيلات يتفاوضون عمليتي بيزو لشراء معطف مقبول.

كانت القرى ممتلئة بمتسولين مشعبي الشعور ومبتوري الأعضاء، كما كان هناك أفراد يثيرون الرعب كالمسوخ في

الكوايبس. أحدهم يبدو متحللاً، البطن ضخماً، يطلق ناراً من أحشائه التي اخترقتها طعنة. وآخر وصلت الغرغرينا حتى خصره: عينان وحشيتان بسبب الحمى، مثل كأسين من الكحول المحترق. آخر، أصيب في الجبال فتملك منه الجنون، وأصبح أقرب منه لجنّة، رصاصة في الورك، جسده ممتلئ باليرقات. وآخر كثيف اللحية ورأسه ساقط على صدره بعدما تلقى ضربة من سيف هائل على رقبتة. آخر كان يمضغ الكوكا غارقاً في تأمل فلسفي، بينما تقوم المداوية بشفط القيح من أحد جراحه باستخدام القش. أما أكثرهم بشاعة فكانت ملامحه عبارة عن ثقب واحد فقط يجمع بين الشفتين والأنف والعينين المقتعلتين بانفجار قنبلة. وبعد كل هذا ظل على قيد الحياة.

نساء يرتدين الحداد لترملهن حديث العهد، أصبحت وجوههن صفراء، وسط معاناتهن بسبب الظروف والهجران، وبعضهن يرضعن صغارهن، الممتلئة وجوههن بالبثور التي تنضح بالقيح، وأخريات حملتهن الوحدة إلى حالة من التدهور والجنون الحزين، والكثيرات يرتدين البونشو والسترات وسط القوات ويمتن من أجل الوطن.

كانوا بلا مجد أو عظمة. لم يكن هناك من يتذكرهم سوى لاحتقارهم. أقاموا حكومتهم، ووضعوه في مكانة فوق أي رجل عسكري آخر، هو القائد في المقدمة، بجرأته المشبعة بالحكمة، دون تعيين من الحكومة البعيدة؛ لأن الإقليم كان يكتفي بذاته

للحياة كما للموت. واحتج النبلاء على إرادة هؤلاء العوام الذين يضحون بأنفسهم لتشريف الأرض التي أنجبتهم.

كانت الطبيعة تتطهر بالندى، وتستمتع بالفجر مبتسمة، حيث تغطت الجبال ناحية الغرب برماد بنفسجي. والشحوب المائل للخضرة في الشرق يتحول إلى اللون القرمزي، شيء شبيه بماء أثيري، حيث ما زال لونه الوردي الشفقي يتجسد في فكرة ترغب في اكتساب لون. انتشر النور على أوراق أشجار الميموزية، والأفق مصقول بلون توبازي شديد النضوج فوق الجبال، حيث كانت البعيدة منها باللون الأزرق، والقريبة باللون الأخضر الداكن، حيث بدت منخفضاتها كخريطة سماوية. بدت بقع الكبريتات الزرقاء شاحبة على المنحدرات. وبدت قمة تل مائلة على طبقاته، ليبدو كضلع الهائل، وكانت ثايا التلال محفوفة بفيضان من الصلصال مثل جلود الماشية المذبوحة. وتعود السماء القصديرية للحياة بلون أزرق فاتح.

ظهر رأس القائد دون خوذة خلال برهة في النظارة المكبرة للضابط الإسباني. الشعر المجعد الأسود إلى الخلف. الجبهة نبيلة. العينان الكبيرتان ممتلئتان بكبرياء هادئ. الأنف كبير. كان يبدو شاحباً وسط الشعر الغزير للحيته الداكنة.

كان صدره مزيناً بشرائط ذهبية، وعنق سترته يملع بالذهب،

والكتافات تحمل رتبًا مذهبة، وعندما رفع ذراعه ليغطي رأسه، لمعت حافة كم السترة، التي كانت من الذهب أيضًا. حجت حافة القبعة عينيه لبرهة، فاكستت نظرتة، التي تمشح المدينة، بصرامة مهيبية.

لم يؤكد على النصر للثرائين الذين كثيرًا ما اعتبروه مستحيلًا. ثابر بمفرده مع الجاوتشوس المحترقين المقلد من شأنهم، بينما كان العديد من هؤلاء الأشخاص المحترمين يقعون في الدناءة القديمة، ليستبدلوا كراهية الإسبان بإعادة بيع الوطن. لم يرضهم أي نظام سوى ذلك الذي يضمن لهم ممتلكاتهم، ولم يقبلوا إلا بالضمانات والامتيازات. إقطاعيون، سادة على إقليمهم، يحملون بالدساتير قبل إنشاء الوطن، ويسارعون لاستعادة امتيازاتهم مع أولئك الذين أنكروه.

وكانوا يتدخلون في المعارك، لتشويه سمعة القائد. يكرهونه إذا ألقى من ساهموا بدمائهم لأداء الواجب من الضرائب الباهظة. وإذا جمع الأموال، يزداد حسدهم له؛ لأنهم كانوا يريدون فشله وتشويه سمعته في الوقت نفسه. لكنه لم يتراجع مرة واحدة فقط؛ وعدله، الذي كان يخضع الرجعيين بالطبع، كان يخص بعطفه أولئك الجاوتشوس الذين أغواهم مجده، أولئك المحرومين والبائسين، الذين كانوا يرون مرارة أحزانهم كأغنية مجهولة المؤلف.

كان النبلاء يرون في سلوكه خيانة للمملكة، ويسعون لإهانتة

والحط من شأنه حتى في أثنه الأمور، وينتقدونه على الرغم من انتصاراته وسياسته وتكتيكه.

زرع الغابات بالسيوف، شتت قواته لكي تبدو كبيرة العدد في عيون الإسبان، قلل عدد المعارك لأقصى حد، ليسقط الناس بسبب الجوع أكثر من سقوطهم في القتال: - هذه فوضى، جهل... وخوف!

جبان!... نزعوا عنه صفة الشجاعة. توقعوا موته مع أول جرح. كان صوته الخشن يوحي بهذا.

ماذا سيتبقى من بعده للبلاد وللجاوشوس وللنصر الموعود؟

وتدبيرات قدر البلاد، التي كانت تدفع الآخرين نحو الموت، أجبرته على الحياة، في أكواخ الغابة، في كهوف الجبال، مضحياً بدفء القلب، بالحنين للسيف الذي يغشي عينيه بالدموع، وتحمل اشتراك الآلاف من رجاله في المعارك.

لا يهم! في سعيه لأكثر الأمجاد طهرًا، كان تبجيل شعبه ينبئ برد الاعتبار. تنبؤات بتمجيد مستقبلي لإنجازاته. لكنه لم يشترك في تلك الحرب من أجل المجد أو الشهرة، بل حبًا في الحرية، الحب الذي أسره وأسكره بنبيله القوي.

وأشاعوا أنه دموي أيضاً، على الرغم من تساهله المعروف أمام قسوة  
الإسبان. لم يكن من المؤمنين بسياسة العين بالعين، أو ممن يعيشون  
بغضب وحشي، لكن حكماً أو اثنين بالشنق، وبضعة أحكام بجلد الإسبان،  
أسهمت في اتهامه بالطغيان. لكن الحرب لا تخاض بالتطويب أو بالشفقة.  
وظفاظة الميليشيات الريفية، التي نجمت دائماً عن عمليات الإعدام المروع،  
تفسر تلك التجاوزات.

ماذا كانوا يريدون إذن؟ أن تحل ملابس رجال الدين محل السيف؟

ومن المآخذ عليه أيضاً ما عرف عن قدرته الهائلة على الغواية، والتي  
كانت صفاته الحسنة تضاعفها، سواء مع سيدة أو مع فلاح؛ فقد كان مميّزاً  
أمام النار كرجل من الجاوتشوس، وأيضاً فارساً جذاباً كمثل على المسرح.  
وقد كرهوا بنفس القدر واقي السيقان المطرز بالحريير والذهب، وكتافته  
الثمينة، والشرايط اللامعة حول معصميه، وأبهة القيادة التي صنعت مكانته  
بين الغوغاء.

أسرعت كتائب الملك الإسباني في التراجع. وتفرقت على مبعدة بسيطة  
في معارك جزئية. أصبحت الحقول تَمور بركض الخيول.

أصبح اليوم مضيئاً. تقدمت هالة في السماء، من خلف ظهر القائد،  
لتمجده. اختفت الملامح وهيئات الأجساد تحت الألق.

وفوق التلال المواجهة، انزلق ضوء حريري، مع ظلال مزرقّة تضيء اللون البرتقالي على الصفرة العشبية للأرض، حتى تماهى مع الصلصال الوردى. صعدت سحابة قرمزية في الشمال الغربي. وظهرت قمة مغطاة بالجليد في الشمال.

كانت بقعة ضوء الشمس متوهجة، وتحمص الجليد بمسحة دافئة ليصبح كالسكر الخام. كانت لمسات الشمس الناعسة تحيط بالتلال وترشح شفافية غبارية فوق التلال القصديرية.

نشرت الغابة أشجارها الكثيفة على الوديان والمنحدرات: هنا خضار الصيف المتأخر، هناك حمرة الخريف، مثل الخيش القديم، فيما يشبه بقايا صمغ أصابها الصدأ. كانت أوراق الشجر تنثر ألوان قوس قزح كالمطر. كانت بضع سيقان مائلة، ببراعمها آخذة في التحلل وتبدو كأشجار ياسمين ضخمة. وكانت الشمس توحى بأفكار المجد.

ليتقولوا بما يريدون، بينما كان الكثيرون يحطون من شأنه، كان سان مارتين يرعاه. منذ كان قائداً لحملة، استحق دائماً سمعته، تحول فرخ النسر إلى نسر إنديزي ماكر. ولم يخذل سلالة البطولة.

هذا ما أدركه ونشره الإسبان رغماً عنهم. كان المجلس التأسيسي يتفاوض من وراء ظهر القائد، وكانت البلاد بأكملها منتبهة لمصير المحافظة الممزقة. لن يضع الملك الإسباني يده

عليها مطلقاً بعد هذا الدرس. أتت الأخبار من مدريد ومن بيرو العليا: استسلم الجنرال "تاربخا"، انهزم الجنود الملكييون في المعركة، القبائل تثور مرة أخرى. وإشاعة أكبر من كل هذا: سان مارتين في تشيلي...

وهكذا، بينما كان الوطن منخرطاً في النقاش من الداخل، كان منعكساً في الوقت ذاته في النمط الوحدوي لأبائه ومتجسداً في بوتقة الانتفاضات بالغريزة الفيدرالية لقيادته. وبينما سعت الروح الوطنية إلى تقرير مصيره وسط عاصفة عنيفة، كانت جيوش الثورة، كالسيول التي تسقط من الجبل، تفقد حيواتها منفية على أرض أجنبية رغم انتصارها، أو تتعرض للافتراء عليها في أرض الوطن، ولكنهم بذلك يضمنون مستقبله وسط الأمم.

كانت جبهة القائد متوجة بكبرياء مهيب. كانت نضارة الصباح تعطره بروائح طيبة قوية. تردد صدى التفجيرات في القتال وضجيج الصهيل والصراخ. كانت الكتابب الأخيرة تتعارك في الضاحية المدمرة.

وأشعة الشمس تحيط رأسه بالنار. بدت جبهته هادئة، أما بهجته فكانت تنبئ بالحظ السعيد. كانت عظمته نوراً خالصاً. أفكار كبيرة للوطن، ذكريات، كلها عن البطولات؛ والإلهامات، إلهامات النصر، التي تعفو عن منافسيه وتضمهم إلى أصحاب الأمجاد. كان يفتتح الحرية في جبله، مستبدلاً المحن بالنصر. شخصان فقط يمكنهما التباهي بهذا: هو، في جبال الإنديز

الشمالية. وآخر في جبال الإنديز الغربية.

وبعد ذلك الكثير من القمم. بعضها يبدو كالأقماع، وأخرى تبدو كالقباب. أحياناً مغطاة بأشجار كثيفة داكنة، وأحياناً بأخضر رخو، بنعومة حسية تقريباً، بثنايا فتاة بدأت في البلوغ، بكثافة إبطيها الداكنين. القمم دائماً، القمم حوله، القمم في الأفق، كأن كل تلك الأرض قد نهضت وانتصبت في جبال للترحيب به. وفي قفزة إعجازية، تحملها في تحليق مبهر، لتطل إحداها على تشيلي، وأخرى فوق بيرو العليا وبيرو السفلى، في الشمس تمت أجنحة الحرب التي كانت السيوف اللامعة هي ريشها. في الماضي، كانت الرايات العدوانية التي تحمل صليب بوجوني؛ وفي المستقبل، لا تزال الأرض المقدسة ترتعش بعد خلاصها، تعد بهجتها بالرحمة والخصوبة، وتطمح لأحلام كبيرة.

شردت النظارة المكبرة الإسبانية لبرهة، وحطت على السترة الحمراء كأنها تودعها. ذاب الذهب الشمسي في طبقة من الألق. كانت الخوذة والكتافات تطلق بريقاً كالشرر. ازداد بريق الشمس؛ ودار القائد بالحصان قليلاً، وحينئذ، سطعت "شمس مايو" في المكان الذي شغله رأسه.



"حرب الجاوتشوس" مجموعة قصصية تتناول مشاركة المحاربين الجاوتشوس (المخلصين من أب أوروبي وأم من السكان الأصليين في الأرجنتين وأوروغواي)، في حرب الاستقلال بأمريكا اللاتينية بين عامي 1815 و 1825. الطبيعة الملحمية للقصص وقوتها جعلت الكتاب يحظى بنجاح كبير وقت صدوره. وقام لوجونيس بالسفر إلى محافظة "سالتا" حيث جرت وقائع الحرب في الأرجنتين لكي يسجل الروايات الشفاهية للسكان عن الأحداث، وهو ما يمنح القصص زخمًا وحيوية وفرادة، فضلًا عن وصف الطبيعة والعادات وأسلوب الحياة.

ليوبولدو لوجونيس، (1874-1938) كاتب وسياسي أرجنتيني، من أهم مرسخي الحداثة في أمريكا اللاتينية بعد الشاعر النيكارجوي الأشهر روبين داريو. كان أول من كتب الشعر الحر باللغة الإسبانية. ويُعتبر من رواد أدب الخيال العلمي والأدب الخيالي في الأرجنتين، وهو ما جعله يحظى بمكانة خاصة لدى بورخيس، فألف كتابًا يحمل اسمه كعنوان. وفي هذا الكتاب يشير إلى أن لوجونيس قد بدأ في نشر القصص الخيالية عام 1896، حيث تحفل مجلات تلك الفترة بالكثير من قصصه التي لم يتم جمعها في كتب بعد ذلك.

وقد أبدى لوجونيس اهتمامًا بالإنتاج الأدبي السابق بالإضافة لسعيه للتجديد والثورة على الأساليب التقليدية العتيقة. وخصص مجموعة من المحاضرات لأهم الأعمال التي تتناول الجاوتشوس في الأرجنتين، وهو "الجاوتشو مارتين فييرو" للكاتب خوسيه إرنانديث، وبعد ذلك، وبدافع أيضًا من الروح الوطنية التي كان بورخيس يتهمك من سطوتها بعد الاستقلال في القرن التاسع عشر، كتب قصص "حرب الجاوتشوس".

